مع بدايات السياسة الأمريكية في الشرق العربي

د. خيرية قاسمية

كلية الآداب ـ جامعة دمشق

اتبعت الولايات المتحدة منذ ظهورها كدولة في نهاية القرن الثامن عشر، مبدأ الحياد والعزلة في سياستها الخارجية، وقد وضع أساس هذه السياسة جورج واشنطن ١٧٨٩ ـ ١٧٩٧، واكدها جيمس مونرو ١٨١٧ ـ ١٨٢٥ (١)، ولم يكن هذا يعني انفصال الولايات المتحدة الامريكية عن العالم الخارجي وعزلتها عن مشاكله، ولكنه يعني ان تستقل الولايات المتحدة عن المعسكرات الدولية في اتباع السياسة التي ترى أنها تتفق ومصالحها.

وازداد اهتمام الولايات المتحدة بالسياسة الخارجية بعد الحرب الاهلية الامريكية ١٨٦١ ـ ١٨٦٤ بسبب التطور الكبير في الزراعة والصناعة وسعيها للحصول على اسواق عالمية لتصريف منتجاتها. ورافق ذلك البدء ببناء أسطول بحري حديث، وهذا ما دفع الولايات المتحدة لتنطلق خارج حدودها ولتعمل على التأثير في مشاكل العالم المختلفة (٢). وكان الجو الدولي ملائما اذ كانت الدول الاوربية الكبرى تتسابق في ميدان الاستعمار للاستيلاء على مناطق في افريقيا واسيا وتبرم محالفات سرية، وتقوم بمناورات دبلوماسية وحربية، وأخذ كثير من الامريكيين ينادي بالمشاركة في هذه المناورات الدولية طمعا بالحصول على دور فيها، وازداد نشاط السياسة الخارجية بعد تولي تيودور روزفلت الرئاسة عام ١٩٠١، وتعزيز قوة الاسطول البحري، بحيث اصبحت الولايات المتحدة منذ أوائل القرن العشرين احدى الدول الثلاث أو الاربع الكبرى التي لها مصالح قوية في حفظ التوازن الدولي (٢).

اهتمام امريكي مبكر بالوطن العربي:

لقد ادركت الدول الكبرى في العصر الحديث اهمية الوطن العربي وكانت مصالح هذه الدول واحدة (٤). ولكن تفوقت مصالح بريطانيا بسبب اعتمادها على قوتها البحرية ولاهتمامها بالمرور الى الهند وقد ابدت الولايات المتحدة قدرا

ملحوظا من الاهتمام بالمنطقة العربية في آسيا وافريقيا ، ففتحت موانىء شمال افريقية العربية للتجارة الامريكية ، وساهمت الهيئات الدبلوماسية واصحاب المصالح التجارية والارساليات التبشيرية والبعثات العسكرية والثقافية بنشر نوع من النفوذ الامريكي خلال القرن التاسع عشر في مساحات شاسعة من شمال افريقية وشرقها وفي منطقة الشرق الاوسط بين البحر المتوسط الى الخليج العربي وامتد هذا النفوذ الى المحيط الهندي (٥) .

الا ان المصالح الامريكية لم تكن بقوة مصالح الدول الاوربية الكبرى كما أن اساطيلها لم تكن بقوة قوات البحرية الاوربية وفي مقدمتها بريطانيا ، ولذلك لم تبد الولايات المتحدة أي مطمع في أراضي الدولة العثمانية حين بدأ الصراع بين الدول الكبرى لتقسيم ممتلكات الدولة ، ولم يتخوف منها الاتراك العثمانيون خاصة ان الولايات المتحدة كانت تقوم منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بالتوسع في المحيط الهادي والبحر الكاريبي (٦) ، وتمتعت الولايات المتحدة بمكانه كبرى داخل الدولة العثمانية ، ودخلت السباق مع الدول الكبرى لنيل الامتيازات الاقتصادية في انحاء الدولة (مد السكك الحديدية (٧) ، والتنقيب عن الثروات المعدنية وخاصة البترول في العراق وفلسطين (٨)) كما مارست الارساليات الامريكية نشاطا كبيرا في المجال الديني والثقافي والصحي .

ومن خلال سعي الولايات المتحدة لتأمين مصالحها في الدولة العثمانية كان الاهتمام الذي ابدته باحوال اليهود في الدولة العثمانة بوجه عام وفي فلسطين بوجه خاص ، وانشأت الولايات المتحدة اول قنصلية لها في القدس ١٨٥٦ ، رغم ان عدد اليهود الامريكيين في فلسطين كان ضئيلا ، كما ظهر اهتمام امريكي فردي بالاستيطان اليهودي (٩) . ومع ازدياد موجة الهجرة اليهودية الى فلسطين اواخر القرن التاسع عشر وبدايات الحركة الصهونية أبدت الهيئات القنصلية الامريكية اهتماما باوضاع اليهود في فلسطين كسائر البعثات الاجنبية التي تحركت للعمل لصالح الصهيونية (١٠) . ومع ان الدور الدبلوماسي الامريكي في مساندة اليهود لم يكن بارزا في نهاية القرن التاسع عشر قياسا بالدور البريطاني، ولم تكن الحركة الصهيونية قد قويت بعد في الولايات المتحدة ، فقد اقحم الصهيونيون أنفسهم في وزارة الخارجية الامريكية ، وضمت الحركة الصهيونية الى صفوفها عددا من المحامين والاساتذة ورجال الفكر الامريكيين (منهم القاضي برانديز الذي قام بنشاط كبير في حملة ودرو ويلسون الانتخابية للرئاسة ١٩١٢، وعين في المحكمة العليا الامريكية واختاره ويلسون فيما بعد مستشارا ، وكذلك

فرنكفورتر وهو قاض في المحكمة العليا واستاذ في هارفارد) وتألفت عدة هيئات لجمع الاموال باسم استيطان فلسطين . وقويت الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة مع تدفق المهاجرين اليهود من روسيا وشرق أوربا .

ولم يكن صدفة ان يكون آخر ثلاثة سفراء بعثت بهم الولايات المتحدة الى الاستانة من اليهود (ستراوس ومورغنشو وايلكوس) . ومع ان هنري مورغانثو لم يكن بالاصل صهيونيا الا انه بنتيجة تجربته في الدولة العثمانية أصبح من أشد المتعاطفين مع اعمالهم (١١) ، وابدى اهتماما عميقا بشؤون فلسطين واحوال اليهود فيها وكون علاقات طيبة مع الزعامات التركية ، واستخدم نفوذه كيهودي وكسفير امريكي لصالح يهود الدولة العثمانية ولصالح الاستيطان اليهودي في فلسطين (١٢) . وعطل نشوب الحرب استمرار مساعيه .

الولايات المتحدة والشرق العربي خلال الحرب العالمية الاولى :

احتفظت الولايات المتحدة خلال السنوات الاولى للحرب بحيادها ، الى ان اقر الكونغرس في ٦ نيسان ١٩١٧ طلب الرئيس ويلسون باعلان الحرب . وكانت جملة المبادىء التي عرضها ويلسون على العالم في بنوده الاربعة عشر (٨ كانون ثاني ١٩١٨) وفي احاديثه ورسائله الى الكونغرس تمثل موقف الولايات المتحدة من أهداف الحرب وشروط السلم المقبل ، واقترح ويلسون في هذه المبادىء ، لضمان القضاء على الحروب ولاقرار السلام العالمي ، مبدأ رضى المحكومين كقاعدة اساسية لتشكيل أي حكومة ، وحق تقرير المصير كمبدأ الزامي في المنازعات الاقليمية حيث لا يمكن ان ينقل شعب من سيادة الى اخرى ، والدعوة الى انشاء منظمة دولية تمنع الحرب في المستقبل ، وتوفير الضمانات المتبادلة لتحقيق الاستقلال السياسي والسلامة الاقليمية للدول الكبرى والصغرى على السواء (١٣) ، وكانت هذه المبادىء من أهم التصريحات السياسية في التاريخ الحديث فتحت للولايات المتحدة دورا في تسوية مشكلات مابعد الحرب في وقت لم تكن قد توضحت للولايات المتحدة أي مطامع سياسية او اقليمية في المناطق الحيوية من العالم .

وقد واجهت آراء ويلسون المثالية الدبلوماسية الاوربية التقليدية بكل تعقيداتها ومشاكلها ، والتي تمت محادثاتها حول التسوية قبل دخول الولايات المتحدة الحرب على شكل معاهدات سرية (١٤) . وكانت الدول الاوربية ذات الاطماع الاستعمارية القديمة في الدولة العثمانية ، (روسيا ، فرنسا ، وانكترا)

قد عقدت اتفاقيات سرية فيما بينها لتوزيع ممتلكات الدولة العثمانية في حال انتهاء الحرب ، تصطدم مع مبدأ تقرير المصير الذي كان ويلسون ينادي بتطبيقه. وقد انسحبت روسيا بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ ، فتنازلت عن مطالبها الاقليمية في الدولة العثمانية ، وظلت الاتفاقية قائمة بين فرنسا وانكلترا حول اقتسام الاجزاء العربية من الدولة العثمانية رغم تعهدات بريطانيا للحسين بتأسيس دولة عربية مستقلة في آسيا مع بعض التحفظات (١٥) . ويشيع الرأي القائل ان انكلترا وفرنسا قد أخفتا عن ويلسون المعاهدات السرية ، ولم يعرف بها الا في مؤتمر السلم (١٦) ، الا ان وثائق ارشيف ويلسون تشير الى أنه قد اطلع على تلك المعاهدات خلال زيارة بلفور للولايات المتحدة في نيسان ١٩١٧ (١٧) . الا ان الاتجاه الامريكي كان يقوم على اساس استبعاد جميع التسويات السرية التي ابرمها الحلفاء أثناء الحرب .

ولم يتبع دخول الولايات المتحدة الحرب في الميدان الغربي اعلان الحرب على الدولة العثمانية (التي كان الشطر الاكبر من الشرق العربي لايزال تحت سيطرتها) ، وذلك لعدة اعتبارات منها عدم اتاحة الفرصة لالمانيا للسيطرة على الشرق العربي والخوف من تهديد المؤسسات الامريكية ، او ايقاف اعمال الاغاثة الامريكية في مناطق الدولة العثمانية وخاصة ليهود فلسطين (١٨) . وكانت الولايات المتحدة وقد تسلمت شؤون مصالح الدول الحليفة في الدولة العثمانية اثر انسحاب الممثلين الدبلوماسيين لتلك الدول ، وتحت ضغط الصهيونية ، تولت مسؤولية تقديم مختلف انواع المساعدة والدعم ليهود فلسطين نظرا لان معظم المؤسسات الصهيونية في فلسطين كانت تتمتع بحماية بريطانية او فرنسية فاعتبرت املاك عدو ، كما أن نصف يهود فلسطين كانوا من أصل روسي اكتسبوا الجنسية البريطانية قبل الحرب (١٩) ، وبمساعي الولايات المتحدة وضغط اليهود فيها توقفت كل الاجراءات العثمانية ضد الصهيونيين في فلسطين وتدفقت الاعانات والاغذية الى يهود فلسطين ولحماية الاقتصاد الصهيوني في المستوطنات وتساهل الحلفاء في فك الحصار البحري عن مواد الاغاثة المرسلة على السفن الامريكية والتي وزعت باشراف القناصل . وحتى بعد دخول الولايات المتحدة الحرب لم تن[illegible] الاعانات عن يهود فلسطين ، فكانوا احسن حظا من سائر سكان الدولة العثمانية (٢٠) .

[illegible] موقف الولايات المتحدة بعدم اعلان الحرب [illegible] المحاولة التي قا[illegible] [illegible] الوطن الكبير [illegible]

وعقد صلح منفرد معهـا بحكم الصلات السابقة التي كانت تربطـه بالمسؤولين الاتحاديين وبذوي النفوذ من اليهود والدونمة في الدولة العثمانية (٢١) . واعدت بعثة مورغنثو بموافقة ويلسون ووزارة الخارجية الامريكية بطريقة سرية وكان غطاؤها التحقيق باوضاع اليهود في الدولة العثمانية خاصة وان الاهتمام الذي كانت تبديه الولايات المتحدة في ذلك الوقت باليهود في فلسطين قد قدم حجة جاهزة لارسال هذه البعثة في ٢٠ حزيران ١٩١٧

ولم يكن من مصلحة الخطط البريطانية والصهيونية عقد صلح منفرد مـع الدولة العثمانية في وقت اتخذت فيه الوزارة البريطانية قرارهـا في ٥ حزيران ١٩١٧ بالهجوم الحاسم في فلسطين لاخراج الدولة العثمانية من الحرب بضربة قاضية . كذلك كانت المفاوضات الصهيونية مـع الحكومة البريطانية لاصدار تصريح بلفور قد دخلت مرحلتها النهائية . وبتخطيط من بلفور اعترض وايزمان خط البعثة في جبل طارق واقنع مورغنثو بالعدول عنها بحجة ان لامصلحة للحلفاء ولا للمنظمة الصهيونية بعقد صلح منفرد مع تركيا (٢٢) ، وحوّل بعثة ويلسون الخاصة عن وجهتها وضمن خروج فلسطين نهائيا من يد الاتراك .

وكانت الحكومة البريطانية تأمل في أن يساعـد نشـر البيـان البريطاني لصالح الصهيونية على التعجيل بدخول الولايات المتحدة الحرب وارسال القوات الامريكية الى أوربا وتأمين مساعدة أصحاب البنوك اليهود (٢٣) . وكان براندیز قد أشار مراراً الى الرئس ويلسون والمسؤولين الامريكيين بامـر المفاوضـات الجارية في لندن بين الصهيونيين والوزارة البريطانية (٢٤) . وخلال زيارة بلفور الى واشنطن في نيسان ١٩١٧ لاجراء مفاوضات سياسية عسكرية خطيرة ، وبتوصية من ويلسون ، جرى لقاء بين بلفور وبرانديز (٢٥) . وكان الاخير قد تلقى رسالة من وايزمن كي تقف الحركة الصهيونية ضد المبادىء المناوئة « للالحاق » التي اعلنتها الولايات المتحدة مؤخرا ، لانه ، بنظر وايزمان، اذا لم تتنصر سياسة « الالحاق » البريطانية فان الصهيونيين لن يحصلوا على فلسطين (٢٦) . وقـد اتضح لبلفور خـلال مباحثاته في الولايات المتحدة ان تأييد بريطانيـا لمطامـع الصهيونيين بفلسطين سيزيد المساعدة التي تقدمها الاوساط المتنفذة في الولايات المتحدة للحلفاء (٢٧) ، وبذلك أرسي تصريح بلفور نتيجة المباحثات بين بلفور وبرنديز .

وطوال صيف ١٩١٧ كانت المفاوضـات مستمرة بين [illegible] الحكومة البريطانية تتناول بالتقييم والتعـ[illegible]

عبر هذا النص المحيط الاطلسي عـدة مرات للحصول على موافقـة برانديز والمجموعة الصهيونية الامريكية . ومن اجل الوصول الى قرار سريع كان لابد من الحصول على موافقة ويلسون ، وطلب وايزمان مـن الزعماء الصهيونيين في الولايات المتحدة تدخلهم لحمل ويلسون على الموافقة على توضيح الخطر الذي سينجم عن سبق المانيا في اجتذاب الصهيونية الى جانبها .

وكان ويلسون رغم عطفه على الصهيونية ، لايزال تحت تأثير فكرة امكان انتزاع الدولة العثمانية من الحرب كما شغلته احداث الثورة الشيوعية ، مـع ذلك بعث مستشار ويلسون وصديقه الحميم الكولونيل هاوس ، باسم ويلسون، في١٦ تشرين اول١٩١٧ الى الحكومة البريطانية موافقته على الصيغة المقترحة(٢٨) وبدا الطريق أمام اصدار بيان بلفور وقد خلا من العقبات وكان تأييد التصريح يعني الموافقة على تقسيم الدولة العثمانية التي تعتبر فلسطين جزءا منها كما يتناقض مع مبادىء ويلسون الاربعـة عشر وخاصة حق الشعوب في تقريـر مصيرها (٢٩) . ولكن التصريح على وجه العموم بعث ارتياحا كبيرا لدى الاوساط الصهيونية في الولايات المتحدة ، وساعد على ازدياد مساهمة الولايات المتحدة في الحرب عسكريا وماديا خاصة بعد خروج روسيا من الحرب وازدياد الضغط على الجبهة الغربية .

وقد ظلت الولايات المتحدة على صلة بما كان يجري في الشرق من احداث خلال الحرب عن طريق ممثليها الرسميين في المنطقة الذين تولوا ارسال معلوماتهم الى وزارة الخارجية (٣٠) ، وفي ايلول١٩١٧ كلف ويليام ييل،(وكان مندوبا لشركة ستاندرد للبترول في القدس ١٩١٥ ــ ١٩١٧) كممثل خاص لوزارة الخارجية الامريكية لتغطية الاحداث التي تجري في شرقي السويس أي سورية وفلسطين وشبه الجزيرة العربية (٣١) . والتحق ييل بحملة اللنبي على جبهة مصر فلسطين كمراسل حربي ، وتضمنت تقاريره كشاهد عيان وصفا لـما كان يجري على المسرح العسكري أو المسرح السياسي (٣٢) . وبلغ مجموع التقارير التي بعث بها الى دائرة شؤون الشرق الادنى في وزارة الخارجيـة الامريكية منذ بـدء مهمته وحتى اعلان الهدنة ٣٤ تقريراً ، تناول عـدد منها المسألة الصهيـونية وردود فعلها في الشرق، وكان أول من نبه للقضية العربية في وقت تجاهلها الصهيونيون، والى ان التملك اليهودي لفلسطين سيدخل العرب واليهود في صراع عنيف اقتصادي وثقافي وسياسي . ومما اضفى على تقاريره مزيدا من الاهمية المكانة الخاصة التي كان يتمتع بها بصفته مبعوثا لوزارة الخارجية الامريكية والتي لها شأن كبير بنظر كل الاطراف المعنية بالمنطقة ومشاكلها .

الولايات المتحدة والقضية العربية داخل اطار مؤتمر السلم في باريس ١٩١٩ :

كان العرب قد علقوا الآمال على مبادىء ويلسون وعلى السياسة التي أشيع في العالم بأن الولايات المتحدة سوف تنتهجها بعد الحرب وذلك لمواجهة الاطماع البريطانية والفرنسية نحو بلادهم . وكانت الافكار التي انعشت آمال العرب وقوت ثقتهم بالمستقبل هي التي اعلنت ان الشعوب تملك حرية تقرير مصيرها وانه لن يفرض على أي شعب من الشعوب نوع من الحكم الا برضاه واختياره ، وكذلك انكار الاتفاقات السرية التي تهدف الى اقتسام الدول الصغرى بين الدول الكبرى كغنائم حرب ، وكان المسؤولون البريطانيون والفرنسيون يصرحون اثناء الحرب بنفس مبادىء ويلسون (٢٣) . وتطلع العرب الى امكانية التحول في الاوضاع العالمية ، الذي يحدث عادة في اعقاب الحروب لتحقيق مستقبل سياسي افضل خاصة وان اسهام العرب في احداث الحرب في انحاء مختلفة من الوطن العربي (سواء تلك الأجزاء التي وقعت تحت الاحتلال الغربي قبل الحرب أو تلك التي ظلت جزءا من الدولة العثمانية) كان يبشر بالمكافأة بعد الحرب .

وكانت جميع الشعوب الصغيرة التي شهدت نموا متزايدا في الفكرة القومية تبحث عن العدالة في مؤتمر السلم الذي افتتح في باريس في كانون الثاني ١٩١٩ ، ليحقق الاعتراف بمطلبها في الاستقلال او على الادق بمبدأ رضى المحكومين وحق تقرير المصير حسب المبادىء التي عرضها ويلسون على العالم . ورغم اختلاف الاوضاع تماما بعد الحرب وقبول مبادىء ويلسون وافتضاح بعض المعاهدات السرية ، ظلت الادعاءات التي قدمتها الدول الكبرى بعد الحرب هي نفس ادعاءات المعاهدات السرية مع فرق في الشكل وليس في المحتوى (٢٤) . وجرت معظم تسويات مؤتمر السلم وراء ابواب موصدة وفي جلسات سرية واتخذت القرارات من قبل مجلس العشرة (مؤلف من رؤساء الدول الكبرى ووزراء خارجيتها) ، او مجلس الاربعة (مؤلف من رؤساء الدول الاربعة : ويلسون ــ كلمنصو ــ لويد جورج ــ اورلاندو رئيس وزراء ايطاليا) قبل ان تعرض على وفود الشعوب المختلفة التي تهمها مباحثات السلم . ومع أنه سمح لهذه الوفود بالتكلم أمام المؤتمر وعرض قضاياها ، كما مثلت في لجان مختلفة ، لم يكن لها سلطة تقرير او ابداء رأي أو اعتراض على خطة سيما اذا تناقضت مع مصالح الدول الكبرى .

وكان العرب من جملة من عانوا من هـذا المخطط الجديد في فترة ما بعد الحرب . وتبين البون الشاسع بين ما يطالب به العرب وما ترضى الدول الكبرى

ان تعترف به ، اذا لم يعد للعرب بعد هزيمة الدولة العثمانية الفائدة التي كانت لهم أثناء الحرب ، ورفضت بريطانيا في تشرين ثاني ١٩١٨ طلب وفد في مصر يرأسه سعد زغلول بالاذن بالسفر الى لندن لطرح قضية الاستقلال طبقا للمبادىء الاساسية التي نادى بها الحلفاء ، بحجة الانشغال بمؤتمر السلم (٣٦) . واعتبرت بريطانيا مؤتمر السلم تبريرا للتأخير والتنصل من المسؤولية فيما يتعلق بالتزامها للحسين ، وكان تصريح بلفور سلاحا فعالا بيدها تأمل بواسطته ، بالاضافة الى تحقيق المصالح البريطانية ، التخلص من فكرة الدولة العربية الموحدة ، ونسف خطط فرنسا الطامعة بسورية ولبنان وشمال فلسطين . وتمسكت فرنسا بنصوص اتفاقية سايكس بيكو ، ورغم انها قبلت التغيير في التوزيع الا أنها لم تشأ التخلي عن مبدأ الاتفاقية (٣٧) . وتمت في لندن صفقة شفوية بين البلدين في كانون اول ١٩١٨ كانت مقدمة للاجراءات التي تمت الموافقة عليها في مؤتمر السلم (٣٨) .

وكان الوفد العربي الوحيد الذي اتيح له حضور مؤتمر السلم هو الوفد المرافق للامير فيصل بوصفه نائبا لوالده . وكان فيصل يرأس حكومة عربية انشئت في سورية الداخلية ولكنها تدخل عمليا ضمن الاجراءات العسكرية المطبقة على الاراضي المحتلة الى ان تتم التسوية النهائية (٣٩) .

وفشلت نداءات سعد زغلول الى ويلسون بطلب مساعدته في السماح لوفد يسمع صوت مصر ويفضي بمطالبها في مؤتمر السلم ويحتج على فرض الحماية التي ليست الا عملا من الاعمال الحربية ويطالب بالاستقلال تطبيقا للمبادىء الجديدة التي تقضي باحترام الجنسيات (٤٠) . وفشل نداء آخر وجهه سعد الى كلمنصو رئيس مؤتمر السلم باسم الانسانية التي تأبى ان تكره الامم على ان تنتقل من يد الى اخرى كما تنتقل ملكية السلع (٤١) . وجدد احتجاجه الى لويد جورج بمناسبة مرور الوفد السوري بمصر للذهاب الى فرنسا فطالب ان تعامل مصر حسبما اتفق عليه مع ويلسون ، ولم يستبعد سعد امكانية تطبيق المبادىء الجديدة التي خرجت بها الانسانية من الحرب متى جد ويلسون في تطبيقها ومتى صحت نيات اكثرية الدول التي اقرتها ، وانه لا ينقص مصر الا ان يسمع مؤتمر السلم صوتها فيعترف باستقلالها (٤٢) . وقد دفعت هذه التحركات القيادة البريطانية الى توجيه انذار الى الوفد بعدم معارضة الحماية وطلب الاستقلال وانتهت بنفي سعد ورفاقه وتفجر الثورة (٤٣) .

وقد استبعدت في مناقشات مؤتمر السلم المناطق العربية التي كانت قد احتلت قبل نشوب الحرب (شمال افريقيا العربي بما فيه مصر) ، أما المناطق التي بقيت تحت حكم الدولة العثمانية (سورية الطبيعية والعراق والجزيرة العربية) فكانت من أهم المسائل التي شغلت مؤتمر السلم نظرا لتعلق مصيرها بمصير الدولة العثمانية ، وهي قضية اختلفت آراء الدول الكبرى بشأنها لان لها مصالح في اجزاء مختلفة منها .

وفي شباط ١٩١٩ عرض فيصل المطالب العربية في مؤتمر السلم طبقا للعهود التي منحت للحسين باستقلال الاجزاء العربية في آسيا ووحدتها ، واستشهد بالنقطة الثانية من خطاب ويلسون تموز ١٩١٨ التي تنص على ان تسوية اية مسألة ستبنى على اساس القبول الحر لهذه التسوية من قبل الشعوب المعنية مباشرة (٤٤) . ورغم تواضع مطالب فيصل ، اذ لم يتحدث عن قضية العرب في افريقيا فقد كانت فرصته في النجاح ضئيلة ، مهما كانت صحة مطالبه من حيث المبدأ وقيمة الاثر الذي احدثه على سامعيه ، اذ كان المسيطرون على المؤتمر قد خططوا لمستقبل الشرق العربي قبل ان يستمعوا اليه .

وفي ٣٠ كانون الثاني ١٩١٩ وفي جلسة خاصة بحضور ممثلي الدول الكبرى اتخذ المؤتمر قرارا مؤداه فصل اجزاء معينة من الدولة العثمانية هي سورية وفلسطين والعراق وارمينيا وكليكيا واجزاء اخرى من آسيا الصغرى ، ووضعها تحت اشراف عصبة الامم عن طريق حكومات تعمل كدول منتدبة تستطيع ان تأخذ على عاتقها رفاهية هذه الشعوب وتقدمها (٤٥) . وكان هذا القرار اساسا للمادة ٢٢ من ميثاق عصبة الامم الذي وضعت مسودته النهائية في ٢٨ نيسان ١٩١٩ (٤٦) . وقد سأل ويلسون فيصل بعد القاء خطابه ان كان يؤثر ان يرى دولة واحدة تتولى الانتداب على شعبه او يتولاه عدد من الدول ، وكان ذلك خروجا عما كان يطالب به فيصل من الاستقلال والسيادة ، وامتنع عن الرد بصورة صريحة ولكنه طالب باتخاذ خطوات ايجابية للتحقق من رغبات الشعوب المعنية حتى يمكن الوصول الى تسوية عادلة مؤكدا مبدأ موافقة المحكومين حسب مبادىء ويلسون (٤٧) .

وقد تأخر الوصول الى اتفاق بشأن مصير سورية لانها كانت تمثل قمة المساومات والتناقضات والتحالفات السرية وموضوع المشاحنات بين بريطانيا وفرنسا (٤٨) ، وقد وجهت وزارة الخارجية الامريكية الدعوة للدكتور هوارد بلس مدير الكلية البروتستنتية في بيروت (الجامعة الامريكية فيما بعد) ليأتي الى

باريس ويدلي أمام مؤتمر السلم بآرائه حول الوضع في سورية نظرا لخبرتـه الواسعة ومعرفته الدقيقة بشـؤون لبنان وسورية وكـان كسائر المراقبـين الامريكيين في سورية من الذين يعطفون على آراء ويلسون واصبحوا عاملا لابأس به في جلسات المؤتمر . وقد نقل الى اعضاء الوفد الامريكي لمؤتمر السلم اعتقاده بأن السوريين سيختارون بالدرجة الاولى الولايات المتحدة لتكون الدولة المنتدبة ومن بعدها بريطانيا . اماا ختيارهم امريكا ، من وجهة نظره فهو لانها بلد محايد وليس لها مصالح انانية . وكتب الى ويلسون رسالة شخصية يخبره فيها عـن مدى ثقة السوريين بمبادئه وتطلعهم الى فرصة يمكن معها التعبير عن مطامحهم السياسية (٤٩) . وامام مجلس العشرة في ١٣ شباط ١٩١٩ عرض بلس هذه الآراء مطالبا بارسال لجنة تحقيق من ممثلين مفوضين عن المؤتمر الى سورية للحصول على بيان دقيق عن وجهة نظر السوريين وعن امانيهم بالنسبة الى نوع الحكم الذي يرغبون فيهوبالنسبة الى الدولة الحاميةالمنتدبة اذا شاؤوا ذلك(٥٠).

وقد وقفت الحركة الصهيونية كاتجاه خطير يعارض تحقيق المطالب العربية في سورية . وكان الوفد الصهيوني الى مؤتمو السلم يسعى للحصول على تأكيد دولي لتصريح بلفور وتأمين ضمه الى نص معاهدة السلم وميثاق العصبة . ومع ان النفوذ الفعلي في الوفد كان ليهود بريطانيا (برئاسة وايزمان) الا ان كفة يهـود الولايات المتحدة من ذوي النفـوذ كانت راجحة (براندیز وفرنكفورتر) بسبب وجود ويلسون . وكسب الصهيونيون دعم الوفد الامريكي الرسمي الى مؤتمر السلم الى جانب الدعم البريطاني كي يضمنوا من المؤتمر كل مساعدة ممكنة وكي تعترف العصبة بفلسطين دولة يهودية (٥١) . واعتبر ويلسون ان الوطن القومي اليهودي هو احد اثنين من المنجزات الجديدة التي انبثقت عنها الحرب الى جانب العصبة (٥٢) . ويذكر لورنس ان جهوده انصرفت الى أن يكون التعاون الامريكي البريطاني في الشرق معززا بمشاريع الصهيونية .

ولم تغـير موقف الوفـد الامريكي الرسمي الى مؤتمر السلم مجموعـة البرقيات والاحتجاجات من الهيئات الامريكية في الشرق واليهـود المعـارضين للصهيونية والعرب المقيمين في الولايات المتحدة (٥٣) ، التي تحذر من تنفيذ تصريح بلفور لتناقضه مع مبادىء ويلسون فيما يتعلق بتقريرالمصير. وعرض فرنكفورتر على الوفد الامريكي الرسمي مسـودة صك الانتداب قبل عرضه على ممثـل الدول (٥٤) . واستغل فرنكفورتر وقوع الوفد العربي الى مؤتمر السلم تحت ضغط الحكومة البريطانية وعدم ادراكه الاعيب السياسة الدولية ، الى الحصول

على تصريح من فيصل ، بتدبير لورنس ، يؤكد فيه على التفاهم والتعاون بين العرب واليهود للعمل معا من أجل نهضة الشرق كله (٥٥) .

لجنة كنغ ـ كرين : تجربة امريكية للتعرف على أوضاع الشرق العربي ١٩١٩ :

فشلت القضية العربية في باريس ، وكان غاية ماتمكن فيصل من الحصول عليه اقتراح تقدم به ويلسون لمعالجة مستقبل الاجزاء العربية من الدولة العثمانية بالاطلاع على رغبات سكانها طبقا للمبدأ الذي تلتزم به الولايات المتحدة وهو موافقة الشعوب المحكومة (٥٦) . وخلاصة اقتراحه ارسال لجنة تحقيق من ذوي الخبرة والمؤهلات من الدول الكبرى الحليفة لمعرفة رغبات السكان في المنطقة والتحقق من الوضع ، وعلى اساس الوقائع المكتشفة يمكن ارساء العدالة وتأمين السلام ، وذلك كي يقنع العالم بأن المؤتمر حاول جهده لايجاد اساس موضوعي ممكن للتسوية المقبلة (٥٧) .

وضع ويلسون تعليماته الى اللجنة المقترحة ووافق المجلس الاعلى للحلفاء عليها رسميا في ٢٥ آذار ١٩١٩ . وتقضي هذه التعليمات بزيارة الشرق الادنى والتعرف بقدر الامكان على حالة الرأى العام وعلى الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المنطقة والخروج بتصور حول تقسيم المنطقة وتوزيع الانتداب بحيث يمكن توطيد النظام والسلام وتطوير شعوب هذه البلاد ، واصر ويلسون ان يرسل الممثلين ومعهم تفويض كامل بذكر الحقيقة كما يجدونها (٥٨) .

ورغم ان اقتراح ويلسون كان أفضل ما يمكن للمؤتمر ان يفعله ، الا انه لا يشير الى طريق حل نظرا لان الاوضاع التي اكتسبتها الدول الكبرى في السابق أصبح من الصعب تغييرها ، فتعطلت اللجنة بذلك قبل ان تباشر مهامها . ولكن ويلسون استطاع من خلال هذا الاقتراح ان يدخل الولايات المتحدة الى الشرق العربي ، وكان مبدأ دراسة رغبات الشعوب قبل الموافقة رسميا على وضعها تحت انتداب الدول الكبرى هي الحجة الملائمة .

وكان لاتخاذ قرار ارسال اللجنة اثر كبير على فيصل لانه كان يثق تماما بنتائجها (٥٩) . وقد بدأ يتحول كلية نحو الولايات المتحدة بعد ان عرف ان اتفاقية سايكس بيكو ظلت خطة العمل في اذهان ساسة فرنسا وانكلترا . وظهرت دعاية قوية تدعو الى طلب المساعدة (او ما اطلق عليها مهمة الانتداب) من الولايات المتحدة لكونها غنية وليس لها مطامع في الشرق . وتوسعت الدعاية بنشاط بلس

وبعض سوريي المهجر ، وحزب الاتحاد السوري في مصر (٦٠) . وقد ذكر احمد قدري في مذكراته (وكان احد اعضاء الوفد العربي لمؤتمر السلم) أنه سمع ويلسون يقول للامير : « لن تروا في بلادكم أبدا عمالا للاستعمار باسم المشورة او خلافها . . واذا احوجتكم المشورة فستكون بناء على رغبتكم وموافقتكم »(٦١) .

ولكن رغم الآمال الغامضة التي ظل فيصل يعقدها على دعم الولايات المتحدة لمبدأ حق تقرير المصير ، فان القضية العربية قد سويت ، او كانت على وشك التسوية من قبل الدولتين الكبيرتين وبدت قضية استشارة رغبات السكان عديمة الجدوى . ويعلق أمين الريحاني « انه ويلسون الذي خدع الامير كما خدع غيره من الناس والامم والشعوب لقد توقع فيصل حلا أفضل على يد لجنة تحقيق » (٦٢) .

خيبة أمل مماثلة اصابت سعداً ورفاقه وكانوا ، بعد ان اطلق سراحهم في ٧ نيسان ١٩١٩ قد توجهوا من مالطة نحو فرنسا لطرح قضيتهم امام مؤتمر السلم حيث كانوا يرجون الكثير من الدعوة الويلسونية ولم يستجب « رسول السلام » على طلب الاذن بمقابلة خاصة للوفد المصري ، وجاء الرد المنتظر بصورة اعتراف الولايات المتحدة بالحماية البريطانية على مصر في ١٩ نيسان أي بعد وصول الوفد الى مرسيليا بيوم واحد (٦٣) . واهتمت الحكومة البريطانية بنشر اعتراف ويلسون بالحماية عن طريق القنصلية الامريكية في القاهرة . وصيغة الاعتراف (٦٤) تكشف الطريقة التي استطاعت فيها السياسة البريطانية حمل ويلسون على نقض مبادئه باسم الامن وكراهية العنف بحجة أن المصريين قد اساءوا فهم دعوته وتشجعوا بها على الثورة فهددوا الحضارة والمصالح الاجنبية .

ولقد كانت صدمة ويلسون للوفد من الاسباب التي دفعت سعداً ورفاقه الى التحول في معركة الدعاية عن الحكومات والوسائل الحكومية الى مخاطبة الشعوب (٦٥) ، بصفتهم وفداً من الوفود الشعبية الى جانب مؤتمر السلم . وقد اتجهت انظار الوفد الى نشر الدعاية في الولايات المتحدة ، بسلسلة من البيانات والاحتجاجات وبدات دلائل الاهتمام بالقضية المصرية بين بعض اعضاء مجلس الشيوخ الامريكي ورجال الصحافة ، دون أن يكون لويلسون فضل في ذلك ، فقد كان الوفد قد تلقى ردا على كتاب سعد بطلب المقابلة يعتذر فيه لضيق الوقت ، ويرجو ان يتسع وقته في المستقبل للمقابلة المطلوبة (٦٦) .

وكان ويلسون لايزال في باريس يواجه مناورات السياسة الاوربية تجاه

ارسال لجنة تحقيق دولية الى الشرق . وكانت فرنسا تعارض فكرة التحقيق في سورية في حين وقفت الحكومة البريطانية منهـا موقف الفتـور ، والتقت مصالحها مع مصلحة الصهيونية التي احتجت على اجراء التحقيق في فلسطين حتى لايكشف بأن العرب يرغبون في حكومة عربية (٦٧) . وعبر فرنكفورتر باسم المنظمة الصهيونية الى ويلسون عن مخاوفه من أن يؤدي التحقيق الى حل يخالف مضمون تصريح بلفور (٦٨) . وكان على ويلسون صاحب اقتراح اللجنة الدولية ان يختار بين التخلي عن مذكرة التحقيق أو ان يتولى الجانب الامريكي هذه المهمة، فقرر اتخاذ الحل الاخير (٦٩) . وفي ٢١ أيار اصدر ويلسون تعليماته الى الاعضاء الامريكيين في اللجنة الدولية بالذهاب الى سورية باسم « الجانب الامريكي من اللجنة الدولية بشأن الانتداب في تركيا » ، عرفت اختصاراً باسم لجنة « كينغ ـ كرين » نسبة الى رئيسي اللجنة وكان هذا القرار بنظر ويلسون أفضل مايمكن للمؤتمر ان يفعله في تلك الظروف (٧٠) .

ورغم ان نتائج التحقيق كانت معروفة سلفا ، كان الجميع في الشرق العربي يعلق أهمية كبرى على وصولها لانها برأيهم الوسيلة الوحيدة التي يستطيعون بواسطتها ان يعبروا عن أمانيهم لدى مؤتمر السلم . وسبق قدومها انطباع عام بأن الشعوب تستطيع الاعتماد على ويلسون وعلى الشعب الامريكي من أجـل الوصول الى سلام دائم تحت لواء عصبة الامم . وتلقى ويلسون برقية من فيصل في ٢٢ أيار ١٩١٩ يعلمه فيها بأن كل فرد ينتظر بتلهف قدوم اللجنة (٧١) .

وجرى التحضير لقدوم اللجنة في جميع انحاء سورية وفي العراق ، وتشكل حزب جديد في مصر يضم بعض زعماء السوريين (نمر ، صروف ، شقير) هو الحزب الحر المعتدل أداته السياسية جريدة المقطم واعتبره البعض وسيلة للدعاية الامريكية في الوطن العربي (٧٢) . وعقد في دمشق (مقر الحكومة العربية) المؤتمر السوري العام في مطلع حزيران ١٩١٩ ممثلا لسورية في مناطقها الثلاث باعتباره الوسيلة الوحيدة لاقناع اللجنة بشرعية المطالب العربية ليبين لها رأي الشعب في مصير البلاد (٧٣) . وقد قرر المؤتمرون استقلال سورية ضمن وحدة عربية والاحتجاج على المعاهدات السرية لتجزئة البلاد وعلى تصريح بلفور . ولكنهم قبلوا اختيار الولايات المتحدة لتقديم المساعدة الاقتصادية والفنية والمالية نظرا لثروتها المادية والعلمية ورغبتها بمساعدة الشعوب الصغيرة وعدم وجود مطامع استعمارية لها ، على أن لايكون لذلك معنى الوصاية والحماية أو أي مساس بالاستقلال والوحدة ، وان تعذر فبريطانيـا مـع رفض فرنسا على الاطلاق . واظهروا ثقتهم بمؤتمر السلم ومبادىء ويلسون (٧٤) .

وقضت اللجنة اثنين واربعين يوما في انحاء متفرقة من المناطق السورية الثلاث (٧٥) منذ نزولها في يافا ١٠ حزيران وحتى وصولها مرسين في تركيا (لم تزر العراق واكتفت بلقاء وفد عراقي في حلب) (٧٦) زارت مختلف المدن والقرى واطلعت على جميع وجهات النظر واجرت مقابلات مع وفود تمثل فئات مختلفة تعبر عن الراي العام في سورية وقدمت لها عرائض مختلفة تشرح اراء ورغبات الناس وتردد البعض في المثول أمام اللجنة لعدم ثقتهم بجدواها (٧٧) . وتبين للجنة من خلال المقابلات والعرائض والتحقيقات الشفهية شبه اجماع على قرارات المؤتمر السوري في دمشق ، والتي اعتبرتها اللجنة تمثيلا كافيا للارادة الشعبية.

وقبل أن تضع اللجنة تقريرها النهائي بعث كينغ وكرين برقية الى ويلسون في ١١ تموز يلخصان رأيهما حول الوضع في سورية والرغبة العميقة بالوحدة والاستقلال وعن أن الولايات المتحدة هي الاختيار الاول للاغلبية لتقديم المساعدة لانه ليس لها مطامع اقليمية . ووضعت توصيات اللجنة في ٢٨ آب ١٩١٩ في تقرير طويل (٧٨) ، رفع الى الوفد الامريكي في باريس ، وابرق كرين بعد يومين الى ويلسون بخلاصة التوصيات وهي في ثلاثة اجزاء :

الاول : شرح لعمل اللجنة ، وتقرير عن الاوضاع السائدة في المنطقة ، والثاني: توصيات عامة الى مؤتمر السلم حول تسوية المسألة التركية ، والثالث: الملحق السري وهو اكثر الاجزاء اهمية بين فيه الاعضاء ما وجدوه في تحقيقاتهم بصراحة اكبر .

وكانت اهم التوصيات تلك المتعلقة بفلسطين ، فقد اوصت اللجنة بتعديل كبير للبرنامج الصهيوني المتطرف الذي يتطلع نحو تجريد كامل للسكان المحليين من غير اليهود ولذا اقترحت وجوب توحيد فلسطين مع سورية تحت انتداب بريطانية او امريكا ، مع تحديد للوطن القومي اليهودي . وبالنسبة لسورية فقد اوصت اللجنة بوحدتها تحت حكم ملكي دستوري برئاسة فيصل على ان يعهد لامريكا او بريطانيا بالانتداب . وبالنسبة للعراق فقد اوصت بانتداب بريطاني مع ضم الموصل .

وعرضت اللجنة تحليلات اضافية حول الوضع في سورية ضمنته الملحق السري ، فوجدت ان سورية تقدم مثلا صالحا لانشاء دولة قومية حديثة يعيش فيها افراد الديانات الثلاث بانسجام تام ، فالبرامج التي قدمت هي برامج قومية تدعو الى سورية الموحدة المستقلة عدا انصار الصهيونية ولبنان المستقل . ويرى

التقرير أن فصل لبنان وفلسطين عن بقية سورية سوف يقوي الفروق الدينية على حساب الشعور القومي . وبرأي اللجنة ان طلب الاستقلال التام في سورية ومعارضة المادة ٢٢ من ميثاق العصبة لم يمنع الاغلبية من قبول نوع من الاشراف بشكل مساعدة اقتصادية فنية لاتتعارض مع الاستقلال ، لذا تقترح اللجنة أن أحسن حل هو انتداب أمريكي على كل سورية . وترجع اللجنة اسباب الشعور الموالي للولايات المتحدة الى الثقة بمبادىء ويلسون التي دخل الحرب على اساسها ولكونها دولة غنية ليست استعمارية ، ويعزز ذلك اعجاب بالتعليم والثقافة الامريكيتين .

ولم ينشر تقرير لجنة كنغ كرين في حينه ، وظل أمره خافيا على مؤتمر السلم الذي وضعت اللجنة تقريرها له ، ولم يستخدمه اعضاء الوفد الامريكي في باريس رغم أن اعضاء اللجنة قد رفعوا نص التقرير الكامل الى البيت الابيض في ٢٧ ايلول ١٩١٩ ، واختفى في ملفات وزارة الخارجية الامريكية في واشنطن ، بعد ان كان ويلسون يرى في اللجنة الدليل الوحيد لتأكيد مبدأ العدالة وميثاق العصبة . ويبدو ان صراحة التقرير كانت ستربك الحكومة الامريكيةفي مؤتمر السلم وستهدد علاقاتها بحلفائها ، فوجدت ان اخفاءه هو الطريقة الوحيدة لانهاء الوضع الذي خلفه تعيين اللجنة (٧٩) ، وربما دفعتالتوصيات المناوئة للصهيونية والمعادية لفرنسا كلا من الحكومتين الفرنسية والبريطانية للتدخل لدى الوفد الامريكي في باريس ووزارة الخارجية في واشنطن لاخفاء التقرير دون أن يصدر بيان رسمي بذلك ودون ان تشير ملفات القرارات الثلاث الى الدوافع (٨٠) .

وقد يكون من العوامل التي حالت دون نشره مرض ويلسون واستحالة تولي الولايات المتحدة أي انتداب في الشرق ، وكون التحقيق قد تم على يد الجانب الامريكي من اللجنة الدولية (٨١) .

وحين نشر التقرير في كانون اول ١٩٢٢ كان قد فقد اي تأثير له في تسوية القضايا التي عالجها . فقد تراجعت الولايات المتحدة كعامل هام في تسيير السياسة العالمية ، وصوت الكونغرس في ايار – حزيران ١٩٢٠ مؤكدا تصريح بلفور . وتركت حرية العمل الى الحكومتين الفرنسية والبريطانية اللتين وجدتا من الضرورة التوصل الى تفاهم حول توزيع المناطق العربية من الدولة العثمانية السابقة واقرت العصبة تسليم الانتداب في فلسطين في ٢٤ تموز ١٩٢٢ الى بريطانيا بعد ان نجح الصهيونيون في جعل مؤتمر السلم يعترف رسميا بالتفسير الموسع لتصريح بلفور ، وادرج نصه ضمن قرارات مؤتمر باريس وميثاق العصبة .

وبذلك اثبتت هذه المحاولة التي قام بها مؤتمر السلم للتعرف على رغبات السكان عدم جدواها في التأثير على مجرى السياسة ، ولم يكن ذلك خطأ الاعضاء اذ حين قرر ويلسون ارسال اللجنة كان المؤتمر قد قرر توزيع مناطق النفوذ بين فرنسا وانكلترا ، ولذا فمن المضلل ان يستفتى الشعب في الاختيار بينهما ، كما انه من المضلل ان تقدم الولايات المتحدة كاحدى الدول المنتدبة دون ان يعرف موقف الولايات المتحدة من قبول الانتداب . وسيظل مدار بحث دوما حول من يقع اللوم في فشل اللجنة . واعتبر البعض مجيء اللجنة عاملا في زيادة حدة العصبيات الدينية والطائفية (٨٣) ، وان تأثير تقرير اللجنة كان عديم القيمة على مجرى الاحداث ، بل بالعكس فرض القلاقل وعدم الاستقرار واثار امالا مزيفة وجعل تسوية السلم اكثر صعوبة (٨٤) ، وان مجيء اللجنة قد شهد تدهور مكانة الولايات المتحدة في الشرق (٨٥) .

ولكن مهما كانت درجة الانتقاد الموجه الى اللجنة فقد اثبتت الحوادث التالية ان التحقيق قد كشف بدقة معقولة الرغبات الحقيقية لجميع الفئات في المنطقة ، وان تقرير اللجنة ، باستثناء توصياتها السياسية غير العملية ، يعطي تحليلا دقيقا للوضع كما وجد في صيف ١٩١٩ (٨٦) ، وانه قد وضع بشكل موضوعي دقق مبني على المعرفة التامة في منطقة مليئة بالتوتر ، كما اضاف كثيرا من المعاملات عن المحادثات التي قررت بها الدول الاوربية الكبرى الاستيلاء على المناطق العربية في الدولة العثمانية .

الولايات المتحدة تتخلى عن تسويات ما بعد الحرب لصالح حلفائها :

فشل مؤتمر السلم في باريس في التوصل الى تسوية مناسبة لمصير الدولة العثمانية ، ولم تشمل معاهدة فرساي المبرمة في ٢٨ حزيران ١٩١٩ سوى تسوية قضايا الدول المغلوبة الاخرى بصيغة لا تتفق مع الاهداف والمبادىء التي صرح بها ويلسون ، وقد سعى ويلسون الى الحاق معاهدة فرساي بميثاق يتضمن انشاء مؤسسة عالمية (عرفت بعد بعصبة الامم) على ان تشترك فيها جميع الدول (بما فيها الولايات المتحدة والدول المتحالفة والدول التي بقيت اثناء الحرب على الحياد على ان تنضم اليها فيما بعد الدول المغلوبة) وذلك لفض المشاكل الدولية والسعي لصيانة السلام العالمي (٨٧) .

وقد نصت المادة ٢٢ من ميثاق العصبة على نظام سياسي جديد اقترح بمناسبة البحث في قضية تصفية المستعمرات الالمانية نص على ان رفاهية شعوب

المستعمرات وتنمية مواردها تستلزمان رعاية الدول المتقدمة التي استنادا الى مواردها والى خبرتها ، واستنادا الى موقعها الجغرافي تستطيع ان تتولى هذه المسؤولية ، على ان تمارس هذه الدول رعايتها بصفتها دولا منتدبة من قبل عصبة الامم (٨٨) . ونظام الانتداب هو تجربة سياسية غريبة لما بعد الحرب سعى الى وضعه ويلسون والجنرال سمطس (ممثل اتحاد جنوبي افريقيا الى مؤتمر السلم) ومن ثم ايداعه ميثاق العصبة كتطبيق لمبدأ حق تقرير المصير الذي ينكر مبدأ « الالحاق » القديم . والواقع ان نظام الانتداب لم يكن الاصيغة منافقة استخدمت لتغطية الامبريالية القديمة ، بدعوى ان الدولة المنتدبة التي تختارها الشعوب المنتدبة (التي اقتطعت من الدول المغلوبة) لن تحصل على أي سيادة او مصلحة ذاتية بل همها ان تساعد الشعب الذي يعهد به اليها من قبل العصبة. وان تجعل مصلحته وتقدمه وديعة في يد المدنية . وكما كتب سمطس بأن « الشعوب التي خلفها انهيار روسيا والنمسا وتركيا هي شعوب متخلفة سياسيا فان كثيرا منهم اما لا يستطيعون ممارسة الحكم الذاتي . أو انه تنقصهم القدرة والكفاية على ذلك . وهي شعوب في معظمها فقيرة جدا وتحتاج الى رعاية كبيرة الى ان تصل يوما الى الاستقلال الاقتصادي والسياسي » (٨٩) .

كان على ويلسون بعد ابرام معاهدة فرساي . ان يحمل نص المعاهدة بما فيها ميثاق العصبة الى الولايات المتحدة لاقرارها من الكونغرس . وقد واجهت ويلسون بعد عودته الى الولايات المتحدة في خريف ١٩١٩ معارضة شديدة ترجع الى قضايا داخلية بحتة حيث كان زعماء الحزب الجمهوري يندون بخططه واساليبه واتخذوا من معاهدة فرساي اداة للتقليل من مكانه ويلسون . كما وقفت فئة من المحافظين تمانع في دخول عصبة الامم خشية تورط الولايات المتحدة في مشاكل اوربا ومنازعاتها مفضلة سياسة العزلة .

وفي الاشهر الاخيرة من وجود الولايات المتحدة في مؤتمر السلم . ورغم ان ويلسون لم يعط الوفد الامريكي في باريس أي صلاحيات باتخاذ قرار خلال غيابه في الولايات المتحدة . بذل العرب كل جهد لكسب عطف الولايات المتحدة على قضاياهم ، ولم يفقد فيصل امله بحل امريكي رسمي وطلب من لويد جورج في ٩ تشرين أول ١٩١٩ (اثناء زيارته الثانية للندن بعد ان تأكد من تخلي القوات البريطانية عن الاجزاء الداخلية من سورية لصالح فرنسا) طلب عرض المسألة السورية على مؤتمر السلم او على لجنة ثلاثية يرأسها امريكي (٩٠) . واسر الى الكابتن ييل (وكان احد خبراء لجنة كنغ كرين ولكنـه كان يبحث عن تسوية للقضية السورية خارج توصيات لجنة كنغ ـ كرين . ونشرت في التيمس في ١٨

تشرين اول ١٩١٩) اسر له ان بريطانية لو انسحبت فسيقوم بتقديم طلبه الاخير الى الولايات المتحدة فلو رفضت اتخاذ أي اجراء فسيعود الى سورية كي يقود شعبه في ثورة مسلحة ضد الاحتلال الاجنبي ، واعلن انه سيقبل أي حل تفرضه الولايات المتحدة (٩١) .

وقام عضوان من اعضاء الوفد العربي الى مؤتمر السلم (عوني عبد الهادي ونوري السعيد) بمقابلة فرانك بولك ، رئيس الوفد الامريكي بعد سفر ويلسون، وتحدثا معه مفصلا عن الظلم الكبير الذي يلحق بالعرب فيما اذا وضع جزء من البلاد العربية تحت اشراف دولة أخرى ، وناشداه بصفته ممثل ويلسون ، الذي من مبادئه عدم اقرار سياسة لاية بلد دون استشارة اهلها ، بأن يحول دون تحقيق مطامع هولاء الساسة . وادرك العضوان ان بولك كان يعرف تماما ان لا رجاء في ان يفلح مؤتمرالسلم بتغييرخططالانجليز والفرنسيين وانهم سينفذون جميع اتفاقاتهما السرية العسكرية رضي المؤتمر أم لم يرض (٩٢) . ولم يكن بيد بولك شيئا فقد كان يعلم هو وويلسون قرب انسحاب الولايات المتحدة من المؤتمر ونفض يدها من السياسة العالمية .

وفشلت مهمة المفاوضين العرب في اوربة للحصول على تسوية المسألة السورية ولم يحصلوا الا على مقابلات غير حاسمة ؛ في نفس الوقت كان سعد زغلول في باريس لا يزال يضع أمله بما يمكن ان تحدثه حملة الدعاية في الدوائر السياسية الامريكية وابدى اعتماده على مساعدة الشعب الامريكي « محب الحرية في تحقيق الامال القومية لشعب حكم علية بالاستعباد من غير ان يسمع دفاعه » واوكل الى جوزيف فولك وهو محام امريكي كبير ، سبق له الوكالة في القضايا السياسية الكبرى ، ببسط وجهة النظر المصرية لدى مجلس الشيوخ وفي الصحافة. ونجحت جهوده بصدور تصريح عن لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ يطلب ان تكون مصر مستقلة وزمامها بيدها ، وارسل سعد من باريس الى اللجنة المركزية للوفد في ٢٩ اب نص التصريح (٩٣)

وسعت الجهات البريطانية في مصر الى اخفائه ، كما اصدرت السفارة البريطانية في واشنطن تصريحات مضادة ، وقد أثارت القضية المصرية اهتمام الكثيرين في الصحافة ولدى بعض اعضاء المجلس ، كما وصل محمد محمود باشا في منتصف تشرين اول الى الولايات المتحدة لمتابعة مهمة الدعاية ، ولكن لم يعقب ذلك نتيجة حاسمة في موقف الحكومة الامريكية ، كل ما عملته ان عجلت بريطانية بايفاد لجنة تحقيق برئاسة ملنر لسؤال المصريين عن مطالبهم وتقرير نظام الحكم الذي يريدون في ظل الحماية (٩٤) .

وفي سورية ، وبعد حوالي سنتين مـن الانتظار تحت الاحتلال الاجنبي والادارات العسكرية ، جابه المؤتمر السوري العالم بالامر الواقع . وبالاستناد الى حق الشعب في التحرر السياسي ووعود الحلفاء ومبادىء ويلسون اتخذ في ٨ آذار ١٩٢٠ قرار استقلال سورية الطبيعية . وايجاد اتحاد سياسي واقتصادي مع العراق المستقل . وابلغ الدول الحليفة القرار بأسلوب معقول ومقنع مع توضيح الاسباب التي ادت الى هذه الخطوة . وبذل فيصل وحكومته جهودا كبيرة للحصول على موافقة الولايات المتحدة وحاولا وضع قضية اعلان استقلال سورية في اطار مرض كي يحظيا برضاها وموافقتها (٩٥) . وفي رسالة فيصل الى ويلسون كرر الدعوة لزيارة لجنة كنغ كرين مع طلب المساعدة للتوصل الى وحدة سورية واستقلالها بدلا من تجزئتها (٩٦) . ولكن الولايات المتحدة لم تبد اكتراثا بأمر استقلال سورية ولم يرد ويلسون على مراسلات دمشق . فقد شغل ويلسون بالنزاعات الداخلية ، اذ لما لم يبلغ اعضاء مجلس الشيوخ المؤيدين لمعاهدة فرساي ولميثاق العصبة الاكثرية في النصاب المعين في الدستور ، عمد ويلسون الى الاتصال بالشعب مباشرة طالبا معاضدته في سياسته الخارجية فراح يطوف البلاد شارحا مزايا العصبة وسمو مبادئها . وفيما هو في ولاية كولورادو اصابه شلل اقعده عن العمل . وفي ١٩ آذار صوت مجلس الشيوخ الامريكي ضد سياسة ويلسون الخارجية ورفض المصادقة على معاهدة فرساي وميثاق العصبة .

وهذا القرار الذي فاز به مجلس الشيوخ قضى على مشروعية اشتراك الولايات المتحدة في مؤتمر السلم ، وتوقفت عن التدخل في السياسة الاوربية ، مما افسح المجال امام بريطانية وفرنسا لتنفيذ خططهما بمستقبل الشرق العربي. وكانت جلسات مؤتمر السلم قد انتهت في ٢١ كانون ثاني ١٩٢٠ دون ان تعقد معاهدة مع الدولة العثمانية ، ولكن عقد بعد ذلك عدد من المؤتمرات الدولية في فترات متقطعة لاستئناف البحث في المعاهدة كان اهمها الاجتماع الثاني لمجلس الحلفاء الاعلى نيسان ١٩٢٠ في سان ريمو في ايطاليا ، اشتركت فيه الدول الاعضاء في مجلس العصبة الدائم (الدول الكبرى) وكان غرض الاجتماع الاساسي وضع مشروع المعاهدة مع الدولة العثمانية (٩٧) . ومع ان شرعية فصل المناطق العربية عن الدولة العثمانية لا يصح الا بعد عقد المعاهدة ، ومع ان نظام الانتداب لم يعرض بعد على مجلس العصبة فقد قرر المجتمعون في سان ريمو تطبيق نظام الانتداب من الفئة (آ) وفقا للفقرة الرابعة من المادة ٢٢ من الميثاق على المناطق العربية التي وزعت دبلوماسيا اثناء (٩٨) الحرب . ولم تعترض

الولايات المتحدة على هذه الاجراءات الا حين مست هذه التدابير مصالحها الاقتصادية . وكان ردها سلبيا امام النداءات التي بعثت بها حكومة دمشق حين كانت القوات الفرنسية تتقدم نحو سورية الداخلية بعد أزمة الانذار في تموز ١٩٢٠ .

خاتمة :

لقد جاءت تسوية ما بعد الحرب مخالفة للتعهدات التي قطعت للعرب وفشل مؤتمر السلم في تحقيق الامال القومية التي كان العرب يرتقبون تحقيقها . فوضعت معظم اجزاء الشرق العربي تحت الانتداب ولم يبق الا الجزيرة العربية عدا الاطراف الجنوبية والشرقية خارج نطاق تقسيمات الانتداب . اما الاجزاء الاخرى من الوطن العربي التي احتلت قبل الحرب فقد توطد فيها حكم الدول الكبرى بعد ثورات كثيرة . ولم يكن العرب وحدهم الذين وثقوا بمبادىء ويلسون ، التي اثبتت انها خير دعاية اثناء الحرب ولكنها عديمة الجدوى لارساء قواعد السلم ، وكان من الصعب على العرب ان يدركوا حتى عام ١٩٤٥ ان الاهداف المثالية التي أعلنتها حكومة الولايات المتحدة كاهداف للحرب لا تتطابق مع الحقائق السياسية داخل الولايات المتحدة ولا مع حقائق العلاقات الدولية (١٠٠) .

وكان انسحاب الولايات المتحدة من مؤتمر السلم وقرار الكونغرس بعدم الانضمام الى عصبة الامم وتوقيع معاهدات الصلح بداية فترة جديدة من العلاقات الامريكية العربية في الفترة بين الحربين ، تميزت بوقوف الولايات المتحدة من قضايا الوطن العربي السياسي موقفا سلبيا . دون ان يعني ذلك عزلة الولايات المتحدة عن المنطقة العربية ، وكذلك لم يكن يعني توقف يهود امريكا عن دعم سياسة الوطن القومي اليهودي . وإكتفت الولايات المتحدة الامريكية برعاية الانشطة غير السياسية وظلت تعترف لفرنسا وانجلترا بالتفوق السياسي في المنطقة العربية طالما ضمنت هاتان الدولتان مصالح الافراد والشركات الامريكية . ومنذ نشوب الحرب العالمية الثانية بدات ترتسم اتجاهات جديدة في العلاقات : أول هذه الاتجاهات الدور المتزايد الذي أخذت تلعبه الموارد البترولية بالنسبة للاهتمام الامريكي بالشرق العربي ، والثاني توضح اهمية الموقع الاستراتيجي الجغرافي للمنطقة . واخيرا بداية المواجهة مع القوى القومية العربية بعد ازدياد الدعم الامريكي للمطالب الصهيونية في فلسطين .

(١) Hamm, W. A., From Colony to World Power, a history of the United States, Boston, 1953, p. 645.

(٢) Macrides, R. C. (ed.), Foreign Policy in World Politics, New Jersey, 1976, p. 344.

(٣) Ibid, p. 345.

(٤) رايت ، كوينسي ، السياسة الدولية في الشرق الاوسط ، محاضرة القيت في مؤتمر الشرق الاوسط في جامعة شيكاغو ١٩٤٢

(٥) بونداريفسكي ، سياستان ازاء العالم العربي ، ترجمة دار التقدم ، موسكو ١٩٧٥ ، ص ٢١٢ – ٢٢٥

(٦) Macrdis, Op. cit, p. 345.

(٧) من تقرير بعث به السفير البريطاني في الاستانة ١٩١١/٢/١٤ F.O. 424/250. عن مشروع تشستر Cheter احد اصحاب النفوذ من اليهود الامريكيين لبناء الخطوط الحديدية عبر آسيا الصغرى .

(٨) Manuel, F., Te Realities of American - Palestine relation, Washington 1949, p. 267.

(٩) ibid, pp. 6 - 13.

(١٠) Hayamson, A., The British Consulate in Jerusalem in the Jews in Palestine, Vol. II, London, 1939 - 1941, pp. 546 - 562.

(١١) أوراق المكتب العربي فى القاهرة (عام ١٩١٧)
Arab Bureau Papers F.O. 882 /14/ Pa/17/6.

(١٢) تفاصيل الحادث في :
خيرية قاسمية ، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ – ١٩١٨ ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧١ ص ٢١٥ – ٢١٨

(١٣) Baker, R. S., Woodrow Wilson and World Settlement New York, 1922, Vol. I, p. 12.

(١٤) Lansing, R., The big four and others of the Peace Conference, London, 1922, pp. 40 - 42.
والمؤلف كان وزير خارجية الولايات المتحدة .

(١٥) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، لندن ١٩٣٩ (مترجم) ملحق آ ، ملحق ب .

(١٦) Lansing, Op. cit, pp. 45 - 49.

(١٧) بونداريفسكي ، مصدر سابق ، ص ٢٣٣

(١٨) محمود حسن صالح منسي ، تصريح بلفور ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢٠٥ – ٢٠٧

(١٩) Aaronson, A., With the Turks in Palestine, Lindon, 1917, pp. 14 ff.

(٢٠) Manuel, Op. cit., pp. 149 - 152.

(٢١) برقية من السفير البريطاني في واشنطن لوزارة الخارجية ١٩١٧/٦/١١
F.O. 371/3057/114918/104218

(٢٢) **Yale, W.,** Ambassador Morgenthan's Special Mission of 1917, World Politics, Vol. I, No. 3, 1949, p. 311.

(٢٣) **Yale, W.,** The Near East, a modern history, University of Michegan, 2nd. edition,, 1968, pp. 268 - 269.

(٢٤) **بوندار يفسكي** ، مصدر سابق ، ص ٢٢٦ نقلا عن لويد جورج « حقيقة معاهدات الصلح » مجلد ٢ ، ص ٣٠٢

(٢٥) **Yale,** The Near East, Op. cit, p. 269.

(٢٦) **Weizmann, Ch.,** Trial and Error, London 1950, p. 265.

(٢٧) **بوندار يفسكي** ، مصدر سابق ، ص ٢٢٨ نقلا عن داغدال Dugdale كاتبة سيرة بلفور وابنة اخته في كتابها :
The Balfour Declaration, London 1940, p. 27.

(٢٨) **Weizmann,** Op. cit, p. 262.

(٢٩) **Yale,** The Near East, Op. cit, p. 399.

(٣٠) محمود صالح منسي ، مصدر سابق ، ص ٢١٤

(٣١) **Yale,** The Near East, Op. cit, p. 486.

وقد اصبح (بيل) بعد الحرب احد خبراء شؤون الشرق الاوسط في وزارة الخارجية الامريكية .

(٣٢) **محمود صالح منسي** ، مصدر سابق ، ص ٢١٤ ـ ٢٢١ ، وقد حصل المؤلف على نسخة مكرو فيلم كاملة لتقارير (بيل) من مكتبة جامعة ييل ، وقام بترجمة التقارير المتعلقة بفلسطين في الكتاب المشار له سابقا « تصريح بلفور » .

(٣٣) **جورج انطونيوس** ، مصدر سابق ، ملحق (د) التصريح الى السبعة ، ملحق (هـ) التصريح المشترك .

(٣٤) **Lansing,** Op. cit., pp. 40 - 42.

(٣٥) **Ibid.,** pp. 4 - 5.

(٣٦) عباس محمود العقاد ، سعد زغلول ، سيرة وتحية ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٢٠٤

(٣٧) **Cumming, H.,** Franco-British rivalry in the Post-War Near East, 1914 - 1923, London, 1931, p. 67.

(٣٨) **Woodward and Butler** (eds) Documents on British Foreign Policy 1919 - 1939, 1st. Series, Vol. IV, London, 1952, p. 251.

(٣٩) خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٨٥ ـ ٨٦

(٤٠) عباس محمود العقاد ، مصدر سابق ، ص ٢٠٦

(٤١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٨

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩

(٤٣) عبد الرحمن الرافعي ، ثورة ١٩١٩ ، مجلدان طبعة ثانية القاهرة ١٩٥٥

(٤٤) خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨ – ١٩٢٠ ، مصدر سابق ص ٩٥–٩٧

(٤٥) **Howard, H.,** The King Crane Commission, Beirut, 1963, p. 22.

(٤٦) **Hurewitz, J.,** Diplomacy in the Near East and Middle East, New York, 1956, Vol. II, pp. 61 - 62.

(٤٧) خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق ، مصدر سابق ، ص ٩٧

(٤٨) **Lansing,** Op. cit., p. 72.

(٤٩) **Zeine, N. Z.,** The Struggle for Arab Independence, Beirut, 1960, pp. 70 -7 .1

(٥٠) **Ibid,** Appendix ((F).

(٥١) **Howard,** Op. cit, p. 12.

(٥٢) **Jeffries, J.,** Palestine : The reality, London, 1939, p. 243.

(٥٣) خيرية قاسمية ، النشاط الصهيوني فى الشرق العربي ١٩٠٨ – ١٩١٨ ، مصدر سابق، ص ٣٩

(٥٤) **Manuel,** Op. cit, pp. 232 - 236.

(٥٥) **Jeffries,** Op. cit, pp. 242 - 257.

(٥٦) **Zeine,** Op. cit, p. 79.

(٥٧) **Howard, H.,** An American Experiment in Peace making, Moslem Wolrd, Vol. 32 April, 1942, p. 126.

(٥٨) Loc., cit.

(٥٩) جريدة العاصمة (دمشق) عدد ٢٠ ، ١٩١٩/٤/٢٤

(٦٠) **المنــار** ، جزء ٤ ، مجلد ٢١ ، ١٩١٨/٦/٢٨ ، ص ٢٠٤

كانت نواة الحزب قد ظهرت في حزيران ١٩١٨ حين وجهت الحكومة التصريح الى السبعة بعد كشف اتفاقية سايس بيكو ، وأعلن رسمياً في ١٩١٨/١٢/١٩ برئاسة ميشيل لطف الله .

(٦١) **أحمد قدري** ، مذكراتي عن الثورة العربية ، دمشق ١٩٥٦ ، ص ١٠٥

(٦٢) **امين الريحاني** ، ملوك العرب ، جزء ١ ، بيروت ١٩٢٤ ، ص ٣٠٦

(٦٣) محمد فريد ، مذكراتي بعد الهجرة ، ١٩٠٤ – ١٩١٩ ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٤٣٢

(٦٤) عباس محمود العقاد ، مصدر سابق ، ص ٢٧٠

(٦٥) **Zayid, M.,** Egypt Struggle for independence, Beirut, 1965, p. 88.

(٦٦) العقاد ، مصدر سابق ، ص ٢٧٥ – ٢٨١ حول نشاط الوفد الدعائي في الولايات المتحدة.

(٦٧) **Tibawi, A.,** Syria from Peace Conference to the Fall of Damascus, Islamic Quarterly, December 1967, p.87.

(٦٨) **Howard,** An American Experiment, Op. cit, p. 129.

(٦٩) Ibid p. 143.

(٧٠) Baker, Op. cit, Vol. II, p. 207.

(٧١) Howard, An American Experiment, Op. cit, p. 131.

(٧٢) Nashabi, H., The Political Parties in Syria, 1918 - 1939, (Unpublished thesis) Beirut, A.U.B. 1952, p. 69.

(٧٣) المنار ، جزء ٥ ، مجلد ٢٣ ، ١٩٢٢/٥/٢٧ ، ص ٣٩ .

(٧٤) جورج انطونيوس ، مصدر سابق ، ملحق ٨ ، (مقررات المؤتمر السوري) .

(٧٥) حول تحقيقات اللجنة :
Howard, H., The King-Crane Cmomission, Op. cit,

(٧٦) Yale, The Near East, Op. cit., p. 336.
ويذكر المؤلف ان اللجنة لم تزر العراق لانها افترضت ان أهل العراق يريدون انتدابا بريطانيا .

(٧٧) Howard, The King-Crane Commission, Op. cit,p.. 134.

(٧٨) Ibid, pp. 122 - 140.
وأيضا انطونيوس ، مصدر سابق ، ملحق ٩

(٧٩) Esco Foundation for Palestine — A study of Jewish-Arab and British Policies, Vol. I, Yale University Press, 1947 - 1949, pp. 212 - 213.

(٨٠) Howard, King-Crane Commission, Op. cit, pp. 259 - 260.

(٨١) حين كان (بيكر) Baker يعد مجلداته عن « ويلسون والتسويات العالمية » ـ المصدر المذكور سابقا ـ لم يجد بين أوراق ويلسون الشخصية نسخة عن تقرير اللجنة أو دليلا على انه قد اطلع عليه في حينه ، وربما انتقلت نسخة الرئيس الى وزارة الخارجية خلال مرضه ، وفي أيار ١٩٢٢ وبموافقة ويلسون ، سمح كنغ وكرين بنشر مقتطفات من التقرير في كتاب بيكر (الجزء الثاني ، الفصل ٢٥) ونشر التقرير كاملا في ٢ كانون اول ١٩٢٢ في مجلة The Editor and Publisher
وقام كرين ومساعدوه بتوزيع ٢٠٫٠٠٠ نسخة من التقرير على الجامعات والمكتبات والمهتمين بمشاكل الشرق الاوسط .

(٨٢) Jeffries, Op. cit., p. 302.

(٨٣) امين الريحاني ، مصدر سابق ، ص ٣١٦

(٨٤) Kedouri, E., England and the Middle East, 1914 - 1921, London, 1956, p. 147.

(٨٥) Yale, The Near East, Op. cit, p. 337.

(٨٦) Baker, Op. cit, p. 205.

(٨٧) رايت ، كوينسي ، السياسة الدولية فى الشرق الاوسط ، مصدر سابق ، ص ١٣٠

(٨٨) Zeine, Op. cit., p. 152.

(٨٩) Ibid, p. 154.

(٩٠) Howard, King-Crane Commission, Op. cit., p. 276.

(٩١) Garnett, D., (ed.) The letters of T.E. Lawrence, New York, 1939, pp. 284 - 285.

(٩٢) **عوني عبد الهادي** ، اوراق خاصة ، اعداد خيرية قاسمية ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٣٢ . ويضيف عوني في أوراقه ان بولك قام من مقعده بعد ان اصغى لهما واتجه الى خريطة معلقة على الحائط ووضع اصبعه على خريطة فلسطين وقال اذا كانت انجلترا ستأتي الى هنا ، وهي مصممة أن تأتي ، ففرنسا لابد وأن تأتي الى هنا ، ووضع اصبعه على سورية ، والا فليس هناك ما يمنع من ان ينشب بينهما نزاع ينقلب الى حرب .

(٩٣) **محمد أنيس** ، مقالات في جريدة الاهرام (شباط ١٩٦٣) عن مراسلات سعد زغلول مع اللجنة المركزية للوفد في القاهرة .

(٩٤) Zayid, Op. cit, pp. 290 - 293.

(٩٥) جريدة العاصمة ، عدد ١٠٩ ، ١٩٢٠/٣/١٥

(٩٦) المصدر نفسه ، عدد ١١٤ ، ١٩٢٠/٤/١٥

(٩٧) لم تقدم المعاهدة الى الوفد التركي الا في ١٩٢٠/٥/١١ واضطرت الحكومة التركية الى توقيع معاهدة سيفر Sévres ، وما لبثت ان نقضتها فيما بعد حتى تم تصديق معاهدة لوزان في ١٩٢٣/١/٢٤

(٩٨) Cumming, Op. cit, p. 99.

(٩٩) خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق ، مصدر سابق ، ص ١٩٦ – ١٩٧

(١٠٠) Yale, The Near East, Op. cit, p. 261.

* * *

مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام

في العهد العثماني

د. عبد الكريم رافق

كلية الآداب ـ جامعة دمشق

لعبت الطوائف الحرفية دوراً هاماً ، في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والادارية ، في بلاد الشام ، في العهد العثماني . وقد انتظم قسم كبير من السكان ، وبخاصة في المدن ، في الطوائف الحرفية ، سواء في مجالات الانتاج ، أم الخدمات ، أم التسويق . وظهر حديثاً كثير من الجدل حول نشأة الطوائف الحرفية وبنيتها ودورها في التاريخ العربي والاسلامي (١) . وقد لاحظ الرحالة العربي ابن بطوطة حين زار امارات الغزاة التركمان في الاناضول ، في النصف الاول من القرن الرابع عشر ، انتشار منظمات الأخية ، التي انتظم فيها الصناع والتجار ، وامتزجت معها تقاليد الفتوة (٢) .

وقد بلغت الطوائف الحرفية درجة كبيرة من التنظيم ، في الولايات العربية، إبان الحكم العثماني . ولعبت دوراً رئيساً على أكثر من صعيد . وحين تدفقت البضائع الاوربية ، في أعقاب الثورة الصناعية ، الى الاقطار العربية ، في القرن التاسع عشر ، قاست البضائع المحلية من منافستها . وأثر ذلك في إضعاف الطوائف الحرفية .

انواع الطوائف الحرفية

لم تكن الطوائف الحرفية متساوية في العدد ، او متشابهة في النوعية ، في مختلف مدن بلاد الشام ، في جميع الفترات ، فيالعهد العثماني ، وذلك بسبب اختلاف كل مدينة عن الأخرى من حيث نشاطها الاقتصادي ، محلياً ودولياً . وتتميز حلب بعدد الطوائف وأنواعها وتفرعاتها ، كما تدلنا الوثائق الشرعية ، نظراً لتنوع نشاطاتها الاقتصادية وغناها .

ولم تكن هناك من استمرارية في أنواع الطوائف في مدينة ما ، فبعض الطوائف انقرض او تضاءل شأنه بتناقص الحاجة الى منتجاته . كما أن بعض الطوائف ازدهر وكثرت أنواعه نظراً لازدياد الحاجة اليه . وكمثال على الحال الاولى نذكر انه حين شاع استخدام القوالب في صنع الطواقي (وربما كان المقصود الطرابيش) ، ظهرت طائفة الطواقية الذين يشتغلون الطواقي بالقوالب في دمشق ، في الربع الاول من القرن الثامن عشر ، وبطلت ثلاث طوائف مقابل ذلك هي طائفة الطواقي الزربا ، وطائفة الزربابية ، وطائفة طواقي المخمل (٣) . وكمثال على الحال الثانية نذكر ازدياد شأن الطائفة التي عنيت بالتبغ وأنواعه ، اثر إباحة التدخين من قبل مفتي دمشق الشيخ عبد الغني النابلسي في الرسالة التي وضعها وعنوانها . الصلح بين الاخوان في حكم إباحة الدخان (٤) .

وتتحكم نوعية المصادر ومدى توافرها ، في مقدار معرفتنا لتطور الطوائف الحرفية في قطر ما او فترة ما . ففي مصر ، مثلاً ، يمكن مقارنة ما كتبه الرحالة العثماني أوليا جلبي ، في رحلته (سياحة نامة) التي قام بها في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، وما قدمه من تفصيلات واحصاءات عن الطوائف الحرفية في مصر ، مع الدراسة المفصلة التي قام بها الفرنسيون لهذه الطوائف أبان حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٨ ، وضمنوها في المؤلف المشهور « وصف مصر » (٥) . اما في بلاد الشام فلا توجد مثل تلك الدراسات التي وضعت عن مصر ، ولهذا وجب الاعتماد على المعلومات المبعثرة في سجلات المحاكم الشرعية . وهناك وصف مفصل ودقيق للصناعات الشامية ، في القرن التاسع عشر ، في « قاموس الصناعات الشامية » (٦) . وبلغ عدد الصناعات التي وردت في هذا القاموس ٤٣٥ صنعة ، بعضها تضاءل شأنه ، وبعضها جديد محدث . وهناك وصف عام وموجز للطوائف وعمليات الشد فيها ، كتب في الربع الاخير من القرن التاسع عشر (٧) .

وقد تميز التنظيم الحرفي ، في بلاد الشام ، بالتخصص وتوزيع العمل . فهناك طوائف عنيت بالانتاج ، واخرى بالخدمات ، او بالتسويق . ونورد فيما يلي الطوائف التي عثرنا على معلومات عنها في سجلات المحاكم الشرعية ، في بعض الفترات ، من كل من حلب ودمشق . ولا تشمل القائمة كافة الطوائف الموجودة فعلاً ، لان الوثائق الشرعية ذكرت فقط الطوائف التي لجأت الى المحكمة لتنصيب شيخ لها ، او عزله ، او لتسوية منازعات ضمن الطائفة ، او بينها وبين الطوائف الاخرى ، او بينها وبين السلطة والسكان . ولم ندخل في قائمة الطوائف اسماء الصناعات التي أوردها « قاموس الصناعات الشامية » لان هدفنا دراسة

الطائفة كمنظمة حرفية . واتبعنا الترتيب الابجدي للطوائف في القائمة التالية . ويمكن تمييز طوائف الانتاج والخدمات والتسويق من خلاله .

وقد ذكرت سجلات المحاكم الشرعية التي اعتمدناها من حلب ودمشق ، من القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، ما يقارب من مائة وثلاث وستين طائفة هي : الأبارين ، الأديبن ، الأساكفة ، الأشجية ، الاقسماوية (أو البقسماوية) ، الالاجاتية ، الامشاطية ، البارودية ، بائعي البن ، بائعي جلال الخيل (الجليلاتية) ، بائعي السختيان الملون ، بائعي العبي ، بائعي لحم الجاموس ، بائعي النعال ، البزورية ، البساتنة ، العكامة ، البغالة ، البقارين ، البقالين ، البكسمادية ، البوابجية ، البوزجية ، البياطرة ، التجار جلابي النحاس ، الترابين (الترابة) ، التكجية ، التوتنجية ، الجراكسية ، الجرامين ، الجمالين ، الحبالين ، الحدادين ، الحريريين ، الحصرية ، الحلاقين (أحياناً الحلاقين والجراحين) ، الحلوانية ، الجمالين ، الحمامية ، الحوارين ، الحواصلية ، الحياك ، خبازي الافرنجي ، خبازي الحصا ، خبازي المعروك ، الخبازين ، الخرامين ، الخردجية ، الخشابين ، الخضرية ، الخفافين ، الخفافين الأروام بحلب ، الخفافين من ابناء العرب بحلب ، الدباغين ، دباغي الحور ، الدجاجاتية ، الدخانية (بائعي السمك المدخن) الدقاقين (للحنطة) ، الدقاقين (للقماش) ، الدلالين ، دلالي العفص ، دلالي الخام الكلزي ، الدلالين ، رامي البخور ، الرواسين ، الزجاجيين ، الزراميزية ، الزربابية ، السختيانية ، السراجين (السروجية) ، السرفجية ، السعاة ، السقايين ، السكاكينية ، السماسرة ، السمرجية ، السنبوسكيين (تذكر احياناً مع الطباخين والشوايين) ، السيورية ، السيوفية (احياناً مع السكاكينية ، والقواسين ، والخناجرية ، والتروسية) ، الشدودية ، الشعارين ، الشلاحين ، الشماعين (للشحمة) ، الشوايين ، الصابونية ، الصاغرجية ، الصباغين ، صباغي الازرق ، صباغي الاحمر ، صباغي الالوان غير الازرق ، الصرماياتية ، الصناديقية ، الصياغ ، الطباخين ، الطحانين ، طحاني الجلب ، طحاني الخاص ، الطوافة ، الطواقية ، طواقي المخمل ، العباجية ، العباياتية ، العتالين ، العجانين ، العرقجية (أو العرقيانية) ، العطارين ، العقادين ، العلافين ، العناياتية ، الفرابلية والمناخلية ، (صناع الفرابيل والمناخل) ، المغربلين ، فتالي الحرير ، فتالة الحرير العنداري ، الفتالين بالدولاب الكبير ، الفرايين ، الفواخرية ، قازنجيان ، القاوقجية ، القصابين (او اللحامين) ، القصارين ، قطاعي النعل ، القطانين ،

القلاشينية ، القلفات ، القنوية ، القهوية ، القوافين ، الكعيكاتية ، الكلاسين ، الكوايين ، الكونجية ، الكيالين ، اللبابيديـة ، اللحفيين ، محمصي البن ، المخملجية ، المخومين للسروج ، مداحي الرسول وحكوية السير النبويـة ، المدادين ، المرجلية ، المروبصين ، المزيكين ، المسالخية ، المساميرية ، المسلاتية ، المطافجية ، المعاريكة ، المعاصريـة ، (لعلهـا المعصرانية ، واختصت بعصر السمسم ، وربما اطلقت الكلمة نفسها على من يعصر الزيتون ويعمل الدبس) ، المقومين ، المعمارية ، الملقية ، المنجدين ، النجارين ، النحاتين ، النحاسين ، النشارين ، النشواتيـة ، النعـالين ، نعالي البوابيـج ، نقاشي الجيث ، النهودية ، الوتارين .

ويلاحظ في قوائم الطوائف هذه انها تغطي قسماً كبيراً من انواع الطوائف ولا تشكل بحال مسحاً عددياً لها (٨) . ومع ذلك فاذا ما قارنا هذا العـدد التقريبي للطوائف المتواجدة في حلب ودمشق مع عدد الطوائف التي أحصاها أوليا جلبي في القاهرة في زيارته لها حوالي عام ١٦٦٠ والمقدر بـ : ٢٦٢ طائفة ، وكذلك مع عدد الطوائف التيأحصاها الفرنسيون في القاهرة في عام ١٨٠١ والمقدر بـ : ١٩٣ طائفة (٩) ، لوجدنا أن بلاد الشام قد تمتعت بنسبة لابأس بها من التنظيم الحرفي .

ويلاحظ ايضاً في الطوائف المذكورة انه يصعب تحديد نسبة الطوائف المعنية بالانتاج الى الطوائف المعنية بالتسويق ، لان بعضها قام بالعملين معاً ، كما في طائفـة الحبالين . وادى هـذا الازدواج في العمـل الى منازعات بـين الفريقين (١٠) . اما طوائف الخدمات فبعضها واضح الحـدود يسهل فرزه كالدلالين والحمالين والعتالين والقنوية والكوايين ، وبعضها ما يجمع بين اعمال الخدمات والتسويق أو الانتاج ، مثل الخاناتية ، والمنجدين ، واللحفيين .

ويصعب ، بالاستناد الى المصادر المتوافرة ، معرفة عدد الافراد الذين شكلوا الطائفة الحرفية ، الا في بعض الحالات النادرة ، مثلاً ، بلغ عدد طائفة النحاتين في دمشق في أواخر عام ١٦٨٩ سبعاً وعشرين نحاتاً (١١) . وطبيعي ان هذه الطائفة لا تمثل الا نسبة ضئيلة من الطوائف . ولو اتيح لنا معرفة عدد افراد الطوائف الحرفية لامكننا معرفة نسبة الذين يعملون في الانتاج الى الذين يعملون في الخدمات او التسويق ، والطوائف الحرفيـة التي كانت في طريـق الازدهار او الانقراض ، والطبقات الاجتماعية المرتبطة بها ، وبالتالي السمات الاساسية لحياة البلد الاقتصادية . ومع ذلك ، يمكننا ، بالاعتماد على تركات

المتوفين من الحرفيين ، معرفة مدى ازدهار حرفهم ، واوضاعهم العائلية ، وحجم اسرهم (١٢) .

ومما يلاحظ على الطوائف الحرفية التي درسناها غياب اسماء النساء بين أعضائها ، وكذلك غياب طوائف خاصة بالنساء . ومن الطبيعي ان النساء ، سواء في المدن أم في الارياف ، قمن بأعمال حرفية هامة ، مثل قشر القطن ، وغزله ، او حبك حبال القش لصنع الحصر . ولا نعلم فيما اذا انتظمت النساء ضمن طوائف خاصة بهن ولم يتيسر الاعلان عنها نظراً للحياة المغلقة التي كن يعشنها . وفي مثال من حلب بتاريخ ٥ صفر ١٦/١٠٣٧ تشرين الاول ١٦٢٧ عين القاضي للمدعوة فطمة بنت الشيخ محمد نصف حصة من قسم الشحم المعد لعمل الشمع الشحمي تأخذه من المسلخ ، اسوة بافراد طائفة الشماعين الذين يشتغلون الشمع الشحمي . وتم ذلك بحضور شيخ طائفة الشماعين ، الذي أمره القاضي بان يعطي المراة حصتها يوماً بيوم ، كما هي عادة الشماعين بحلب (١٣) . وليس في النص ما يوحي بان فطمة كانت عضواً في طائفة الشماعين. كما ان ما اعطي لها كان نصف حصة ، في حين ان الشماع كان يأخذ حصة كاملة.

ولم يقتصر استعمال كلمة « طائفة » على التنظيم الحرفي اذ أطلقت أيضاً على طائفة دينية ، كما في شيخ طائفة اليهود ، او على جماعة من المقيمين الاغراب، كما في شيخ طائفة المغاربة ، أو طائفة عسكرية ، كما في طائفة عسكرية حلب . واستعملت الكلمة ، في مجالات اخرى ، لتدل على فئة اجتماعية تحترف الاخلال بالأمن ، كما في طائفة اشقياء العرب (أي البدو) وقطاع الطرق ، وطائفة الحرامية والسراق ، او طائفة السراقين . وفي مثال عن الطائفة الاخيرة أن امراة اتهمت أخرى بسرقة اثني عشر قرشاً من جيبها في سوق الاروام بدمشق وانها التصقت بها وشفت الجيب . واعترفت المتهمة ، امام القاضي ، انها من طائفة السراقين وتتخذ ذلك حرفة ودأباً (١٤) .

التركيب البنيوي للطائفة الحرفية

راس الطائفة الحرفية شخص عرف عادة بالشيخ ، وقد اختاره أعضاء الطائفة ، واقر اختياره ونصبه القاضي الشرعي الذي اصدر حجة بالواقعة سجلت في سجلات المحكمة . والعبارة التي استخدمت في السجل بهذه المناسبة تذكر ان القاضي نصب (فلانا) شيخاً ومتكلماً على الطائفة (الفلاتية) . وكلمة « متكلم » تعني أن صاحبها يتكلم في مصالح الطائفة (١٥) . وفي بعض الحالات

اطلق على شيخ الطائفة الحرفية لقب باشي ، كما في طائفة القصابين التي عرف رئيسها بالقصاب باشي ، واحياناً بالشيخ ، وفي طائفة المعمارية التي عرف رئيسها بالمعمار باشي . واطلق على رئيس طائفة الدباغين لقب اخي بابا ، واحياناً بابا . وكلمة أخي مشتقة من العربية أخ التي اطلقت في الاناضول ، في مطلع التاريخ العثماني ، كما ذكر ابن بطوطة ، على الحرفي ، وجمعها الاخية . أما كلمة بابا فقد استخدمت في الاناضول ، في النصف الاول من القرن الثالث عشر للدلالة على الواعظ التركماني الشعبي .

والذين رافقوا الشيخ الى المحكمة ، حيث نصبه القاضي رسمياً ، كانوا في الغالب من المعلمين أو الاساتذة أو الاسطاوات في الطائفة ، وهم الذين أشير اليهم أحياناً باختيارية الطائفة . ويلاحظ ان بعض مشايخ الحرف ورثوا المشيخة عن أبائهم او اخوتهم ، ومع ذلك وجب عليهم الحصول على موافقة اختيارية الطائفة باختيارهم للمشيخة ، وقام القاضي بتنصيبهم رسمياً . ووجب على الشيخ أن يكون ملماً باصول الحرفة ، واذا تبين انه غير ملم بذلك أمكن لاعضاء الطائفة عزله رغم حسن اخلاقه . وقد طلب جماعة من طائفة الدباغين بدمشق من القاضي الموافقة على عزل شيخ طائفتهم السيد محمد بن السيد أحمد البابا « لأنه ليس له خبرة في أحوال الدباغة وليس له وقوف على معرفة الكار وليس له قدرة على تعاطي أمور البابوية » وان ذلك سبب خللاً في مهنتهم . وقد تنازل السيد محمد عن البابوية ، اثر ذلك ، واختار افراد الطائفة بابا غيره نصبه القاضي (١٦) .

واشترط كذلك في شيخ الطائفة ان يكون رجل دين ، مستقيماً ، قادراً على اداء المشيخة ، صالحاً لها ، وان يكون الاعضاء راضين به . وأشير ، حين شغر منصب الشيخ ، الى أن المشيخة كانت محلولة بسبب وفاة الشيخ السابق ، أو عزله ، أو عجزه عن القيام بأمور المشيخة ، أو فراغه عنها برضاه . ويتم الفراغ في المحكمة . وفي بعض الحالات عين شيخ الطائفة ، التي شغرت مشيختها ، بموجب براءة سلطانية . واذا ما ثبت للقاضي صحة البراءة نصب صاحبها في المشيخة (١٧) .

واذا ما عارضت فئة من الحرفيين راي الاكثرية في اختيار الشيخ ، أو خشي من قيام مثل هذه المعارضة ، اتفق الحرفيون المجتمعون في المحكمة على « أن من خالف منهم يفعل معه الحقارة بما يستحق ، اتفاقاً مقبولاً » (١٨) . وأمكن للطائفة الحرفية أن ترفض تعيين شيخ لها ، كما حدث بالنسبة لطائفة المسالخية في حلب عام ١٦٠٨/١٠١٧ ، حين ادعت ان العادة القديمة الا يكون

عليهم شيخ لان في تعيين الشيخ عليهم ظلماً لهم ومخالفة للعادة القديمة . ولما تأكد القاضي من صحة ذلك منع ان يكون شيخ لهم بدون رضاهم (١٩) .

وفي الحالات التي وجد فيها شيوخ فرعيون لتجمعات حرفية في صوايح (احياء) حلب ، مثلاً ، مثل السقطية ، والمدينة ، وتحت القلعة ، والبياضة ، وبانقوسا ، وباب النيرب ، وباب النصر ، او في سوق فرعي ، كما في سوق العطارين ، او سوق الصابون ، فان اختيار شيخ الطائفة الفرعي كان يتم من قبل حرفيي طائفته المحليين ، ولكن تنصيبه في المحكمة يتم بحضور شيخ الطائفة الرئيسية أو قائم مقامه (٢٠) .

وليس من دليل على ان الشيخ تقاضى مرتباً من الطائفة . وكان يعيش في الغالب ، من عمله . ولكن هناك بعض الامتيازات المادية التي تمتع بها ، فقد ذكر ان طائفة المسالخية بدمشق التي كانت تابعة (يمقا) لطائفة القصابين دفعت لشيخ طائفة القصابين كل سنة عشرين قرشاً لقاء مال المشيخة (٢١) .

واختير شيخ الطائفة عادة من بين كبار الحرفيين في الطائفة الذين أطلق على واحدهم لقب أستاذ (أو استاد) ، وهي كلمة فارسية الاصل ، حورت احياناً الى كلمة اسطه . وأشير اليه ايضا بكلمة معلم العربية . ونظراً لاهمية هذا اللقب في المراتب المهنية ، ضمن الطائفة الواحدة ، فقد عرف اصحابه به . ومعلم الحرفة هو الذي يحق له اقامة مشغل خاص به يعمل فيه الصناع والاجراء .

ويأتي بعد الاستاذ ، أو المعلم ، في المرتبة المهنية ، الصانع . ولا نعلم فيما اذا كانت هناك مدد زمنية لابد للصانع من أن يلتزم بها قبل أن يرتقي الى مرتبة الاستاذ ، أو المعلم ؛ أم أن اجادته المهنة ، بقطع النظر عن المدة ، هي وحدها الكفيلة بالانتقال به الى الرتبة العليا . ويبدو أن هناك استثناءات قد تدل على الالتزام بالتدرج المهني واجادة المهنة ، أو على انهيار القواعد المهنية ، اذ ذكر القدسي أن « من الصناع من يشد في النهار ذاته صانعاً ومعلماً » (٢٢) .

وشكل الصناع العدد الاكبر في الحرفة بالمقارنة مع عدد المعلمين والاجراء. وكانوا عماد العمل في الحرفة ، وتقاضوا أجراً عليه . وحاول المعلمون تأخير ترقيتهم الى رتبة معلم لتحاشي منافستهم لهم ، لانه يحق عندئذ للصانع الذي أصبح معلماً أن يكون له مشغله الخاص به . وكان على المعلم أن يدفع اجرة دكانه ومصروفها ، بما في ذلك تصليح عدة الشغل، ولا يخص الصانع من ذلك شيء(٢٣) .

وفي أسفل السلم المهني يأتي المبتدىء أو الاجير ، وهو عادة بالغ . وكان استخدامه يتم من قبل المعلم ، بموجب عقد رسمي ، والمثال التالي يوضح ذلك: استأجر السيد محمد الحلبي الطباع ، لدى القاضي الشافعي بدمشق ، ابن أخيه البالغ ، عبد الرحمن ، فأجره نفسه باذن الحاكم ليشتغل عنده في صناعة الطباعة ، لعقدين كاملين ، مدة كل منهما ثلاث سنوات ، تبدأ في يوم العقد . وكان أجر عبد الرحمن اليومي ست قطع فضة مصرية ، اربعة منها يحتفظ بها المستأجر السيد محمد الحلبي لتغطية نفقات عبد الرحمن من مأكوله ومشروبه وزينته وسائرلوازمه التي لابد منها ، والمصريتان الباقيتان تدفعان الى عبد الرحمن. وتم العقد بحضور والد عبد الرحمن (٢٤) . وفي مثل آخر بقي الاجير في عمله مدة خمس سنوات ، ودفع له ، بالاضافة الى نفقاته اليومية ، مصريتان يومياً (٢٥) .

وهناك اشارات الى وجود رئيس أعلى للطوائف هو شيخ المشايخ ولكن وثائق المحاكم الشرعية قلما اشارت الى وجوده الفعلي وممارسة صلاحياته . وقد ذكر المحبّي (٢٦) ان السيد محمد بن السيد محمد كمال الدين بن عجلان الدمشقي الميداني الشافعي ، المتوّفى عام ١٠٠٤/١٥٩٦ ، كان شيخ مشايخ الحرف . ولكنه اهتم ، كما يبدو ، باقامة الذكر بانتظام أكثر من عمله كحرفي . ويقول المحبّي : « وربما كان يأكل من كسب يمينه ونسج الحرير » . ومما يرجح ان عمل شيخ المشايخ لم يكن مهنياً بقدر ما كان شعائرياً يتعلق بالاشراف على اقامة الاحتفالات والطقوس الرمزية بين اعضاء الحرف قول المحبّي : « وشيخ المشايخ هو الذي يعقد الشد والعهد لاهل الصنائع » . وبهذا المعنى أشار اليه القدسي في « نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية » ، في الربع الاخير من القرن التاسع عشر . وذكر القدسي (٢٧) ان شيخ المشايخ ، السيد احمد افندي منجك العجلاني ، لم يكن على شيء من صنعة أو حرفة ، وان هذه الرتبة موروثة في آل عجلان الذين اختصوا أيضاً بنقابة الاشراف ومشيخة الطرق الصوفية ، وان شيخ المشايخ يراس ، عملياً او نظرياً (وفي هذه الحال ينيب عنه النقيب) حفلة الشد التي يجرونها للمبتدىء أو الاجير عند انتقاله من درجته الى درجة صانع ، أو للصانع عند ارتقائه الى درجة معلم . كما انه يبارك شيخ الحرفة عند انتخابه. ويكون الشد بربط المرشح « بالمحزم » ، وتتلى الفاتحة عدة مرات . أما بالنسبة للمسيحي فتتلى الصلاة الربانية ، وبالنسبة لليهودي فالوصايا العشر . ويزود المشدود بالنصائح الاخلاقية والمهنية . ويعين له أب بالكار يكفله من الخلل ، ثم يولم للحاضرين (٢٨) . أما قول القدسي (٢٩) ان شيخ المشايخ ، قبل عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ ــ ١٨٦١) ، كان يتمتع بسلطة كبيرة على مشايخ الحرف

وافرادها فيلقي من يسيء منهم في السجن ويضربه فليس هناك ما يؤيده في وثائق المحاكم الشرعية التي هي المصدر الرئيس لمثل هذه الاعمال .

والى جانب هذه المراتب المهنية في الطائفة الحرفية وجدت وظائف عدة ، بعضها استمر طوال العهد العثماني تقريباً ، مثل وظيفة النقيب ، وبعضها اندثر او استحدث على فترات . وقد تمتع النقيب بسلطة كبرى في الطائفة الحرفية ، وناب احيانا عن شيخ الطائفة . كما انه حضر تنصيب شيخ الطائفة في المحكمة . ومما يدل على انه كان حرفياً في الاصل اشتراكه مع أعضاء الطائفة في اختيار شيخ لهم . ويعين النقيب في وظيفته من قبل القاضي بناء على اقتراح شيخ الطائفة المعنية (٣٠) . واختير عادة من بين المعلمين في الطائفة . ووجد النقيب على مستوى الطائفة الرئيسة في المدينة ، وعلى مستوى طائفة الحي أو الصايح، التي هي جزء من الطائفة الرئيسة التي تنتظم المدينة ككل(٣١) ، وكان شيخ الطائفة يكلف النقيب بالسهر على حسن انتظام قواعد الطائفة واخلاق أفرادها . ومما يدل على علو شأن النقيب في الطائفة انه كان يذكر ، بين حرفيي الطائفة اذا ما شخصوا الى المحكمة ، بعد الشيخ مباشرة . وعلى غرار شيخ المشايخ ، وجد للنقباء نقيب أعلى ، عرف بنقيب النقباء . وذكر أحمد البديري الحلاق (٣٢) ان الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ محمد الحلاق القادري ، صاحب الحلقة في الجامع الاموي ، والمتوفى في ٢٦ ربيع الاول ١١٥٦/ (٢٠ ايار ١٧٤٣) ، كان نقيب النقباء في دمشق على الحرف والصنايع والطرق . ويدل جمع نقيب النقباء بين يديه السلطة على نقباء الحرف والصنايع والطرق على اهميته وعلى ارتباطه بالطرق ، مما يظهر الرابطة التي كانت تجمع بين الطرف الصوفية والحرفيين . وذكر القدسي أن أهمية النقيب قد نقصت كثيراً في عهده (٣٣) .

والى جانب النقيب وجد منصب اليكيت باشي ، والكلمة مشتقة من يكيت التركية ، وتعني فتى ، اي الرجل الاخلاقي والكريم ، وباشي تعني الرئيس . وعين اليكيت باشي في الطائفة من قبل الشيخ ، الذي اشرك معه احياناً ، في عملية الانتقاء ، كبار اعضاء الطائفة ، وروعي في اختياره ان يكون اهلا لعمله ، قادراً على القيام به على الوجه المرضي . وذكر ان طائفة العطارين اليهود بحلب ، وهي تابعة لطائفة العطارين في المدينة ، نصب القاضي عليها يكيت باشي يهودياً ، وذلك بطلب من شيخ طائفة العطارين وعدد من اعضائها مسلمين ويهوداً (٣٤) ، وناب اليكيت باشي ، أحيانا ، عن شيخ الطائفة في الامور المتعلقة بالطائفة (٣٥) ، ومع ذلك ، كان النقيب أكثر حضورا وربما استمرارا من اليكيت باشي ، بدليل ان القدسي لم يشر اليه . وربما تغيرت تسميته فيما

بعد . وقد ذكر القدسي « الشاويش أو الجاويش » (٣٦) ، الذي ينتخبه الشيخ واعضاء الطائفة ، ويقوم بابلاغ أوامر الشيخ الى الحرفيين . ولم يرد لهذا الموظف ، بهذا الاسم ، ذكر في الوثائق الشرعية التي اعتمدناها .

وذكرت الوثائق صاحب رتبة آخر هو الاونجي باشي ، بالنسبة لطائفة طحاني الخاص بحلب ، ولعله شيخ هذه الطائفة المتفرعة من طائفة الطحانين (أو الطحانة) . وقد نصب ، على غرار النقيب واليكيت باشي ، من قبل القاضي ، بناء على طلب شيخ طائفة الطحانين وكبار افرادها ، وروعي فيه أن يكون مستقيما دينا ، قادرا على اداء عمله . وعهد اليه دون غيره ، باخراج الكماجة (لفظة فارسية الاصل ، جمعها كماج ، وتعني الخبز المستدير السميك) المعروك ، والسنبوسك ، والخبز الافرنجي ، والحلاوة . واذا اخرج الكماجه شخص آخر ، غير الاونجي باشي « تفعل معه الحقارة التامة » ويغرم الف عثماني فضة (وفي مثال آخر خمسة الاف عثماني فضة) ، بطريق النذر للجامع الكبير الاموي بحلب (٣٧) .

وذكرت وظيفة أخرى ، بالنسبة لطائفة الدلالين بحلب ، وهي كتخدا (أو كاخيا) الطايفة ، الذي حضر فراغ شخص عن وظيفة الدلالة لابنه (٣٨) . والكلمة تعني المساعد ، وربما كان أحد مساعدي شيخ الدلالين .

وورد ذكر وظيفة « مقدم » في حلب في عام ١٥٩١/٩٩٩ ، وتعني في هذا المثال ، رئيس سبع طوائف ، لكل منها شيخها ، وتعنى بالا .مات ، مثل العتالين ، والحمالين ، والعكامين ، والسقايين ، والبغالة . وكان أحد الاشخاص المسمى تقي الدين ابن الحاج محمد ، قد حصل على براءة سلطانية للحصول على مقدمية هذه الطوائف من صاحبها الحاج احمد بن محمد . ولكن القاضي ، بناء على طلب عدد من اعضاء هذه الطوائف ، ابقى الحاج احمد بن محمد في مقدمية الطائفة لانه « رجل مستقيم في امور المقدمية المذكورة خبير باحوالها من غيره وهو اولى بها من تقي الدين » (٣٩) . وقد شاعت وظيفة « مقدم » في العصور التي سبقت الفترة العثمانية ، ولكنها لم تستمر ، كما يبدو ، بدليل عدم ورودها في الوثائق ، بعد القرن السادس عشر .

العلاقة بين الطوائف الحرفية

ارتبطت احيانا اثنتان أو أكثر من الطوائف الحرفية ببعضها ، نظراً لتكامل الحرف المعنية ، أو لاعتماد حرفة على اخرى ، أو للمشاركة في تأدية الضرائب

الجماعية . فطائفة الحماميين ، مثلا ، كانت على علاقة وثيقة بطائفة الحلاقين . وقد تم الاتفاق بين الطائفتين في حلب في ٢٨ محرم ١٠٥٥/٢٦ آذار ١٦٤٥ ، على أن من دخل الحمام واعطى اجرة الحمام واجرة الحلاق معاً الى معلم الحمام ينقسم ذلك بين الحمامي والحلاق بالتساوي ، واذا أعطى اجرة الحمام الى الحمامي وحده واجرة الحلاقة الى الحلاق وحده فلا يعترض احدهما على الاخر ولا يطلب منه شيئاً (٤٠) . وقد اتفقت طائفة الأبارين (صانعي الابر) مع طائفة المدادين للشريط على أنه اذا جاء الجلاب بالشريط تأخذ الطائفة الاولى الشريط الرفيع ، والثانية الشريط الغليظ (٤١) . وكانت العادة أنه اذا جاء اليقطين الجلب الى حلب للبيع قسم بالتساوي بين طائفة البقالين وطائفة الخضرية . وفي احدى المرات تخلت الطائفة الاولى للثانية عن حصتها (٤٢) .

وفي عدد من الحالات عين شيخ واحد لمجموعة من الطوائف المتقاربة في الاختصاص ، مثل طائفة الطباخين وطائفة الشوايين وطائفة السنبوسكيين التي عين لها في حلب في ٨ محرم ١٠٣٩/٢٨ آب ١٦٢٩ شيخ واحد . ويبدو أن هذا الشيخ المشترك بين الطوائف الثلاث لم يلغ شيخ كل طائفة منها ، كما تدل وثائق تلك الفترة . وفي حالة اخرى عين شيخ على طائفة السيوفية والسكاكينية والقواسين والخناجرية والتروسية (٤٣) . ومع ذلك وجد شيخ لطائفة السيوفية فقط (٤٤) . ولا ندري فيما اذا كان الاختصار هو سبب عدم ذكر الحرفيين الاخرين الى جانب طائفة السيوفية ، التي كانت الاشهر ، أم أن الحرف الاخرى قد وسعت أعمالها وحق لها تعيين شيخ لكل منها ، كما حدث في الواقع ، اذ ذكرت طائفة السكاكينية على حدة .

وضمت بعض الطوائف الحرفية أكثر من مهنة مثل طائفة الحلاقين والجراحين التي كان لها شيخ واحد . ومن المعروف ان الحلاق كان يقوم ببعض الاعمال الطبية ، ولكن ليس من الضروري أن يقوم الجراح بالحلاقة ، وما يؤيد هذا ان عدداً من أفراد هذه الطائفة حملوا لقب جراح فقط (٤٥) . والشائع أن تذكر طائفة الحلاقين على انفراد . ويبدو أن اضافة الجراحين اليها هو اما استطراد بحكم عمل الحلاق في الطب ـ والحلاقون هم الكثرة ـ أو ان الجراحين لم يتمكنوا من ايجاد طائفة خاصة بهم فاندمجوا مع الحلاقين . وذكر فما بعد ، وجود دكان لصنعة الطب قائمة بذاتها (٤٦) . واستمر الحلاقون مع ذلك في تعاطي التطبيب وسمحت لهم السلطة في دمشق في ٦ شعبان ١٢٦١ / ١٠ آب ١٨٤٥ بالاستمرار في بيع العلق ، على أن يحدد سعر العلقة الواحدة في الصيف باربع بارات وفي الشتاء بخمس بارات .

وهنـــاك طوائف حرفية تبعت الواحدة منها الاخرى ، وكان للطائفتين شيخ واحد أو احتفظت كل طائفة بشيخها . فقدكانت طائفة الصاغرجية (تصنع جلود الادوات الموسيقية) تابعة لطائفة الدبــاغين (٤٧) . وكان لشيخ طائفــة الدباغين ، المعروف بأخي بابا ، في فترة من الفترات ، سلطة على عدد مــن الطوائف ، مثل الخفافين ، وبائعي النعال ، والسيوفية ، والحياك ، والنهودية ، واللبادية ، والخياطين ، ربما لان هذه الطوائف استخدمت الجلد بكميات متفاوتة ولاستعمالات متباننة . وفي مثال آخر قرر القاضي شيخ طائفة الخياطين بحلب شيخا على طائفة العرقيانية (صانعي القبعات) فيها ، وذلك بطلب عدد مــن اعضاء الطائفتين (٤٨) .

وعرفت الطائفة التي تبعت طائفة اخرى ، رغم ان لكل منهما شيخــاً مستقلا ، بانها يمق لها ، وهذه كلمة تركية ، تعني المساعدة . وكانت الطوائف التابعة لبعضها ذات علاقة في الانتاج . والهدف الرئيسي من التبعية هو المساهمة في الضرائب . مثال ذلك ان طائفة المسالخية في دمشق كانت يمقاً لطائفة القصابين واقتضى ذلك ان تدفع الطائفة الاولى عشرين قرشا في السنة ، عرفت بمــال المشيخة ، الى القصاب باشي ، وذلك بالاضافة الى ثلاثين قرشا مساهمة في ضريبة الجيش (مال العرضي ، أو الاوردي ، مــن اوردو التركية ، وتعني الجيش) (٤٩) . وفي مثال آخر حاولت طائفة القاوقجية (التي تصنع القبعات) ان تلحق بها طائفة العرقجية (التي تصنع الطواقي) والتي كانت ملحقة منذ القديم بطائفة الخياطين ، واسهمت معها بدفع الضرائب . وكان هدف طائفة القاوقجية ان تجعل طائفة العرقجية تسهم معهــا بدفع الضرائب ، نظرا لان طائفة الطواقي الزربا ، وطائفة الزربابية ، وطائفة الطواقي المخمل ، التي كانت في السابق ، تسهم مع القاوقجية في دفع الضرائب ، قد بطلت وان لاقدرة لطائفة القاوقجية على دفع الضريبة بمفردها ، ولهذا طالبت بضم طائفة العرقجية اليها ، ولكن القاضي رفض ذلك لانه يخالف العادة القديمة (٥٠) .

وقد اعتمدت التقاليد ورغبة افراد الطائفة في تقرير ما اذا كان يحق لشيخ احدى الطوائف ان يضم طائفة اخرى الى مشيخته . وقد حدث ان شيخ طائفة رامي البخور قد وجهت اليه مشيخة طائفة مداحي الرسول وحكوية السير النبوية . وحين احتج افراد الطائفة الاخيرة على ذلك وافقهم القاضي ، وقرر لهم شيخاً خاصاً بهم (٥١) .

وبالاضافة الى تحمل الطائفة التابعة (اليمق) مسؤولية المساهمة في الضرائب مع الطائفة المتبوعة ، فقد اقتضت التبعية ايضا ان ترعى الطائفة المتبوعة امور

ومصالح الطائفة التابعة لها لما فيه نفع الطائفتين . وقد أكد على ذلك القاضي حين اعترف افراد طائفة البوزجية انهم تابعون (يمق) لطائفة الاقسمارية منذ القديم (٥٢) . ونستدل من ذلك على ان الطائفة الكبيرة كانت تسيطر على الطائفة الصغيرة ، ضمن فصيل واحد ، مع ما يترتب على ذلك من تبعية اقتصادية .

اهمية الطوائف الحرفية اقتصادياً واجتماعياً وادارياً

طبقت الطوائف الحرفية مبدأ توزيع العمل والتخصص الدقيق ، وهي من صفات الاقتصاد المنظم . ففي مجال الصباغة، مثلاً ، وجد صباغون متخصصون بالصباغ الاحمر ، وآخرون بالازرق الغامق (الكحلي أو النيلي) ، وآخرون ببقية الالوان . وفي حين اقتصر عمل هؤلاء ، في الغالب ، على صباغة الخام ، وجد صباغون آخرون يصبغون الحرير الملون . ولكل تخصص طائفته وشيخه . ويدل ذلك على رواج عمل الصباغين ، وبالتالي تصنيع الخام والحرير محلياً ، للاستهلاك الداخلي وللتصدير . ووجد بين فتالة الحرير طائفة متخصصة بفتل الحرير الشطي والابلق والبلدي ، وأخرى متخصصة بفتل الحرير العنداري ، وثالثة بالفتل على الدولاب الكبير ، الى جانب طائفة فتالي الحرير ذات الصفة العامة .

ووجد تخصص في العمل على اساس جغرافي ، فهناك مثلاً شيخ القصابين بصايح السقطية بحلب ، وآخر بصايح باب النصر ، وثالث بصايح باب النيرب ، ورابع بصايح بانقوسا في الوقت نفسه . وعين القاضي في ١٥٨٨/٩٩٦ شيخ القصابين بصايح السقطية شيخا اعلى على القصابين بالصوايح الثلاثة الاخرى، بحضور مشايخ هذه الصوايح ورضاهم به (٥٣) . ويتبع هؤلاء المشايخ القصاب باشي ، أي شيخ القصابين ، المسؤول عن طائفة القصابين بعامة في حلب .

ووجدت طوائف جمعت بين التخصص والتوزع الجغرافي ، مثل طائفة دلالي العفص بخان الصابون بحلب . وهناك طائفة دلالي الخام الكلزي بحلب ، وطوائف دلالين في عدد من الاسواق الرئيسية في المدينة ، الى جانب طائفة الدلالين العامة . ولكل طائفة شيخها .

ووجدت طوائف خاصة بالمسلمين ، او بالمسيحيين ، او مشتركة بينهم . وضم اختيارية الطائفة ، التي شخصت الى المحكمة لابلاغ القاضي اختيارها لمن ينصب شيخاً عليها ، ممثلين لاعضاء الطائفة على اختلاف مذاهبهم . وهذا يبين

القاسم الحرفي المشترك الذي جمع بين الحرفيين هؤلاء ، واولوية المقدرة والخبرة الحرفية على أي شيء آخر . وقد اتفق ، مثلاً ، في طائفة القصارين بحلب ، في ٦ ذي القعدة ١٠٣٦/١٩ تموز ١٦٢٧ بمعرفة شيخ الطائفة وافرادها والقاضي ، ان ما يتجمع لديهم من الخام والشاش والمناديل والدعى للقصر يكون بينهم ستة اقسام : اربعة منها للمسلمين واثنان للمسيحيين (٥٤) . ثم تقرر بعد شهرين ، في ٥ صفر ١٠٣٧ /١٦ تشرين الاول ١٦٢٧ ، ان يكون القصر بينهم بالسوية (٥٥) .

واذا ما وجدت طائفة على اساس مذهبي ، مثل طائفة اليهود العطارين بمدينة حلب ، اشترك شيخ طائفة العطارين وممثلون عن اعضائها ، على اختلاف مذاهبهم ، في اقتراح تعيين يكيت باشي على طائفة اليهود العطارين هذه (٥٦) . ولا نعلم فيما اذا كان لهذه الطائفة شيخ خاص بها . وفي مثال آخر سمح للقصابين من طائفة اليهود بزيادة درهم على السعر الذي يبيع به القصابون المسلمون ليدفعوا هذه الزيادة الى فقراء اليهود وصعاليكهم . ووافقت طائفة القصابين على ذلك ، ولم يعارض المحتسب (٥٧) . ولكن لم يسمح القصاب باشي بحلب والقاضي للقصابين اليهود بذبح الاغنام خارج المسلخ ، خلافا للعادة المتبعة ، حيث تدمغ الاغنام بالدمغة السلطانية ويترتب عليها رسم (٥٨) . وفي مثال آخر نصب القاضي يهودياً شيخاً على طائفة مروبصي الفضة والذهب من اليهود بحلب (٥٩) . ولا نعلم فيما اذا شاعت هذه المهنة بين المذاهب الاخرى .

ووجدت طوائف خاصة بالنزلاء ،العرب وغيرالعرب،او مشتركة بينهم وبين السكان المحليين . فهناك طائفة خاصة بالمغاربة في حلب،في القرن السابع عشر ، لها شيخها ونقيبها. وعمل افرادها اكثر شيءفي الحراسة وكسعاة (٦٠). ووجدت في دمشق ، في القرن الثامن عشر ، طوائف متعددة للمغاربة ، مبنية على اساس جغرافي ، نظرا لكثرة عدد المغاربة المقيمين في دمشق للمجاورة ، او العلم ، او العمل كمسلحين . ووجد لكل طائفة شيخها ، وترأس جميع الطوائف شيخ المشايخ . وهذه الطوائف هي : الفاسية ، الجزائرية ، السوسية ، التونسية ، الطرابلسية ، الدراوية ، والمراكشية (٦١) .

وقد وجد بين الخفافين في حلب (الذين يبيعون الحذاء الخف) ، طائفتان منقسمتان حسب هوية افرادهما ، فهناك طائفة الخفافين الاروام (اي الاتراك)، بحلب ، وطائفة الخفافين من ابناء العرب بحلب (٦٢) . ومن الطوائف التي اشترك فيها النزلاء العرب مع السكان المحليين طائفة السقايين بحلب ، الذين يأخذون

الماء من قسطل الطواشي داخل باب المقام . وقد ضمت ، حوالي منتصف القرن السابع عشر ، ثمانية افراد ، اربعة منهم مصريون واربعة حلبيون (٦٣) .

وقد تحكمت الطوائف الحرفية في نوعية الانتاج ومواصفاته وجودته واجرته واسعاره . مثال ذلك ان افراد طائفة الحريرية بحلب اتفقوا ، في اوائل القرن السابع عشر ، على ان ينتجوا نوعين من الاثواب المعروفة بالعناياتية : الاول يتكون من عشرة الاف طاق ، وطوله عشرة اذرع ، وعرضه ذراع ، والثاني من ثلاثة عشر الف الى اربعة عشر الف طاق ، ووزن الثوب من هذا النوع مائتا درهم . واذا نقص طول كل ثوب من النوعين تحسب قيمته وتسقط من ثمنه ويعمل مع صاحبه ما يستحقه بحسب الشرع الشريف وبمعرفة الشيخ او من يقوم مقامه ، ولا يكون للمحتسب دخل في ذلك (٦٤) . وفي مثال آخر ، اتفق شيخ طائفة الحريريين وشيخ طائفة العقادين مع شيخ طائفة الفتالين للحرير الشطي والابلق والبلدي على ان الحرير الذي تفتله الطائفة الاخيرة بالاجرة تكون اجرته قرشين لكل الف درهم . واذا صبغ الحرير باللون الازرق ، بعد القتل ، يصبح وزن المائة درهم ، بعد الصبغ ، ستة وسبعين درهماً . واذا اصبح الوزن أقل من ذلك يكون الحرير مغشوشاً بالزيت ، ويؤخذ النقص من الفتال الذي فتله ، ويعامل بما يستحق من الاهانة والحقارة (٦٥) . وفي مناسبة اخرى ، اتفقت طائفة الحياك بحلب ان يكون طول الفوط الزرقاء التي تشتغلها ثلاثة اذرع الا ربعاً ، بالذراع الحلبي ، وعرضها ذراعان الا ربع ذراع ، وان يكون اعتبار ذراعها بعد بلها بالماء وجفافها ، وان تكون قيمة الواحدة منها سبعة واربعين عثمانياً فضياً ما دام القرش يومئذ مائة وخمسون عثمانياً ، ومن خالف يفعل معه أنواع الحقارة (٦٦) .

وقد اتفق افراد طائفة الغرابلية والمناخلية بحلب ، برضاهم وحسن اختيارهم ، من غير اكراه ولا اجبار ، على ان يكون شغل المناخل على خمسة طوق ، على العادة القديمة ، ومن خالف منهم واشتغل غير ذلك تعمل معه الحقارة ويغرم بالف عثماني لجهة وقف الجامع الكبير الاموي بحلب (٦٧) .

وفي مثال آخر ، شكت طائفة القوافين بدمشق ، في مطلع القرن الثامن عشر ، من ان طائفة البقارين (الذين يدبغون جلود البقر) تمتنع عن اعطائهم ما يحتاجون اليه كل يوم من النعل والكسلا ، ولا تأخذ بعين الاعتبار عامل القلة والكثرة . واعترف البقارون بانهم يبيعون للمدعين كل يوم ستة جلود ويبيعون الباقي لغيرهم . وصدرت فتوى آنذاك تمنع القوافين من اجبار البقارين على

رفع مخصصاتهم من الجلود ، والتزم القاضي بذلك (٦٨) . واللجوء الى الفتاوى في حل منازعات الطوائف الحرفية كان امراً شائعاً ، واذا كان الخلاف عميقاً وشمل عدة طوائف استشير مفتيو جميع المذاهب في الامر (٦٩) .

وكانت المواد الخام المستوردة توزع على العاملين فيها ، من ابناء الطائفة ، من قبل شيخهم . فقد اتفق النجارون بحلب ، في مطلع القرن الثامن عشر ، على انه اذا جاء الجلاب بالخشب والدفوف الى سوق الخشب فيوزعها شيخهم على أهل الحرفة بحسب ما تتحمله حالهم . واذا أخذ الحكام من شيخهم خشباً ودفوفا وما اعطوه ثمنها فيوزع الثمن على أهل الحرفة برضاهم . واذا طلب الجلاب مالا بطريق السلفة فيأخذه الشيخ منهم ، على مقدار تحمل حالهم ، ويدفعه الى الجلاب ، وان لا احد من أهل حرفة النجارين يعين ثمن الخشب والدفوف سوى الشيخ (٧٠) . ومما يؤيد ان لا المحتسب ولا القاضي كان لهما حق تسعير الحاجيات ان طائفة البساتنة بحلب احتجت على المحتسب الذي طالبهم بتسعير القرنبيط والملفوف واجابوا بانه لم تجر العادة بتسعير ذلك في المحكمة . وايدهم القاضي ، ومنع المحتسب من معارضتهم (٧١) .

ونلاحظ في عمل الحرفيين انه كان فردياً في الغالب ، ونادراً ما اجاؤا الى الشركة فيما بينهم . وفي احدى الحالات اتفق افراد طائفة صباغي الحرير الملون بدمشق ان الحرير الذي يأتيهم للصباغة يصبغونه بطريق الشركة ، ثم تقسم الاجرة بينهم . ولكنهم عدلوا عن ذلك ، فيما بعد ، لاسباب لم يبينوها . واتفقوا ان يشتغل كل منهم على حدة ، ومهما حصل له من اجر يتناوله لنفسه (٧٢) .

ويبدو ان الاتجاه نحو فردية العمل قد شجعته الانظمة الحرفية وطبقه القاضي ومثال ذلك ان القاضي طلب من طائفة المخومين للسروج (الذين يعملون السروج من جلد الجمل) « ان يشتغل كل واحد منهم في دكان مستقل ولا يشتركون في العمل لان فيه ضرراً للمسلمين » (٧٣) . وهذا يعني ان تبقى امكانات الحرفي محدودة وعلاقاته مع زملائه متوازنة . وليس من مجال ، والحالة هذه ، لوجود تضخم في الثروات ، وبالتالي لحدوث تفاوت كبير فيها ، ولكن التفاوت يبقى قائماً بين مستوى ثروات المعلمين ومستوى ثروات الصناع ، ضمن الطائفة الواحدة . صحيح ان الصانع يترقى ليصبح معلماً ، في منظور مهني صرف ، ولكن افتتاح حانوت خاص به ، كمعلم حرفة ، يقتضي راس مال لا يستهان به لشراء خلو الحانوت ، بما في ذلك الادوات اللازمة لعمله ، وهذا ما عرف بالتركية (كدك) .

وقد عرف الكدك في دمشق ، في حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، بأنه « جميع عدة الدكان المعير عنه بالكدك » (٧٤) وفي بعض الفترات وبعض المدن اقترنت كلمة خلو بكدك ، او استخدمت لوحدها وتضمنت معنى الكدك (٧٥) . ونظراً لهذه الصعوبات والاعباء المادية فقد صعب أحياناً على الحرفيين الفقراء الارتقاء في سلم المهن ، واقامة مشاغل خاصة بهم .

وعارض المعلمون ، في بعض الاحيان ، في زيادة أجور الصناع الذين عملوا لديهم ، مثال ذلك ان الصناع في عمل القطنيات الحلبيات ابتهلوا الى القاضي لينصفهم من معلميهم الذين اعطوهم أجرة الثوب ثلاثين قطعة فضة . وذكر الصناع ان هذه الاجرة « دون اجرة المثل يوميذ واظهروا الحيف وتظلموا بسبب ذلك » ، وحضر الى المحكمة أهل الخبرة وشهدوا ، بمواجهة المعلمين ، ان اجرة الثوب الواحد لصانعه اثنتان وثلاثون قطعة . فأمر القاضي المعلمين بدفع ذلك (٧٦) . ولكن في مثال اخر ، بعد قرنين من الزمن ، رفض بعض المعلمين في صناعة الكريشه طلب الصناع زيادة أجرة السدا عما يأخذوه ، وهو ثمانية قروش ، لانه لا يفي بمعيشتهم ، وحكم القاضي انه ليس للصناع اجبار المعلمين على دفع الزيادة ، وخير الصناع بين العمل عند هؤلاء المعلمين او ترك خدمتهم .

ولما كانت المبادرة الحرفية فردية في الغالب نجد ان المشاغل تقوم في حانوت (دكان) مستقل ، أو قائم في خان ، أو في دار . وينطبق ذلك على المصابغ وأماكن النسيج . وبما ان استيعاب الحانوت او الدار كان محدوداً ، فان أنوال النسيج ، مثلاً ، لدى شخص واحد ، لم يتجاوز وسطيها العشرة أنوال . وفي حين نجد اماكن بيع السلع مجمعة في أسواق متخصصة ، يرأس كلا منها شيخ السوق ، نلاحظ ان معظم حوانيت تصنيع الحاجيات كانت متفرقة في انحاء المدينة . ولم يكن هناك ، مثلاً ، حي للمصابغ ، او للحياكة ، على غرار سوق الحرير ، او سوق القطن ، او سوق القوافين . ولكن بعض الطوائف ، التي تصنع وتبيع في ان ، مثل الصياغ ، او السيوفية ، او السروجية ، فلها اسواق خاصة بها . وتجمعهم في مكان معين اقتصته ، عادة ، دواعي الامن ، او تيسير المتاجرة ، لتمكين الشاري من الحصول على حاجياته في مناطق متقاربة . كما ان شيخ الطائفة يسهل عمله اذا كان افراد حرفته منتشرين في منطقة محددة وذلك لتمكنه من مراقبة عملهم وجودة انتاجهم ، ومن جمع الضرائب منهم . وقد حاول بعض افراد طائفة الزراميزية بحلب الخروج على العادة المتبعة التي تقضي يبيع انتاجهم في السوق المخصص لهم ، قرب الجامع

الكبير الاموي بحلب ، واخذوا يبيعونه خفية في الازقة والمقاهي . وحين تبين لباقي افراد الطائفة ان ما يباع في هذه الاماكن سيء الصنع ويسيء الى مهنتهم ككل نبه القاضي ان على من يشتغل بصنعة الزراميزية الا يبيع في غير السوق المخصص لها على العادة القديمة الجارية (٧٧) .

وقد حصر عمل الدباغين في منطقة معينة لان ذلك يقتضي تواجد عدد من الخدمات القريبة ، مثل المسلخ للتزود بالجلود ، والميـاه لغسلها . كما أن الروائح الناتجة عن العمل ، وما يلحق بها ، يحسن حصرها في مكان معين . لذا كان مركز الدباغات في دمشق ، حتى فترة قريبة ، في باب السلام ، حيث توافرت الشروط اللازمة لذلك (٧٨) . وحين تعاطى أحد الدباغين الدباغة بداره ، بمحلة القبيبات بدمشق ، احتج الدباغون ، وثبت لدى القاضي ان ذلك مخل بنظام الحرفة ومضر بأهلها لما فيه من اختلال قواعدهم . فمنعه القاضي مـن تعاطي حرفته خارجا عنهم (٧٩) . وحدث مثل ذلك في حلب ايضا (٨٠) . وانتقال الدباغات من منطقة الى اخرى ، اكثر بعداً عن اطار المدينة ، يعتبر مؤشراً لنمو المدينة العمراني (٨١) .

وبعض الحرف تقتضي الانتشار لا التجمع ، مثل طائفة البارودية التي لاتتواجد في سوق السلاح ، حيث تجمع في الاصل صناع السـلاح الابيض الفولاذي ، لان وجود البارود في مكان واحد يجعل خطورة الانفجارات قائمة ، لذا نرى بائعي البارود موزعين في مناطق متباعدة .

وفي مجال الخدمات ، كما في مجال الانتاج والتسويق ، روعي الاختصاص وتقسيم العمل . فهناك ، مثلا ، دلالون وقبانيون لسلع معينة ، وفي أماكن جغرافية معينة . وقد وجد في طائفة الطوافة (الباعة المتجولين) من اختص ببيع الفستق البلدي ، ومن اختص ببيع الفستق الجلب (٨٢) . وفي طائفـة الحمالين وجد تخصص في مناطق العمل ونوعيته . فقد اتفق ، في حوالي منتصف القرن السابع عشر ، أن يختص شيخ طائفة الحمالين بدار الوكالة بباب الجنان بحلب ، يحمل ماء الليمون ، بينما اختص بقية الافراد في الحمولة الاخرى ، ولم يتدخل فريق منهم في عمل الاخر (٨٣) . وكانت طائفة العتالين متخصصة بحمل احمال طائفة الافرنج بحلب ، وعارضت أن يخالطها أحد مـن الخـارج في عملهـا (٨٤) .

وحرص أصحاب كل طائفة على منع العناصر الغريبة من تعاطي حرفتهم . والهدف من ذلك ضمان حسن الانتـاج ، واستئثـار بالاربـاح ، ومشاركـة

جميع أعضاء الحرفة في تحمل الضرائب الجماعية . وقد احتج جماعة من طائفة الدباغين لجلود الحور بدمشق ضد ممارسة احد النطاعين (الذين يدبغون الجلد ويصنعون الاطباق منه) (٨٥) لحرفتهم لانه « لم يتقدم للمدعي المزبور تعاطي الصناعة المزبورة بينهم ، ولم يتقدم له أخذ قسم من الحور المزبور وان العادة القديمة والقاعدة المستمرة بينهم على ان ساير الحرف لاتداخل صنـاعتهم المزبورة ... ولم يتقدم لاجنبي الدخول في صناعتهم المزبورة وان صدر ذلك فيحصل الخلل لهم في الصناعة » . وقد وافقهم القاضي على ذلك (٨٦) .

وحافظت الطوائف ، في المجال الاجتماعي ، على بعض المميزات السائدة في المجتمع . كما انها ، بتنظيماتها واخلاقيتها المهنية ، قـد ساعدت على تطوير مستوى الاخلاق بعامة . وبهذا لعبت الطوائف دورا فاق الى حد كبير ، دور المحتسب ، الذي تضاءل شأنه في بلاد الشام في العهد العثماني ، وغاب في كثير من الاحيان عن الوجود .

وقد طبعت الحرفة حياة الحرفي بطابعها ، ولصق اسمها به حتى غدا كنية له . ونظراً لان الابن ، في غالب الاحيان ، كان يتعلم حرفة أبيه فقد لصق اسم الحرفة بالاسرة ككل ، مثل خشاب ، مسالخي ، حواصلي ، حداد ... الخ . ونلاحظ ، من ناحية اخرى ، ان الطوائف عكست مواقع فئات السكان في المجتمع ففي الربع الاول من القرن السابع عشر وجد بين الدباغين في حلب شيخ للاشراف من طائفة الدباغين،وكذلك شيخ للدباغين غير الاشراف (٨٧) . ويعكس هذا أهمية الاشراف وكثرة عددهم بين الدباغين بخاصة ، وفي حلب بعامة ، كما يستدل من الدور السياسي والعسكري الذي لعبه الاشراف في حلب في القرنين التاليين . ولم نعثر على أدلة لاحقة حول استمرار هذين الشيخين بين الدباغـين الذين ذكرت لهم طائفة واحدة فيما بعد .

ويبدو أن العلماء بين الحرفيين عوملوا معاملة خاصة ، كما يستدل مـن اعفاء الشيخ عبد الرحمن بن محمد ، من طائفة النشارين بدمشق ، من الكلف والمغارم العرفية المترتبة على هذه الحرفة « لكونه اماما وخطيبا ويتماطى ذلك (أي النشارة) لاجل معيشته ، وانه قبل تاريخه منع من التعرض له بموجب حجة شرعية ابرزها من يده » (٨٨) .

وقد لقي الفقراء والمفلسون من الحرفيين اهتماما ورعاية كبيرين . فالذي كانت بذمته ديون لم يستطع الوفـاء بها قسط عليه الدين بنسبـة تتناسب

مع ثروته ، ويختلف ذلك من حالة الى اخرى . ففي احدى الحالات ثبت لدى القاضي فقر احد العاملين في صناعة تحميل البضائع اذ كان مدينا لعدد من الناس بخمسمائة قرش ، فقرر القاضي ان يدفع المدين خمسا وعشرين قرشا من فاضل كسبه كل سنة ليوزع على ارباب الديون بنسبة ديونهم (٨٩) . وفي حالة اخرى ثبت اعسار أب وولدين يعملون في الحياكة فقسطت الديون التي كانت بذمتهم بان اعطوا ، من فاضل كسبهم ، لصاحب كل مائة قرش خمسة قروش (٩٠) .

وعرفت الطوائف الحرفية درجة متميزة من الاخلاقية المهنية التي ظهرت على مختلف المستويات ، فشيخ الطائفة اشترط فيه ، الى جانب معرفته بأمور الحرفة وقدرته على أداء واجبات المشيخة ، ان يكون متحليا بالعفة والاستقامة والتدين . واشترطت الصفات نفسها في التقيب واليكيت باشي . واذا اخل الشيخ ومساعدوه بالثقة التي وضعت فيهم حق لافراد الطائفة طلب عزلهم . ووافقهم القاضي ، عادة ، على ذلك بعد ان ثبتت لديه صحة دعواهم . وطبقت المقاييس ذاتها على الحرفيين ، فالحرفي الذي يغش في عمله (يعامل بما يستحقه من الاهانة والحقارة » (٩١) . وحين ثبت لدى القاضي ان شخصا وولديه من طائفة الصياغ هم « على غير الطريق المستقيم في بيعهم وشرائهم وانهم دائما يتطاولوا على الناس بغير حق » وافق القاضي على طرد هؤلاء من السوق (٩٢) . وقد هدد شيخ الترابين في حلب افراد طائفته بالا يلقي أحد منهم التراب على المقابر ، أو في الطرق ، أو على التلال بظاهر المدينة ، وان يحصر ذلك في الحفر والمغارات المهجورة . ويعاقب المخالف بما يستحق من الاهانة (٩٣) . وحين أخل صباغ ، اعطي الف درهم من الحرير لصبغه ، بشروط الصباغة ، توجب عليه اعطاء صاحب الحرير الفا ومائة وثمانين درهما من الحرير الخام (٩٤) . ويبدو ان تفسير الزيادة في وزن الحرير المعوض هو انها تعويض اضافي لان هذا الوزن الاجمالي يعادل وزن الالف درهم من الحرير الخام المسلمة أصلا الى الصباغ والتي ربما كان وزنها سيزداد الى الف ومائة وثمانين درهما بعد صبغها بنتيجة ما يلحق بها من زيت ومواد اخرى اثناء الصباغة . وظهر بين الطوائف اتجاه نحو تطبيق العدالة الاقتصادية بين الحرفيين . فالشيخ هو المسؤول ، عادة ، عن توزيع المواد الخام بالتساوي على افراد الطائفة ، ولكنه غالبا ما اخذ لنفسه حصة ونصف .

ويدل هذا التأكيد على الالتزام بالاخلاقية المهنية على اهتمام الحرفيين ، وبالتالي الشعب ، بالممارسة الاخلاقية . وينعكس ذلك بالمقابل ، على توطيد

فكرة الاخلاق بين الناس . وامكن للطائفة ان تصهر الحرفيين ، على اختلاف مذاهبهم ، في انضباط مهني تجاوز حدود التمييز بينهم ، فشارك المسلمون والمسيحيون في انتخاب شيخ الطائفة الحرفية على اساس من المقدرة والاستقامة والتدين .

ومما يجدر بحثه ، في مجال الحياة الاجتماعية للطائفة الحرفية ، تقصي العلاقة بين الطوائف الحرفية والطرق الصوفية ، ومقدار ما اسهمت به التنظيمات الحرفية في نشر الطرق الصوفية ، واستمراريتها ، وكذلك مقدار ما مارسته الطرق الصوفية من تأثيرات على الحرفيين في مجال تقديم الطاعة لشيوخ الطوائف وموظفيها الاعلين . ونظرا لاهمية هذه الموضوعات التي لم تدرس بعد فانها تحتاج الى ابحاث خاصة بها .

وعلى الصعيد الاداري ، لعبت الطائفة دورا هاما من حيث تنظيم العلاقة بينها وبين السلطة الحاكمة . فالسلطة تبلغ اوامرها الى الحرفيين عن طريق شيخ الطائفة . وبالمقابل، يرفع الحرفيون مطالبهم الى السلطة عن طريق الشيخ. وتجلت العلاقة بين الطرفين ، بأوضح صورة ، في مجال الضرائب . ووجدت ضرائب ثابتة واخرى عارضة ، فالاولى ، التي اشير اليها احيانا باموال الميري (من اميري اي دولة) ، جمعت عن طريق الالتزام ، وهو في الغالب لسنة . ومثال ذلك التزام مقاطعة دق القطني ، ومقاطعة دلالية العطارين ... الخ . ويصعب معرفة نسب الضرائب الثابتة الى العارضة . وقد أشير الى الاخيرة بتعابير مختلفة مثل « تكاليف عرفية » أو « مال الاوردي او العرضي » ، أي الجيش ، وهي مدفوعات غير منتظمة فرضتها الدولة لتمويل حملة أو غير ذلك. اما « مال المشيخة » فهو ما يفترض انه مخصص لشيخ الطائفة . وأيا كان الحال ، وجب على كل حرفي في الطائفة المساهمة ، حسب امكاناته ، في أداء الضريبة التي كانت تفرض بصورة جماعية ، ويقوم شيخ الطائفة ، بمساعدة بعض الموظفين ، بجمع أموال الضريبة من الافراد بالطريقة التي يرونها .

واشترك مع شيخ الطائفة في عملية توزيع الضرائب ثم جمعها كل من نقيب الطائفة واليكيت باشي فيها ، الى جانب شخص دعي بالمعرف . وقد نصب المعرف على مجموعة من الطوائف وكلفها بدفع ما توجب عليها بموجب الدفتر(٩٥). وذكر ايضا الحواط الذي يبدو أن مشاركته اقتصرت على جمع مال الجزية (٩٦).

وتوضح الامثلة التالية كيفية جمع الضرائب ، فقد اتفق شيخ طائفة الصابونية بمدينة حلب وجماعة من الصابونية مع طائفة الصابونية في محلة

بانقوسا على أنه اذا وقعت على طائفة الصابونية بحلب تكاليف عرفية يكون أربعة أخماسها على المدينة وتوابعها ، والخمس الخامس على صايح بانقوسا (٩٧) . واذا تخلف عضو في الطائفة عن المساهمة في التكاليف العرفية « يفعل معه الحقارة التامة » (٩٨) .

وفي الحالات التي تكون فيها طائفة ، او مجموعة طوائف ، تابعة (يمق) لطائفة اخرى ، تشترك هذه الطوائف معا في تحمل التكاليف ، مثال ذلك ان طائفتي المطافجية واللبابيدية التابعتين لطائفة الشعارين ، تحملتا ثلاثة أرباع التكاليف ، وتحملت طائفة الشعارين الربع الرابع (٩٩) ، وفي مثال آخر التزمت طائفة المسالخية ، التابعة لطائفة القصابين ، بدفع مبلغ معين للطائفة الاخيرة من التكاليف (١٠٠) .

وقد روعيت أوضاع الطوائف المادية عند فرض الضرائب عليها . مثال ذلك أن مبلغا من المال فرض على عدد من الطوائف الحرفية في حلب للمساهمة في تمويل حملة أمر بها السلطان ، وطلب من والي حلب المشاركة فيها ، وذلك في شوال ١٠٤٦ / آذار ١٦٣٧ . واجتمعت الطوائف المعنية واتفقت ، دون اكراه ، على توزيع مبلغ الضريبة بالنسب التالية :

جماعة بازرستان ٤٣٧ (بالقروش الريالية) ، بقالين ٢٩٤ ، قوافين ٢٧٣، عطارين ٢٥٩ ، سراجين ١٩٧ ، قره قماش ١٩٥ ، عقادين ١٨٧ ، سيوفية١٧٥، قاوقجية ١٦٤ ، صباغ ١٦١ ، سوق دهشة ١٥٩ ، خبازين ١٣٥ ، قصابين ١٣٢ ، مطاقجية ١٢٦ ، خياطين ١٢٣ ، حدادين ١٢١ ، سمرجية ٩٦ ، بياطرة ٨٩ ، اشجية ٨٢ ، فرايين ٨٢ ، علافين ٧٧ ، نجارين ٧٣ ، عباجية ٦٩ ، حبالين ٦١ ، سرفجية ٣٣ ، قازنجيان ٢٩ ، حلاقين ١٣ (١٠١) .

وسواء دلت كلمة جماعة على طائفة بكاملها ، أم على جماعة منها فان تفاوت النسب بين الجماعات يبقى قائما ، ويستدل منه على الملاءة المالية لكل جماعة . وليس غريبا ان جماعة بازرستان (أي السوق حيث خزن التجار بضائعهم وسوقوها واحتفظوا فيه بسيولتهم المالية وبالامانات) (١٠٢) ، تحملت العبء الاكبر من الضريبة .

وفي حالات اخرى وزعت الضريبة على افراد الطائفة بنسبة ما عين لكل منهم من المادة الخام ، التي درت عليه الارباح بحسب مقدارها وطاقته على تصنيعها ، مثال ذلك اتفاق افراد طائفة المعصرانية ان ما يطلب منهم من التكاليف

العرفية لجهة الميري في عام واحد يوزع بينهم على قدر أخذهم السمسم (١٠٣) . وفي مثال آخر اتفق افراد طائفة الكونجية (الذين يدبغون جلود الجواميس المسماة بالكون) ان تؤخذ التكاليف العرفية منهم على قدر الجلود التي يدبغها كل منهم (١٠٤) .

واذا ما تعطلت فئة من طائفة حرفية عن العمل تحملت بقية الطائفه ماخص الفئة المعطلة من ضرائب ، مثال ذلك أنه وجد في دمشق في الربع الثاني من القرن الثامن عشر ، تسعة محامص للبن ، موزعة في مختلف مناطق المدينة ، وشكل أصحابها طائفة محمصي البن ، وكان على الطائفة مائتا قرش ضريبة في الشهر . وقد تعهد افراد الطائفة لدى القاضي انه اذا تعطل احد المحامص فانهم يتحملون ما عليه من مال الميري بحيث لاينقص هذا المال (١٠٥) .

وبالاضافة الى دورها الاداري ، قامت الطوائف الحرفية بدور سياسي وعسكري ، وبخاصة في القرن الثامن عشر ، حين ضعفت سلطة الدولة ، وبرزت المنظمات الشعبية في مراكز المدن ، مثل اليرلية في دمشق (وهي الطائفة الانكشارية التي سيطر عليها السكان المحليون) ، والاشراف في حلب ، ورجال الاحياء، للدفاع عن مصالح السكان المحليين . وقد استعرض الحرفيون في دمشق في حوالي ١٧٦٠ ، وكان بعضهم « بالاسلحة والعدد والدروع الفاخرة » (١٠٦) .

أثر الاقتصاد الآوربي على الطوائف الحرفية في القرن التاسع عشر

أدت الثورة الصناعية في اوربا ، وبخاصة في مجال صناعة النسيج ، الى اغراق اسواق العالم ، في القرن التاسع عشر ، بالبضائع التي تميزت بالجودة والرخص . وكان ذلك ضربة شديدة للصناعات الحرفية المحلية التي لم تقو على الوقوف في وجهها (١٠٧) .

وقاست الصناعة الحرفية في بلاد الشام من منافسة البضائع الاوربية فضعفت وافتقر اصحابها . وتضرر الاقتصاد المحلي بصورة عامة . ويعزى ذلك الى سببين رئيسيين ، أولهما عدم اهتمام اوربا ، في فترة التصنيع الاقتصادي ، بمبادلة منتجاتها بالمنتجات المحلية ، كما كان الامر قبل الثورة الصناعية . فقد غدت انتقائية فيما تستورد ، واقتصرت على ما يغذي صناعاتها الناشطة . وبذلك كسدت في بلاد الشام المنتجات التي لم تعد تلائم اغراض

الصناعة الاوربية . والسبب الثاني هو اضطرار بلاد الشام ، ازاء هذا الوضع ، الى دفع ثمن البضائع المستوردة بالعملة النقدية ، أكثر منها بالمنتجات المحلية ، مما أرهق ميزانها التجاري .

وأدى تدفق البضائع الاوربية الى بلاد الشام ، ورواجها فيها ، الى قيام دكاكين متخصصة ببيعها . وذكر من هذه الدكاكين في عام ١٢٧١/١٨٥٥ دكان بسوق الخياطين بالصف الغربي معدة لبيع الاقمشة الافرنجية ، واربعة دكاكين بسوق البريد بالصف الغربي معدة لبيع الاقمشة والامتعة الافرنجية ، ودكان اخرى بالصف الشرقي من هذا السوق (١٠٨) ونستدل من هذا ان البضائع الافرنجية اصبحت تحتل اماكن بارزة في أسواق دمشق الرئيسية . ولم تقتصر الصادرات الاوربية على الاقمشة بل تعدتها الى المواد الاولية ، واصبح الغزل الافرنجي ، مثلا ، يستعمل في الانسجة المحلية .

وقد تعرض عدد متزايد من العاملين في النسيج الى الافلاس بسبب مزاحمة البضائع الاوربية . وتدنت قيمة الانوال ، وكذلك قيمة خلو الدكاكين وكدكاتها ، وكثر بيعها بفعل كساد المنتجات المحلية ، وقصر ملتزمو الضرائب عن دفع كامل ما يستحق عليهم من أموال للدولة نظرا لعجز الحرفيين عن تأدية ما يترتب عليهم لهم . وجاء في الكتاب الذي رفعه عبد القادر آغا خطاب ، احد كبار الملتزمين بدمشق ، الى السلطات المسؤولة فيها ، مطالبته بتخفيض قيمة التزام دمغة القطني والالاجة والصلواتي والديما ، وقلم المنكنا ودق القطني ... جة وغيرها ، التي كانت في عهدته، بسبب « حالة الكار وقلة تشغيله من قبل تكاثر وجود اجناس البضائع الافرنجية فالاقمشة الشامية كلما لها على تدني ومن ذلك يزيد بالاقلام (الالتزام) المذكورة تدني حاصلاتها وهذا شيء معلوم عند حضراتكم » (١٠٩) . وقد نظرت السلطات المعنية في هذا التقرير في ٥ محرم ١٢٦١ / ١٤ كانون الثاني ١٨٤٥ ، وقررت « بخصوص توقف بضائع الاقلام المذكورة في محروسة الشام من تكاثر البضائع الافرنجية فهذا مشاهد وملحوظ من تدقيق الاقلام المذكورة وتنازل اموالها عن العام الماضي لقلة رواج بضائعها التي هي القطني واللاجة والسدي فقبول هذا الالتماس فيه المغدورية على جانب الميري وان كانت اعذار عبد القادر آغا من تدني الاقلام المذكورة لسبب تدقيربضائعهامقبول»(١١٠) .

وانعكس اضطراب صناعة النسيج المحلية على تناقص عدد الانوال وانتاجها، فقد قدر عدد انوال النسيج في دمشق في أواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر باربعة آلاف نول ينتج النول الواحد منها في الاسبوع بين اربع وخمس قطع

منسوجة (١١١) ، أي ما يقرب من ٨٣٢٫٠٠٠ الى ١٫٠٤٠٫٠٠٠ قطعة سنوياً . وقدر عدد انوال القطني في دمشق عام ١٨٥٠ ب ٦٥٣ نولا ، استخدمت ٦١٣ رجلا و ٣٠٠ ولد . وقدر عدد أنوال الالاجة في السنة نفسها ب ١٠١٣ نولا ، استخدمت ١٠١٣ رجلا و ١٣٠٠ ولد ، وبلغ مجموع انتاجها بين ٢٢٠٫٠٠٠ و ٢٣٠٫٠٠٠ قطعة سنوياً (١١٢) ، وقدر عدد الانوال في عام ١٨٦٢ ، في أعقاب الاضطرابات في دمشق التي زادت في تعطيل الاقتصاد المحلي ، حوالي ٣٠٠ نول ، كان نصفها فقط منتجاً (١١٣) . ورغم ان عدد الانوال بلغ في السبعينات من القرن التاسع عشر ٥٢٥٠ نولا ، كما ذكر نعمان القساطلي(١١٤) ، الا انه اعتبر عددها هذا أقل مما كان عليه في بداية جيله . واضاف « اما الان فقد نكبت صنائع دمشق اعظم نكبة ولا سيما صنعة النسيج لسبب غلاء الحرير وكثرة انتشار البضائع الافرنجية مع عدم متانتها » . ويلاحظ ان ٢٣٠٠ نول من مجموع الانوال التي ذكرها القساطلي اختصت بنسيج الديما ، وهو النسيج الذي ابتكرته الصناعة المحلية لترد على منافسة البضائع الاجنبيــة . وذكر الياس القدسي (١١٥) في عام ١٨٨٣ « ان من تفحص أحوال الحرف الدمشقية ونظر اليها نظر المنتقد المدقق يرى انها في تأخير عظيم يوجب الاسف من جهة وفي اتقان يوجب الدهشة من جهة اخرى ... اما الترتيب ... فهو كمال الانتظام وحسن الترتيب اللذان لم يزالا محفوظين من أزمنة قديمة الى يومنا هذا بين عملة اليدين من كل نوع وملة » .

ونظراً للازمات الاقتصادية التي تعرض لهـا الحرفيون بسبب منافسة البضائع الاجنبية للبضائع المحلية كثر الفقر والافلاس في صفوفهم ، وعمدت السلطة القضائية الى جرد ثروة المفلس وتوزيعها على الدائنين . ففي احدى الحالات اخذ الدائن من أصل القرش ربعه وسامح المدين بالباقي ، وفي حالة اخرى اخذ النصف وبقي له بذمة المدين النصف الاخر ، وذلك بعد ان ثبت للقاضي ،في الحالين ، ان المدين معسر فعلا .

وغدا تهرب الحرفيين من دفع الضرائب أمراً شائعاً . ولجأ بعضهم الى طلب حماية "القناصل الاجانب والحصول على براءة من قبلهم لتحاشي الضرائب . وعرف الواحد منهم ، في هذه الحال ، بانه « براءتلي » ، أي صاحب براءة تعفيه من دفع الضرائب . وفي احدى الحالات تقدمت طائفة فتالة الحرير بمعروض الى سلطات دمشق تبين فيه ان بعض أفرادها ينقطعون عن العمل وقت دفع أموال الميري ، ويعودون اليه بعد دفعه ، لتحاشي مشاركتهم في الدفع . فقررت السلطات ان الذي يشتغل بالحرفة يجب ان يساوي أهل حرفته بمال الميري .

وفي حال انقطاعه عن العمل يجب ان يعطي سنداً بعدم العودة اليه ، واذا عاد واشتغل ، ولو باخر السنة ، وجب عليه ان يدفع ما خصه من مال الميري ، ويطلب ذلك أيضاً ممن هم تحت الحماية .

واذا كانت البضائع الاجنبية قد أوجدت أزمة بالنسبة لصناعة النسيج المحلية ، فان التجار المحليين سرعان ما تأقلموا مع الوضع الجديد وجنوا ثروات كبيرة نتيجة تعاطيهم المتاجرة بالبضائع الاجنبية . واصبح تعاملهم مع « لوندره» وغيرها امراً مألوفاً . ونشأت بنتيجة ذلك طبقة بورجوازية محلية من التجار والوسطاء ، ضمت اناساً من مختلف المذاهب ، كما يستدل من ثروات التجار وانواع السلع التي تعاطوها .

وأدى التداخل بين الاقتصاد الاوربي والاقتصاد المحلي والتعقيدات التي نجمت عن تشعب التجارة الى انشاء محكمة تجارية بدمشق عام ١٨٥٠ (١١٦) . وكانت محكمة مشابهة قد انشئت في دمشق في أواخر الحكم المصري ثم ألغيت (١١٧) ، وانشئت محكمة مماثلة في حلب في عام ١٨٥٥ (١١٨) .

وادت كثرة البضائع المتدفقة من أوربا الى بلاد الشام ، في القرن التاسع عشر ، الى الحاجة الى ميناء جديد يتسع لاستقبال السفن الكبيرة التي اخذت تسير بقوة البخار . وكانت المواني التقليدية ، قبل ذلك ، مثل الاسكندرونة وطرابلس وصيدا ، صالحة لاستقبال السفن الشراعية التي تحمل كميات محدودة من البضائع . ولهذا أنشىء ميناء بيروت لاستقبال البضائع الاوربية بكميات كبيرة . واقتضى ذلك انشاء طريق بيروت ــ دمشق لتصريف البضائع في الداخل . وقد بدأ العمل في هذا الطريق عام ١٨٥٩ من قبل شركة عثمانية مغفلة وبرأسمال فرنسي بلغ ثلاثة ملايين فرنك موزعة على ستة الاف سهم . وافتتح الطريق رسمياً في الاول من كانون الثاني ١٨٦٣ (١١٩) وارتفع عدد المسافرين عليه من ٥٨٠٩ عام ١٨٦٣ الى ٨٤١٨ مسافراً في العام التالي . ووصل العدد عام ١٨٦٩ الى ٩٥٠٩ مسافر (١٢٠) . وجرت اتصالات بين ممثلي الشركة والقبائل البدوية المسيطرة على طرق المواصلات في بادية الشام لتسهيل انتقال القوافل التجارية بين دمشق وبغداد لنقل البضائع اليها من بيروت . ولطريق بيروت ــ دمشق أهميته في مجال الحياة الاجتماعية والثقافية ، فضلا عن اهميته الاقتصادية ، لانه اصبح المعبر الرئيس للافكار والعادات الاوربية .

وادى انشاء شركات الملاحة الاوربية في البحر المتوسط (١٢١) في القرن التاسع عشر الى استخدام عدد كبير من الحجاج الاتراك طريق البحر للسفر

الى الحجاز ، وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، مما انقص عدد الحجاج المارين بدمشق (١٢٢) . وحرمت دمشق ، وبلاد الشام بعامة ، من كثير من النشاط التجاري الذي رافق قافلة الحج (١٢٣) .

ورغم التأثيرات المدمرة للاقتصاد الاوربي المتصنع على الصناعات المحلية ، وبالتالي على الطوائف الحرفية ، فلم تعدم الصناعة المحلية وسائل التأقلم والرد على هذا التحدي(١٢٤) . فقد تكيفت بعض الصناعات معالتحدي الاوربي،وظهرت صناعات محلية تجمع ما بين المحلي والمستورد ، من ناحيـة المادة والزي . ولمجابهة رأس المال الاوربي المتفوق عمد التجار المحليون الى التحول تدريجياً عن الفردية التجارية ، الى المشاركة لمواجهة التحدي ، كما عمدوا الى تقليد البضائع الاوربية . فظهر في دمشق نسيج الديما ، الذي قلد الالاجة ، وهو القماش المقلم المصنوع من الحرير والقطن . فعوضـاً عن الخيوط الحريريـة استخدمت القطنية فقط ، وهي ارخص ثمناً . وراجت الديما كثيراً . وحين شاع لبس البنطلون محلياً (الكلمة فرنسية ذات أصل ايطالي) ، نسج نـوع خفيف الوزن من الديما يصلح لصناعة البنطلون ولبسه في الصيف . وكـان هذا النسيج اجود وارخص ثمناً من النسيج الاوربي المماثل . واستخدمت المياه في تشغيل الات غزل القطن محلياً . ورغم النجاح في هذه النواحي فلم يلق تقليد القماش الافرنجي المعرق رواجاً محلياً اذ ان « النساء أبين لبسه لانه غير مشرف بوسام افرنجي » (١٢٥) . وهكذا أصبح الاقتصاد المحلي يدور في فلك الاقتصاد الاوربي ، وترتب على ذلك حدوث تحولات اقتصادية واجتماعيـة وثقافية عميقة في بلاد الشام .

---

(١) انظر مثلا :
Louis Massignon, **Encyclopédie de l'Islam,** 1ère ed. s.v. sinf; Claude Cahen, «Y-a-t-il eu des corporations professionnelles dans le monde musulman classique?» dans The **Islamic City,** edd. A.H. Hourani, S. M. Stern, Oxford, 1970. pp. 51 - 63.

(٢) رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، جزءان ، تحقيق الدكتور علي المنتصر الكتاني ، بيروت ١٩٧٥ ، ج ١ ، ص ٣١٤ ــ ٣١٥ .

(٣) انظر : سجل دمشق الشرعي ، رقم ٤٥ ، ص ٥٨ ، (تاريخ القضية) ٢٨ شعبان ١١٣٢ / (٥ تموز ١٧٢٠) .

(٤) عني بنشرها محمد أحمد دهمان ، دمشق ، ١٣٤٣ .

(٥) انظر الدراسة الهامة عن الطوائف الحرفية في مصر التي قام بها :
André Raymond, **Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe Siècle**, 2 tomes, Damas 1973 - 1974.

(٦) في جزئين ، الجزء الاول ، تأليف محمد سعيد القاسمي ، والثاني تأليف جمال الدين القاسمي وخليل العظم ، تحقيق ظافر القاسمي ، نشر مولون وشركاه ، باريس – لاهاي ، ١٩٦٠ .

(٧) الياس بن عبده بك قدسي قنصل دولة هولانده في دمشق ، « نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية » ، قدمها للمجمع العلمي الشرقي الملتئم في مدينة ليدن ، عام ١٨٨٣ ، ونشرت في :
Carlo Landberg, **Actes du VIe congrès des Orientalistes,** t. 2, Leiden, 1885.

(٨) مثلا وجد في دمشق في القرنين السابع عشر والثامن عشر من يصنع البنادق ، الذي عرف بلقب بندقجي . ولكن لم تذكر طائفة البندقجية ربما لان صنع البنادق كان ممنوعا من قبل الدولة، انظر حول عمل هؤلاء البندقجية وهويتهم بحثنا :
«The Local forces in Syria in the seventeenth and eighteenth centuries», in **War, Technology and Society in the Middle East,** edd. V. J. Parry and M.E. Yapp, Oxford University Press, 1975, p. 298.

(٩) انظر : Raymond, I, p. 265.

(١٠) انظر بحثنا بعنوان :
«The Law-Court registers of Damascus, with special reference to craft-corporations during the first half of the eighteenth century», dans **Les Arabes par Leurs Archives (XVIe-XXe siècles)**. par J. Berque et D. Chevallier, Editions du Centre National de la Recherche Scientifique, Paris, 1976, p. 156.

(١١) انظر : سجل دمشق ، رقم ٢٢ ، ص ٦٠ ، ٥ ربيع الاول ١١٠١ / (١٧ كانون الاول ١٦٨٩) .

(١٢) انظر كنموذج لهذا النوع من البحث دراستنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية ، من خلال الوثائق الشرعية ، ١٢٧٣ – ١٢٧٧ / ١٨٥٧ – ١٨٦١ ، بحث قدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام المنعقد في الجامعة الاردنية بعمان ، ١٩ – ٢٤ نيسان ١٩٨٠ .

(١٣) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٢٣٧ ، ٥ صفر ١٠٣٧ (١٦ تشرين الاول ١٦٢٧) .

(١٤) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٩١ ، ٢٤ رمضان ١١١٩ / (١٩ كانون الاول ١٧٠٧) .

(١٥) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ١٣٤ ، ٢٧ محرم ١٠٥٥ / (٢٥ آذار ١٦٤٥) .

(١٦) سجل دمشق ، رقم ١٥١ ، ص ٢٦٠ ، ٦ ذي القعدة ١١٦٨ / (١٤ آب ١٧٥٥) .

(١٧) سجل حلب ، رقم ٢٣ ، ص ٤٤٨ ، ١١ رجب ١٠٥٥ / (٢ ايلول ١٦٤٥) .

(١٨) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٣٠٢ ، ٢٨ محرم ١٠٣٨ / (٢٧ ايلول ١٦٢٨) .

(١٩) سجل حلب ، رقم ١٠ ، ص ٥٩٥ ، ٢٠ رجب ١٠١٧ / (٣٠ تشرين الاول ١٦٠٨) .

(٢٠) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٠٩ ، ٢٥ محرم ١٠٤٤ / (٢١ تموز ١٦٣٤) ، رقم ٢٤ ، ص ٢٨٠ ، ٢٥ ربيع الاول ١٠٥٥ / (٢١ أيار ١٦٤٥) .

(٢١) سجل دمشق ، رقم ٢٢ ، ص ٢٨٥ ، ١٢ جمادى الثاني ١١٠١ / (٢٣ آذار ١٦٩٠) .

(٢٢) نبذة تاريخية ، ص ٢٨ .

(٢٣) سجل دمشق ، رقم ١١ ، ص ١٢١ ، ٢٢ محرم ١٢٦١ / (٣١ كانون الثاني ١٨٤٥) .

(٢٤) سجل دمشق ، رقم ٥٠ ، ص ٢٨ ، ٢٥ ذي الحجة ١١٣٤ / (٦ تشرين الاول ١٧٢٢).

(٢٥) سجل دمشق ، رقم ٢٤ ، ص ١٥٩ ، ٢٢ ذي الحجة ١١٠٣ / (٤ ايلول ١٦٩٢) .

(٢٦) محمد الامين المحبي ، خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، أربعة اجزاء ، القاهرة، ١٢٨٤ / ١٨٦٩ ، ج ٤ ، ص ١٤٤ ــ ١٤٥ .

(٢٧) ص ١٠ .

(٢٨) القدسي ، ص ١٥ ــ ٣٠ .

(٢٩) ص ١١ .

(٣٠) سجل حلب، رقم ١٥ ، ص ٤٢٠ ، ٢٠ محرم ١٠٣٩ / (٩ ايلول ١٦٢٩) .

(٣١) المصدر السابق ، ص ٨٥٢ ، ٩ رمضان ١٠٤٦ / (٤ شباط ١٦٣٧) .

(٣٢) حوادث دمشق اليومية ١١٥٤ ــ ١١٧٥ / ١٧٤١ ــ ١٧٦٢ ، تحقيق الدكتور احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٩ .

(٣٣) نبذة تاريخية ، ص ١٢ .

(٣٤) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٦٨٨ ، ٤ ربيع الثاني ١٠٤٣ / (٨ تشرين الاول ١٦٣٣) .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٨٥ ، ٢٤ ذي القعدة ١٠٣٥ / (١٧ آب ١٦٢٦) ، ص ٧٦١ ، ٩ ربيع الثاني ١٠٤٥ / (٢٢ ايلول ١٦٣٥) .

(٣٦) ص ١٤ .

(٣٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٩١ ، ١٧ شعبان ١٠٤٥ / (٢٦ كانون الثاني ١٦٣٦) ، ص ٨٣٠ ، ٣ ربيع الثاني ١٠٤٦ / (٤ ايلول ١٦٣٦) .

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٦٢١ ، ٢٥ ذي القعدة ١٠٤١ / (١٣ حزيران ١٦٣٢) .

(٣٩) سجل حلب ، رقم١٢ ، ص٤٢٣، أواخر ربيع الاول٩٩٩/(أواخر كانون الثاني ١٥٩١).

(٤٠) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ١٣٧ ، ٢٨ محرم ١٠٥٥ / (٢٦ آذار ١٦٤٥) .

(٤١) سجل حلب ، رقم ٢٠ ، ص ١٤ ، سلخ محرم ١٠٤٦ / (٤ تموز ١٦٣٦) .

(٤٢) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٥٢ ، ١٤ محرم ١٠٤٥ / (٣٠ حزيران ١٦٣٥) .

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٣٨٠ ، ٢٢ جمادى الاول ١٠٣٨ / (١٧ كانون الثاني ١٦٢٩) .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٧٦١ ، ١٧ ربيع الثاني ١٠٤٥ / (٣٠ ايلول ١٦٣٥) .

(٤٥) المصدر السابق ، ص ٣٩٥ ، ١٦ شوال ١٠٣٨ / (٨ حزيران ١٦٢٩) .

(٤٦) سجل دمشق ، رقم ٣٨٨ ، ص ٣٣٧ ، ١٥ جمادى الثاني ١٢٦٤ / (١٩ أيار ١٨٤٨).

(٤٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٣٨٦ ، ٢٥ جمادى الثاني ١٠٣٨ / (١٩ شباط ١٦٢٩) .

(٤٨) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ١٢٥ ، ٦ ربيع الثاني ١٠٥٢ / (٤ تموز ١٦٥٢) .
(٤٩) سجل دمشق ، رقم ٢١ ، ص ٢٨٥ ، ١٥ جمادى الثاني ١١٠١ / (٢٤ شباط ١٦٩٠) .
(٥٠) سجل دمشق ، رقم ٤٥ ، ص ٥٨ ، ٢٨ شعبان ١١٣٢ / (٥ تموز ١٧٣٠) .
(٥١) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ٣٧٦ ، ٢ ذي القعدة ١٠٥٢ / (٢٢ كانون الثاني ١٦٤٣) .
(٥٢) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٠٥ ، ٢٦ ذي الحجة ١٠٤٥ / (١ حزيران ١٦٣٦) .
(٥٣) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ٢٨٠ ، أواسط ربيع الاول ٩٩٦ / (أواسط شباط ١٥٨٨).
(٥٤) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٢٠٨ ، ٦ ذي القعدة ١٠٣٦ / (١٩ تموز ١٦٢٧) .
(٥٦) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٦٨٨ ، ٤ ربيع الثاني ١٠٤٣ / (٦ تشرين الثاني ١٦٣٣).
(٥٧) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ٢٦٥ ، سلخ صفر ٩٩٦ / (٢٩ كانون الثاني ١٥٨٨) .
(٥٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ ، ٥ صفر ١٠٣٧ / (١٦ تشرين الاول ١٦٢٧) .
(٥٨) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٥٨ ، ٢٩ رجب ١٠٥٠ / (١٤ تشرين الثاني ١٦٤٠) .
(٥٩) سجل حلب ، رقم ٧ ، ص ٤ ، ٢٩ رجب ٩٩٨ / (٣ حزيران ١٥٩٠) .
(٦٠) سجل حلب ، رقم ١١ ، ص ٢٧٦ ، ١٠ ذي القعدة ١٠٢٧ / (٢٩ تشرين الاول ١٦١٨) ، رقم ١٥ ، ص ٤٨٤ ، ٢١ رجب ١٠٣٩ ، رقم ٢١ ، ص ٢٤٨ ، ٦ شوال ١٠٤٩ / (٣٠ كانون الثاني ١٦٤٠) ، رقم ٢٢ ص ١٥٣ ، ٥ شوال ١٠٥٠ / (١٨ كانون الثاني ١٦٤١) .
(٦١) سجل دمشق ، رقم ٥٩ ، ص ٢٢٠ ، ١٠ رمضان ١١٤١ / (٩ شباط ١٧٢٩) .
(٦٢) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ١٦٥ ، أوائل صفر ٩٩٦ / (أوائل كانون الثاني ١٥٨٨) .
(٦٣) سجل حلب ، رقم ٤ ، ص (بدون ترقيم) ، غرة ربيع الثاني ١٠٥٢ / (٢٩ حزيران ١٦٤٢) ، رقم ٢٥ ، ص ١٩٦ ، ٢٢ شوال ١٠٥٨ / (٩ تشرين الثاني ١٦٤٨) .
(٦٤) سجل حلب ، رقم ١٠ ، ص ٨٧٠ ، أوائل ذي الحجة ١٠١٦ / (أواسط آذار ١٦٠٨) .
(٦٥) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٨٩ ، ٢٥ شعبان ١٠٥٠ / (١٠ كانون الاول ١٦٤٠) .
(٦٦) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٥٠٠ ، (؟) رجب ١٠٢٨ / (حزيران ـ تموز ١٦١٩) .
(٦٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٥٨٨ ، أواسط ربيع الثاني ١٠٤١ / (أوائل تشرين الثاني ١٦٣١) .
(٦٨) سجل دمشق ، ٢٨ ، ص ١٩٥ ، ٤ جمادى الثاني ١١١٢ / (١٦ تشرين الثاني ١٧٠٠) .
(٦٩) انظر : سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ١٣٦ ، ٥ ذي الحجة ١١١٩ / (٢٧ شباط ١٧٠٨)، ص ١٣٩ ، ١٤ ذي الحجة ١١١٩ / (٧ آذار ١٧٠٨) .
(٧٠) سجل حلب ، رقم ١١ ، ص ٧٦ ، ٢٢ محرم ١٠٢٧ / (١٩ كانون الثاني ١٦١٨) .
(٧١) المصدر السابق ، ص ٥٥ ، ٢٩ ذي الحجة ١٠٢٦ / (٢٨ كانون الاول ١٦١٧) .
(٧٢) سجل دمشق ، رقم ٢٤ (بدون ترقيم) ، ٨ رجب ١٠٩١ / (٤ آب ١٦٨٠) .
(٧٣) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٢٤٨ ، ١٤ رمضان ١٠٤٩ / (٨ كانون الثاني ١٦٤٠) .
(٧٤) سجل دمشق ، رقم ٤٧٢ ، ص ١٣١ ، ١٤ صفر ١٢٧٢ / (٢٦ تشرين الاول ١٨٥٥) .

(٧٥) انظر تفاصيل اخرى عن الكدك في دمشق وحلب في بحثنا التالي الذي القيناه في المؤتمر الدولي الثاني للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي لتركيا ، المنعقد في جامعة ستراسبورغ بين ١ ـ ٥ تموز ١٩٨٠ :

«The Impact of Europe on a traditional economy : The case of Damascus, 1840 - 1870», IIe Congrès International d'Histoire Economique et Sociale de la Turquie, Colloque : Economie et Sociétés dans l'Empire Ottoman, fin du XVIIIe-début du XXe siècle, Strasbourg, 1er - 5 Juillet 1980.

(٧٦) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ١٦٦ ، ٣ صفر ٩٩٦ / (٣ كانون الثاني ١٥٨٨) .

(٧٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٦٠٢ ، اواخر رجب ١٠٤١ / (اواسط شباط ١٦٣٢).

(٧٨) سجل دمشق ، رقم ٣٤ ، ص ٢٨ ، ٢٩ ذي الحجة ١١٢٢ / (١٨ شباط ١٧١١) .

(٧٩) سجل دمشق ، رقم ٢٨ ، ص ٢٢٠ ، ١١ محرم ١١١٤ / (٩ حوز ١٦٩٩) .

(٨٠) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٨٨ ، ٢٢ شعبان ١٠٥٠ / (٧ كانون الاول ١٦٤٠) .

(٨١)

André Raymond, «Le déplacement des tannerie à Alep, au Caire et à Tunis». **Revue d'Histoire Maghrébine**, VII - VIII, 1977.

(٨٢) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٤٢٠ ، ٢٠ محرم ١٠٣٩ / (٩ ايلول ١٦٢٩) .

(٨٣) سجل حلب ، رقم ٢٥ ، ص ١٠٤ ، ١٠ شعبان ١٠٥٨ / (٣٠ آب ١٦٤٨) .

(٨٤) سجل حلب ، رقم ١٢ ، ص ١٦٣ ، ١٠ جمادى الاول ١٠٣٢ / (١٢ آذار ١٦٢٣) .

(٨٥) قاموس الصناعات الشامية ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

(٨٦) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٨٠ ، ٢٣ شعبان ١١١٩ / (١٩ تشرين الثاني ١٧٠٧) .

(٨٧) سجل حلب ، رقم ٢ ، ص ١٥٢ ، ١٧ ذي الحجة ١٠٠١ / (٢٤ ايلول ١٥٩٣) .

(٨٨) سجل دمشق ، رقم ٢١ ، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ ، غرة جمادى الثاني ١١٠١ / (٥ آذار ١٥٩٣) .

(٨٩) سجل دمشق ، رقم ١٤٨ ، ص ١٥٧ ، ١٩ جمادى الاول ١١٦٨ / (٣ آذار ١٧٥٥).

(٩٠) سجل دمشق ، رقم ١٤٨ ، ص ١٧٤ ، ٥ جمادى الثاني ١١٦٩ / (٧ آذار ١٧٥٦).

(٩١) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٨٩ ، ٢٥ شعبان ١٠٥٠ / (١٠ كانون الاول ١٦٤) .

(٩٢) سجل حلب ، رقم ٢٥ ، ص ١٢٤ ، ١٩ شعبان ١٠٥٨ / (٢٨ آب ١٦٤٩) ، وانظر كذلك ، دمشق ، سجل ٥١ ، ص ١١٩ ، ٨ رجب ١١٣٥ / (١٤ نيسان ١٧٢٣) .

(٩٣) سجل حلب ، رقم ٢٣ ، ص ١٨٤ ، ١٩ جمادى الثاني ١٠٥٢ / (١٤ ايلول ١٦٤٢).

(٩٤) سجل حلب ، رقم ١٢ ، ص ٤٦٧ ، ١٩ ربيع الثاني ٩٩٩ / (١٤ شباط ١٥٩١) .

(٩٥) سجل دمشق ، رقم ٥١ ، ص ٣٦ ، ٧ ربيع الاول ١١٣٥ / (١٦ كانون الاول ١٧٢٢).

(٩٦) سجل حلب ، رقم ٢٣ ، ص ٤٤٧ ، ٧ رجب ١٠٥٥ / (٢٩ آب ١٦٤٥) .

(٩٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٥٢ ، ٩ رمضان ١٠٤٦ / (٤ شباط ١٦٣٧) .

(٩٨) المصدر السابق ، ص ٧٩٩ ، ١١ ذي القعدة ١٠٤٥ / (١٧ نيسان ١٦٣٦) .
(٩٩) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، (بدون ترقيم) ، ١٧ شعبان ١٠٩٠ / (٢٣ ايلول ١٦٧٩) .
(١٠٠) سجل دمشق ، رقم ٢١ ، ص ٢٨٥ ، ١٥ جمادى الثاني ١١٠١/(٢٦ آذار ١٦٩٠).
(١٠١) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٢٠ ، ٢٦ شوال ١٠٤٦ / (٢٣ آذار ١٦٣٧) .
(١٠٢) انظر حول اهمية البازرستان (أو اليدستان) في الدولة العثمانية :

Halil Inalcik, «The Hub of the City . the Bedestan of Istanbul», **International Journal of Turkish Studies**, Vol. 1, No. I, pp. 1 - 17.

(١٠٣) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٣٤ ، ٢٧ شعبان ١٠٤٤ / (١٥ شباط ١٦٣٥) .
(١٠٤) المصدر السابق ، ص ٨٣٨ ، ٢٥ جمادى الثاني ١٠٤٦ / (٢٤ تشرين الثاني ١٦٣٦).
(١٠٥) سجل دمشق ، رقم ١٠١ ، ص٢ ، ٢ جمادىالثاني ١١٥١ / (٧ تشرين الثاني ١٧٣٨).
(١٠٦) البديري ، ص ٢٣٤ ، وانظر أيضا بحثنا :

«Changes in the Relationship between the Ottoman Central Administration and the Syrian Provinces from the Sixteenth to the Eighteenth Century, in **Studies in Eighteenth Century Islamic History**, edd. Thomas Naff and Roger Owen, Southern Illinois University Press, 1977, p. 65.

(١٠٧) انظر الدراسة الهامة التي قام بها حول لبنان :

Dominique Chevallier, **La Société du Mont Liban à l'Epoque de la Révolution Industrielle en Europe**, Paris, 1971.

(١٠٨) سجل دمشق ، رقم ٤٧٢ ، ص ٣٢ ، ٢٩ شعبان ١٢٧١ / (١٧ أيار ١٨٥٥) .
(١٠٩) سجل دمشق ، رقم ١١ ، ص ٩٩ ، ٥ محرم ١٢٦١ / (١٤ كانون الثاني ١٨٤٥) .
(١١٠) المصدر السابق .
(١١١) انظر :

John Bowring, **Report on the Commercial Statistics of** Central Administration and the Syrian Provinces from the Sixteenth to the Eighteenth Century, in Studies in Eighteenth **Middle East, 1800 - 1914**, ed. Charles Issawi, Chicago, 1966, p. 2²4.

(١١٢) انظر :

Affaires Etrangères; Correspondence Commerciale, (Paris, Quai d'Orsay), Damas 3, (dépêche de) 20 janvier, 1850.

(١١٣) انظر :

A.E. CC, Damas 4, 16 occtobre, 1962.

(١١٤) ص ١٢٣ .
(١١٥) « نبذة تاريخية » ، ص ٨ – ٩ .
(١١٦)

AE, CC, Damas 3, 28 mai, 1850.

(١١٧) Bowring, p. 93.

(١١٨) AE, CC, Alep 31, 31 mai, 1855.

(١١٩) AE, CC, Damas 4, 12 juin, 1863, Damas 5, 29 avril 1870.

(١٢٠) AE, CC, Damas 5, 29 avril, 1870.

(١٢١) مثل شركتي : Messageries Impériales, et Compagnie Russe

انظر : AE, CC, Damas 5, 19 Janvier, 1870.

(١٢٢) انظر بحثنا : «The Impac of Europe», pp. 4 - 5.

(١٢٣) القساطلي ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .

(١٢٤) انظر :

Dominique Chevallier, «Un exemple de résistance technique de l'artisanat syrien aux XIXe et XXe siècles, les tissus ikatés d'Alep et de Damas», **Syria**, 39 (1962).

(١٢٥) القساطلى ، ص ١٢٣ .

* * *

بعض أحداث الدولة العباسية
والدور العباسي الأول
من خلال منظور عنصري واقتصادي واجتماعي

د. نبيه عاقل

عميد كلية الآداب ـ جامعة دمشق

النقاش الذي أثاره بعض الباحثين المحدثين حول هوية الثورة العباسية ومدى عروبتها أو عجمتها ، انتهى لصالح الفريق القائل بأصالة هذه الثورة من حيث كونها عبّاسية في قيادتها ، اسلامية في شعاراتها ومبادئها . واستقر رأي العديد منهم على أنها قامت على اكتاف عرب خراسان باعتبارهم عصب القوة الضاربة للجيش الخراساني . واذا ما أضفنا الى هذا عروبة الخلفاء العباسيين وانتسابهم الى العباس بن أبي طالب عم الرسول (ص) ، وعروبة بلاطهم بما كان يضمه في مطلع دولتهم ، واهلهم وصحابتهم وقادتهم وولاتهم ، وكلهم عرب أقحاح وشيوخ قبائل عربية تألفتهم السلطة لتأتلف قبائلهم من ورائهم . حتى أن بعض الخلفاء العباسيين الاوائل لعب لعبة العصبية القبلية ، اذ تذكر المصادر أن الخليفة المنصور كان يحرص على ضرب القبائل العربية الكبرى بعضها ببعض لتنكسر شوكتها ، ولكيلا تكون في دولته مراكز قوى تنازعه السلطان . ومن هذا القبيل كان عمله الدائب منذ تسلمه الخلافة لكسر الحلف بين الازد وربيعه ، وقد نجح في ذلك . أما كتلة الموالي ، فلم تكن ذات هوية عرقية معينة ، بل كان ولاؤها للخليفة والدولة ، وهذا ما جعل مؤلفاً مثل الجاحظ يميز بين « الموالي » و « العجم » من جهة ، وبين « العرب » و « العجم » من جهة أخرى . فولاء « الموالي » كان خالصاً للدولة ، لا لجنس معين ، وهذا يعني ، كما يقول الدكتور فاروق عمر ، « بأن التنظيم السياسي للدولة الاسلامية لم يتحول الى تنظيم فارسي يسيطر عليه الفرس ، بل تحول تدريجياً من عربي الى أممي ، أي أن الانسان الاساس الذي استندت عليه الدولة الجديدة لم يعد يستند على الاصل الواحد للارستقراطية العربية الحاكمة ، كما كان في عهد الامويين ، بل العقيدة المشتركة ، الاسلام » . [انظر ، فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ط ، ١ ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٢٨١] .

ومعلوم أن الثورة العباسية التي أسقطت حكم بني أمية ونقلت مركز الثقل السياسي من الشام الى العراق لم تلق ترحيباً من جميع أفراد الجماعة الاسلامية أو مواطني دولة الاسلام . ففي حين كان البعض يدعو لها ويقوم بأمرها وينتظر على يديها الخير العميم ، كان أخرون يرون في قيامها سقوط العرب وغلبة العجم وعودة الامر ملكاً عضوضاً كسروياً . [انظر مثلا ما ينقله فاروق عمر عن صاحب كتاب « النبذة » الذي يعتبر بأن الدولة العباسية « دولة مباركة ردت الامور الى قرارها وأسندت القضايا والاحكام الى خيارها » ؛ وقارنه برأي ابن الطقطقي صاحب « الفخري » الذي يعتبرها « دولة خداع ودهاء وغدر » . أو ابن عذاري وابن حزم اللذين ينعيان سقوط دولة بني أمية العربية ودواوينها وغلبة عجم خراسان . انظر ، المصدر السابق ، ص ٢٧٨ — ٢٧٩] . واذا أضفنا الى ذلك أن الوعي العربي كان قد دخل دور التعبير عن ذاته قبل ذلك بكثير ، أي منذ عهد الراشدين والامويين ، وان حركة الردة التي استطاع أبو بكر الصديق أن يقمعها بحزمه واخلاصه وايمانه الذي لا يتزعزع بوجوب استمرار الدولة العربية المسلمة الموحدة الاولى التي أقام الرسول صلوات الله عليه دعائمها في المدينة ، وأن هذه الحركة انتهت بتوحيد جميع عرب الجزيرة ورص صفوفهم في ظل راية واحدة استطاعت أن تعلو خفاقة فوق امبراطورية مترامية الاطراف ، عربية اللسان والرسالة والعطاء الحضاري .

وبهذا يمكننا أن نعتبر أن حركة الفتح كانت التعبير الحي عن الطاقات الهائلة التي ولدتها الوحدة العربية الاولى واجتماع كلمة العرب تحت قيادة موحدة ، استطاعت أن تنشر السيادة العربية وأن توسع رقعة الارض العربية . لاسيما بعد أن أكمل الامويون هذه المهمة القومية بفرض عملية التعريب على مختلف أصقاع الدولة ومؤسساتها الادارية والحضارية المختلفة ، وجاءت الان الدولة العباسية لتوقف هذا المد العربي ولتلغي التمييز بين العرب وغير العرب في دولة أممية تزداد فيها أهمية العنصر العباسي وتتمازج فيها الدماء العربية بدماء غير عربية ، ولا يستثنى من ذلك الخلفاء العباسيون انفسهم الذين غدت غالبيتهم من أبناء « أمهات ولد » .

وقد تعارف المؤرخون على اعتبار دولة الامويين دولة عربية ، ووصف عصرهم بأنه العصر العربي الامثل ، وهذا الجاحظ يقول : « دولة بني العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان أموية عربية » . ويثني المسعودي على قول الجاحظ هذا فيعتبر انه « باستخدام العباسيين للموالي سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها » . [انظر ، الجاحظ ، البيان والتبـ

ج ٣ ، ص ٣٦٦ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ط . باريس ١٨٧٣ ، ج ٧ ص ٢٩١ – ٢٩٢] . ولكننا نرى أن تبلور الوعي العربي وتعاظم اهتمام أصحابه به كان بعد العصر الاموي حين تعرض العرب لازمات كان أولها تضاؤل دورهم في الحياة السياسية للدولة وتدهور سلطانهم واستيلاء أفراد وشعوب غير عربية على مقاليد الامور وتربع مكان الصدارة في السياسة والمجتمع . ووضح كيد هذه الشعوب الغريبة في الحركات الانفصالية والثورات المسلحة التي قاموا بها ضد الدولة العربية في ظل الاسرة الحاكمة الجديدة ، وفي الحركتين الفكريتين الهدامتين : الشعوبية والزندقة . ورغم أنه لايدخل في نطاق هذا البحث الحديث عن هذه الثورات والحركات الفكرية ، الا أنه لا بد لنا ان نذكر انه كان لها دور كبير في بلورة فكرة عربية وشخصية عربية تعي ذاتها وتشعر بحدة الهجمة المقصودة التي تتعرض لها بهدف ابادتها والاجهاز على كل منجزاتها . ويتضح هذا الذي نزعم بصورة أكمل اذا ما تذكرنا التلازم والصلة الوثيقة بين الحركة الشعوبية والزندقة من جهة ، وبين هاتين الحركتين والثورات العرقية المسلحة والحركات الانفصالية التي ظهرت في الاقاليم الاعجمية من جهة أخرى فالشعوبية التي هدفت الى ضرب الكيان العربي والانتقاص من كل ما كان للعرب من مزايا ومفاخر بما في ذلك انتماء الرسول (ص) الى الجنس العربي ، والزندقة التي رمت من زاوية أخرى الى تهديم القاعدة التي يستند اليها السلطان العربي وهي الاسلام ، للترادف الوثيق بين العروبة والاسلام في نظر الشعوب المختلفة التي دخلت في ظل الحكم العربي واعتنقت الاسلام ، كانتا السهم المسموم الذي وجه الى الصدر العربي منذ بدايات الحكم العباسي ، وما لبثت أن بدأت حركات مريبة كالراوندية والخرمية وحركة المقنع الخراساني وسواها تطل برأسها لتعمل في الجسد العربي نخراً وتخريبا . ورغم وعي السلطة العباسية لخطورة هذه الادواء ، ومحاولتها خنقها في مهدها ، الا أنها لكثرتها ولعظم ما احتاجته من جهد ومال ورجال ، خلفت آثاراً عميقة كان أقلها انفصال أقاليم عديدة عن الدولة العربية بتدبير فئات غير عربية تحكم اسمياً باسم الخليفة العباسي ولا تعطيه من مظاهر السلطان الا الخطبة والسكة والطراز ، وكثيراً ما كانت تحجبها عنه ، وقد وضح هذا الصراع أكثر ما وضح في العراق ، قلب الدولة العباسية ، والذي كان منذ القديم ساحة صراع سياسي وثقافي واجتماعي بين السامية والآرية ، وغدا الآن مسرحاً لصراع مماثل بين العروبة والعجمة ، لبروز العرب كقوة بديلة على مسرح السياسة الدولية .

وليس من شك في أن الثورة العباسية بما عبأت من قوى عرقية وبما استقطبت من نقمات كامنة ، وما أفسحته لها من مجالات للعمل ، كانت المسؤولة

مسؤولية غير مباشرة عن هذا الخلل في ميزان القوى والذي مال لصالح العناصر غير العربية . على أن هذا لا يعني أن المسؤولية بكاملها تقع على كاهل هذه الثورة ، لأن انفلات هذه القوى العرقية الناقمة من أسر أغلالها السابقة ، وبما كان يعتمل في قلبها من أحقاد ، كان أقوى من أن تقدر السلطة العباسية على ضبطه واعادته الى خضوعه القديم . وقد يكون من الجائز أن نضيف أن السلطة العباسية لم تقدر في هذه المرحلة المبكرة من تسنمها المسؤولية السياسية الأخطار التي ستترتب على الاستعانة بهذه القوى . وهكذا فقد كان هذا الصراع العرقي أقوى وأعمق أثراً من مجرد ظاهرة تبدل أسرة حاكمة بأسرة حاكمة سواها . انه بركان حبيس أتيح له أن يتفجر في لحظة ضعف فطغى ودمر ، ولم يكن من السهل الوقوف في وجهه .

ولسنا نريد أن ننهي هذه المقدمة لبحثنا دون أن نشير الى أن هذا الصراع المرير بين العرب وغير العرب لم يكن شراً كله ، اذ انه ساعد على بلورة فكرة « أمة عربية » متميزة عن بقية شعوب الدولة الاسلامية ، وعمق وعيها لذاتها وخصوصيتها ، وسار بها شوطاً طويلاً تلازم فيه الوعي القومي بالاطار العقائدي للانسان العربي . وقد استمر هذا الصراع في تعميق الوعي القومي على مر العصور ، وانتقل الوعي العربي من صعيد طبقة محدودة الى صعيد شعبي ضم قطاعات واسعة ترص صفوفها على الدوام وتوجه جهدها في سبيل التحرر والانعتاق .

وكان أول مظاهر هذا الوعي التأكيد على اللغة العربية ، واحلالها محل الصدارة في المجتمع والدولة والفكر ، ورغم كل الاعاصير التي ضربت العرب كعنصر قائد في الدولة الاسلامية فقد استطاعت العربية أن تصمد وأن تحفظ وجهاً عربياً للدولة ، رغم عجمة العديد من القائمين عليها . وطبيعي ، في دراسة كهذه ، ألا نسرف في شرح أبعاد وآثار هذه الظاهرة ، ولكن لا بد من التنويه بأن كل من حمل راية معارضة العروبة ، نطق بلسان عربي واختبأ وراء ستار مزور مما تنزل في القرآن العربي . وفي هذا ما يكفي .

وقد يكون مهماً في هذه المرحلة من بحثنا أن نتساءل عن الاسباب التي تكمن وراء هذا التحول الذي طرأ على حال العرب في ظل دولة بني العباس التي بدأت حياتها وهي تلوح عالياً بهويتها العربية ، معتزة بها ، وبالدم العربي الذي أوصلها الى سحق حكم بني أمية والتربع على كرسي السلطان بما قدمه لها يمانية خراسان وربيعتها ومضريتها من قوة ضاربة قاتلت تحت الراية

السوداء ، وما أخذ يشعر به هؤلاء العرب بعد أمد غير طويل من قيام الدولة من غربة في دولتهم وجأرهم بالشكوى مما آلت اليه حالهم ؟! وفي هذا التساؤل الذي نطرح يكمن التناقض بين أنصار الرأي القديم الذي يقول بعجمة الثورة ، وأنصار الرأي الجديد الذي يقول بعروبتها . ويستطيع أصحاب الرأي القائل بعجمة الثورة أن يستغلوا الأخبار التي نجدها في مصادرنا حول تذمر العرب وثوراتهم منذ الدور العباسي الأول كدليل على صحة نظريتهم ، وفساد رأي القائلين بأن العرب عموماً ، وعرب المشرق خصوصاً ، هم الذين أوصلوا الثورة الى نهايتها السعيدة ، ومن أجل الفصل في هذا الموضوع لابد لنا من أن نتذكر الامور التالية :

أولاً :

ان القول بعروبة الثورة لا ينفي الدور الكبير الذي لعبته بقية العناصر غير العربية للوصول بها الى النصر وتسلم مقاليد السلطة . ويكفي أن نستعرض القوائم التي يقدمها لنا صاحب أخبار الدولة العباسية [مؤلف مجهول ، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي ، ط . بيروت ١٩٧١ ، ص ٢١٦ وما بعدها] بأسماء النقباء ونظراء النقباء والدعاة حتى يتبين لنا أن القائمين على الثورة كانوا عرباً وغير عرب ، وأن الذي كان يربط بينهم هو العمل المشترك لاسقاط بني أمية وايصال بني العباس الى الحكم ، وأن الرابطة العرقية لم يكن لها دور في تسميتهم ، وأنه كان لهم في ذلك مصلحة مشتركة .

ثانياً :

كانت خراسان معقل الثورة ومستقر رجالاتها ، ويحار المرء في سبب هذا الاختيار . ويبدو أن هذه الحيرة قد وقرت في نفس بعض كبار رجالات الدعوة الأول من أمثال سالم بن بجير (سالم الأعمى) الذي دار بينه وبين محمد بن علي الحوار التالي :

« ولما أجمع محمد بن علي على توجيه أبي عكرمة الى خراسان قال له سالم : ليس لنا أن نستبد بأمر دونك ولا نسبقك ونحن نأتم بك ، وقد أحببت أن أستأذنك في شيء قد كنا رأيناه فخالفنا فيه بكير اذ نحن بالكوفة ، قال : فهاته وما أحب ان تخالفوا بكيراً فانه يحب آل محمد ، وهو ذو رأي . قال : كنا نظرنا في أمرنا هذا فرأيناك قد حلت بين أهل الشام ، ورأينا لأهل الشام دولة وجماعة ونجدة فيهم ظاهرة ، فرأينا ان نبث دعوتك فيهم ، وندعو منهم من طمعنا في

اجابته ، فكره ذلك بكير وخالفنا فيـه . قال محمد : أصاب بكير ، وأخطأتم أبى الله أن يأتي بالشمس من المغرب ، وأحب أن يأتي بها من المشرق ، وان أهل الشام أعوان الظالمين ، وآفة هذا الدين ، وشيعة الملاعين ، وقد ابتعثوا بنصرة بني أمية ، وأغرى أكثر اهل العراق بمشايعة بني ابي طالب ، وقد خصنا الله بأهل خراسان ، فهم أنصارنا وأعواننا وذخائرنا ، وقد حلت عليهم من الله رحمة قد غشيتهم ، ويوشك أن تتبعهم ريح الحياة **فتعز ذليلهم ، وتقوي ضعيفهم ،** وتقتل من قاتلهم ، حتى يعز دين الله ويظهر الحق وأهله ، بقول الله عزوجل : (أنزل من السماء ماء فسالتْ أودية بقَدَرِها)، فكأنكم بالاودية قد سالت برجال خراسان أشد في طاعتنا من زبر الحديد ، **أسماؤهم الكنى ، وأنسابهم القرى ،** يقدمهم النصر ويحوطهم العز ، فالهْ عن غير أهل خراسان ، فانه ليس لكم بغيرها دعوة ولا من غير أهلها مجيب » . [المصدر السابق ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦] .

ويتضح من هذا الحوار أن سالم بن بجير الذي كان من كبار رجالات محمد ابن علي وموضع ثقته ، استغرب موقف بكير بن ماهان من أهل دمشق ومحاولته ابعادهم عن الدعوة ، على الرغم من أن بكيراً كان من موالي بني مسلية ، وكان يسكن بالاردن من الشام ، وكان من أهل الديوان قبل أن يغزو مع يزيد بن المهلب خراسان ويدخل معه جرجان حين فتحت . [انظر اخبار الدولة العباسية ، ص ١٩١] . ومع أن سالماً لا يطلب من محمد بن علي أن يثق بجميع أهل الشام وأن يطلعهم على أسرار الدعوة ، وأن يقتصر في ذلك على الثقاة منهم الذين يطمع في اجابتهم ، ولكن محمداً يرفض وينعت أهل الشام بنعوت قاسية ، ويؤكد أن الله قد خصهم (أي بني العباس) بأهل خراسان ، وأن رحمة الله **ستعز ذليلهم وتقوي ضعيفهم ،** وكأن في ذلك اشارة الى فئة خاصة من أهل خراسان هي فئة الاذلاء والضعفاء التي كانت عصب الجماعة المؤيدة للحركة العباسية . كما أنه لايمكن أن يفهم من وصف محمد بن علي للرجـال الخراسانيين المؤيدين لبني العباس بأن « أسماءهم الكنى » بأنهم كانوا من العرب فقط ، لأن زعماء الدعوة من العباسيين كانوا يكنون الموالي من رجالاتهم ، وهذا بكير بن ماهان الذي كان يكنى بـ « أبي هاشم » ، وخالد بن عثمان مولى خزاعة الذي كان يكنى بأبي اسحق ، وأبو مسلم الخراساني ، وسواهم كثير . أما قوله بأن « أنسابهم القرى » فدليل واضح على تخليهم عن النسب بالعصبية ، واستعاضتهم عن ذلك بالولاء للجماعة المدنية المتمثلة بالقرية التي يقطنونها . وعندنا أن هذا التخلي عن العصبية القبلية وتحويل الولاء الى الحركـة السياسية الجديدة كان نتيجـة قهر اجتماعي واقتصادي كبيرين ، عاشه في تلك المنطقة عرب وغير عرب ، جعلا الشعور العصبي يتضاءل أمام الامال المعقودة على نجاح الثورة والوصول الى الفردوس الارضي

المنشود . كما أنه دليل على انصهار عرب خراسان المؤيدين لدعوة بني العباس بسواهم من سكان هذا الاقليم من أخلاط الامم الذين كانوا يؤيدون هذه الدعوة ، الامر الذي أدى الى انتساب الناس الى القرى التي يسكنون لا الى الدماء التي تجري من عروقهم .

ثالثا :

ويقودنا ما قلناه في الفقرة السابقة الى الاعتراف بأنه لا يمكن لباحث في موضوع نجاح ثورة بني العباس وسقوط حكم بني أمية ان ينكر أثر العوامل الاجتماعية والاقتصادية في نجاح هؤلاء وسقوط اولئك . كما أنه لا بد أن نلاحظ ان الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية لم تكن حال فئة الموالي فحسب في الايام الاخيرة لحكم بني أمية ، بل كانت كذلك حال الكثيرين غيرهم من العرب أيضاً . واذا ما استبعدنا بعض الفئات الارستقراطية العربية القديمة أو تلك التي نشأت وترعرعت زمن الحكم الاموي ، وفئة الدهاقين من رجال الاقطاع الفارسي القديم والتي استمر نفوذها في ظل بني أمية ، لوجدنا أن النقمة الاقتصادية والاجتماعية التي سادت بين الكثيرين آنذاك والتي ضمت العديد من رعايا الدولة عرباً وغير عرب كانت من أهم عوامل نجاح هذه الثورة التي علق عليها الناقمون آمالا عراضاً في عدالة لم يحصلوا عليها في ظل البيت الاموي . وحين فشل الحكم الجديد في تحقيق هذه العدالة ، ولا سيما لهذه الفئة المحرومة من العرب التي كانت عصب الثورة ، رفعت رايات العصيان مجدداً ، لا سيما وأن عوامل جديدة أخرى ، سنشير اليها في حينها ، جعلت البلوى تتعاظم ، فعاد الذين ثاروا بالامس لرفع الظلم ، ليثوروا مجدداً للغرض نفسه . [من أجل تفاصيل أوفى حول هذا الموضوع ، انظر كتابنا ، خلافة بني أمية ، ط . دمشق ١٩٧٢ ، ص ٣٧٣ ـ ٣٨٦] . فقد تبين لهؤلاء أن ما كان يدعيه العباسيون من انهم ثاروا « لاظهار العدل ، وانكار الجور ودفع الظلم عن الضعفاء وأخذ الحق من الاقوياء » ما هو الا ضلال لا يماثله الا ما كان يفعله أبو مسلم الخراساني حين كان يحرر الاسرى من الجيش الاموي ويعاملهم معاملة حسنة ويعيدهم الى معسكر نصر بن سيار ليحدثوا اخوانهم بما لقوا على يدي أبي مسلم وجماعته . [أخبار العباس وولده ، ص ٢٩٢] .

على أن هذا الانحراف الذي حدث في دولة بني العباس لم يكن دونما مبرر ، ويستطيع الباحث في أحوال الدولة في طور نشوئها واستقرار أمرها ان يستخرج العوامل التي حرفت الدولة عن مسار الثورة التي أوصلتها للحكم ، واوجدت الوحشة بينها وبين بعض رعاياها من العرب الذين كانوا عضداً قوياً أمدها بالدماء

والمهج حتى حققت النصر على خصومها الامويين . فلا بد اولا من ان نذكر أن القضية الاقتصادية والاجتماعية لسكان خراسان كانت ماثلة في ذهن الرواد الاوائل للحركة العباسية . وليس أدل على هذا من قول محمد بن علي في وصف أهل خراسان الذين اعتمدهم عصب ثورته : « ومـا يزالون يدالون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويؤملون » [أخبار العباس وولده ، ص٢٠٧] فهؤلاء الذين كانوا على هذا الحـال والذين انضموا للثورة بامل الخلاص ، لم يتحقق لهم الحلم الموعود . اذ ما كادت الدولة تستوي على أقدامها ، حتى وضح لهم أنها ليست الفردوس الذي حلموا به وظنوا أنهم سيتظللون أفياءه اذا ما كتب النصر لبني العباس. ومعروف أن التركيب الاجتماعي للدولة الاسلامية في عهدها الجديد ، وبعد أن ارتفع نير السيطرة العربية عن رقاب رعاياها ، غدا تركيباً لاتجانس فيه تتقسمه المطامع الفئوية والعرقية لتعمل يـد التخريب في جسد الدولة ووحدتها الساسية والاجتماعية ، هذه الوحدة التي كانت مظهراً واضحاً من مظاهر الحكم زمن بني أمية ، ولا سيما خـلال فترات القوة أيام معاويـة وعبد الملك وهشام وسواهم . وقد أدت هذه الظاهرة الجديدة الى توزع أهواء رعايا الدولة من غير العرب ، وانعدام التجانس بينهم ، واستعدادهم للاستجابة لكل صرخة أو حركة اعتقدوا ان فيها تنفيساً عن كربهم أو أمـلا بنجاتهم . وقد وصل الأمر ببعضهم الى الارتداد الى الماضي المجوسي ، ومحاولة احيـاء ماكان الاسلام قد اقتلعه من جذوره من ارث ماضيهم وموروث كفرهم . ولسنا نرى في هذه الردة موقفاًدينياً أو قومياً فحسب ، كما يحلو للبعض أن يفسره ، ولكننا نرى فيه أيضاً تعبيراً عن نقمة اجتماعية واقتصادية كانت تعتلج بقوة وشراهة فيnفوس هؤلاء المرتدين،لاسيما وانالسلطة العباسية لم تكن وفية لمبادىء المساواة والعدالة التي أطلقتها حين كانت تخطب ود المحرومين وتعد بعدالة لم تتحقق على يد الأمويين . وخير مثال على هذا الذي ندعيه ، تفحص واع لبعض أخبار الثورات التي قامت على السلطة العباسية منذ أيامها الأولى ، ومنها ثورة السودان في المدينة زمن أبي جعفر المنصور ، والتي تقدم مثلا واضحـا على ما أصاب الم..رمين من خيبة أمل في الحكم الجديد جعلهم يحملون السلاح في وجهه . والقضية كما يلخصها لنا الطبري [ج ٧ ، ص ٦٠٩ وما بعدها] أن جند عبد الله بن الربيع الذي ولي المدينة لأبي جعفر المنصور سنة خمس وأربعين ومائة أساؤوا معاملة بعض السود الذين كانوا يسكنون المدينة من أصحاب الحرف والصناعات واعتدوا عليهم اعتداءات فردية أدت الى ردود فعل فردية أيضاً أول الامر . ولما تمادى الجند العباسي في غيهم ، ولم تلق شكاوى السود

من الوالي أذناً صاغية « نفخ السودان في بوق لهم » ، أي أعطى رئيسهم اشارة البدء ، فتوجهوا اليه من جميع انحاء المدينة ، وقاتلوا الوالي في عدة مواضع منها ، وهزموه وهزموا جنده ، وانتهبوا كل ما كان في المدينة من مؤن وعتاد مخصص للجيش ، حتى لقبهم أهل المدينة بـ « السحرة والشياطين » لشدة بأسهم . وفي ثنايا الخبر الذي يورده الطبري نجد اشارات عديدة الى أعمال كان يرتكبها ممثلو السلطة العباسية ضد الفئات المستضعفة في المدينة ، كدخولهم المتاجر وأخذ الاشياء دون دفع ثمنها ، أو سرقة أموال الناس ، أو قتل بعض المساكين الذين كانوا يستجدون الناس قرب باب المسجد وما شابه ذلك . [انظر ، الطبري ، ج ٧ ، ص ١٦٠] . ونجد في الحل الذي اقترحه وثيق زعيم السود ، للازمة التي عصفت بمدينة رسول الله بعد هذه الثورة ، صورة لنوعية الحكم الذي كانت تصبو اليه عامة الناس ولم يتحقق لهم . فقد قال وثيق لمحمد بن عمران ، وهو من وجوه أهل المدينة أنذاك ، حين جاءه يسأله عما يريد بعد أن تم الأمر له وهزم الوالي العباسي وأصبح ورجاله أصحاب الامر في المدينة : « فدخل عليه ابن عمران ، قال : الى من تعهد يا وثيق ؟! قال : الى أربعة من بني هاشم ، وأربعة من قريش ، وأربعة من الانصار ، وأربعة من الموالي ، ثم الامر شورى بينهم . » . [المصدر السابق ، ص ٦١٢] . وفي هذا الرد ما يوضح خيبة الامل التي أصيبت بها العناصر المستضعفة من الحكم الجديد ، وعدم رغبتها في أن يكون الامر لها ، كما أن فيـــه ما يؤكـد بأنها تقر لاهل الفضل بفضلهم ، ولا تحيد عن مبدأ الشورى الذي طرحه الاسلام أساساً للحكم .

واذا حاولنا تتبع جميع الحركات التي قامت في العصر العباسي الاول واعتبرت في عرف العديد من المؤرخين بأنها حركات عرقية معادية للعرب ، ودرسنا تفاصيل أحداثها لوجدنا فيها ، الى جانب العوامل العرقية والقومية ، روائح نقمة اقتصادية واجتماعية عملت على جذب أعداد كبيرة اليها . وقد جرت عادة المؤرخين الذين يجنحون الى التفسير العنصري ان يجعلوا نقطة البــدء في هذا النوع من التحركات مقتل أبي مسلم الخراساني ، ويتحدثون عن حركة سنباذ ، الذي خرج بخراسان بعد مقتل أبي مسلم سنة ١٠٧ هـ مباشرة للطلب بدمه . ان حركة سنباذ الذي تزعم المصادر أنه كان مجوسياً ومن أتباع أبي مسلم والتي انتشرت في نيسابور وقومس والري، تطرح العديد من القضايا والتساؤلات التي لانجد في مصادرنا اجابات عليها ، ومن ذلك مثلاً :

١ ــ النص في المصادر على مجوسية سنباذ ، وتبعيته في نفس الوقت لأبي مسلم [يقول الطبري ، ج ٧ ، ص ٤٩٥ : « وذلك أنه كان من صنائعه . »] ، وابو مسلم داعية آل البيت ورافع رايتهم ؟!

٢ ـ سرعة استجابة الناس له وتكاثرهم حوله وسيطرته على رقعة واسعة من الارض رغم أن الفترة بين مخرجه ومقتله لاتزيد على السبعين يوما فقط حتى بلغ من قتل من رجاله نحوا من ستين ألفا .

٣ ـ كانت خزائن وأموال ابي مسلم المحور الرئيسي في الحركة . فقد كان الهم الاول لسنباذ الاستيلاء عليها ، ولما قتل على يد القائد العربي جَهْوَر بن مرّار العِجْلي الذي ارسله المنصور لاخماد الحركة ، كان هم هذا القائد كنوز أبي مسلم أيضاً ، اذ استولى عليها لنفسه وامتنع عن ارسالها الى الخليفة وانضم اليه في عصيانه « نُخَب فرسان العجم » [المصدر السابق ، ص ٤٩٧] . وهكذا استوى العرب والعجم في حرصهم على نهب المال وفي الثورة على السلطة العباسية .

٤ ـ أخذ سنباذ معه حين خرج عدة من النساء المسلمات الحرائر كان قد سباهن وأركبهن الجمال ، ووضعهن أمام عسكره حين هاجمه الجيش العباسي . [انظر ، ابن الطقطقي ـ الفخري في الاداب السلطانية ، ط . مكتبة محمد علي صبيح ، ص ١٣٨] . ولست أجد تفسيرا لهذه الفعلة سوى أنه اراد ان يبالغ في اهانة الحرائر المسلمات انتقاما للاماء من بنات جنسه اللواتي كن يسبين من قبل العرب ، وفي هذا رفض اجتماعي وعرقي للسيادة العربية .

وتتوضح هذه الصورة بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية تارة ، والعرقية تارة أخرى عند استعراضنا للحركات المماثلة التي حدثت في هذا الدور . فالراوندية الذين خرجوا زمن أبي جعفر المنصور ، كانوا من أهل خراسان ، وعلى رأي أبي مسلم صاحب دعوة بني هاشم . ولكنهم وبعد مقتل أبي مسلم جهروا بقولهم بتناسخ الارواح ، وزعموا أن روح آدم حلت في عثمان بن نَهِيك ، (وهو أحد القادة الذين كان يعتمدهم ابو مسلم أثناء عمله في خراسان لانجاح الدعوة ، وكان رئيس حرس المنصور ، وهونفسه الذيأوكل اليه المنصور بعدذلك قتل أبي مسلم . وشارك بسيفه مع أربعة آخرين من رجال الحرس في قتل ابي مسلم) ، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو ابو جعفر المنصور (قاتل ابي مسلم) ، وأن الهيثم بن معاوية جبرائيل ، (الهيثم هذا هو أحد خلّص المنصور ، وكان واليه على مكة والطائف) . وقبل أن نستمر في سرد أحداث هذه الحركة نستطيع أن نلمس الشر الذي كانت تخفيه من الوقوف عند هذا الحد المعلن من مبادئها : فأبو جعفر المنصور ، قاتل أبي مسلم : هو ربهمالذي يطعمهم ويسقيهم وعثمان بن نهيك ، أداة تنفيذ القتل ، حلت فيه روح آدم ، والهيثم بن معاوية

ثقة أبي جعفر وواليه على مكة والطائف ، هو جبريل . كل هذا ، والسبب الذي أعلنوه لخروجهم هو الثأر لمقتل أبي مسلم . وفي هذه الوقائع ما يكفي لان يكون المؤشر الواضح لما كان يكتنف هذه الحركة من ريبة وشك لايدافع عنهما .

واذا انتقلنا الى أحداث الحركة والذعر الذي أصاب أبا جعفر بعد قيامها وتوليه بنفسه ماشياً ، دونما دابة يركبها ، أمر ملاحقة أصحابها وقتلهم ، ثم استعانته بألد أعدائه ، معن بن زائدة الشيباني ، الذي كان مختفياً لما كان من قتاله المسودة مع ابن هبيرة ، وهو اليوم لا يجد من يلجأ اليه لقتال هذه الفئة المرتدة سواه ، ويعلل لجوءه اليه قائلا ان معن بن زائدة **« رجل من العرب ، شديد النفس ، عالم بالحرب ، كريم الحسب »** . [الطبري ، ج ٧ ، ص ٥٠٧] .

وعثمان بن نهيك الذي « حلت فيه روح آدم » ، على حد زعم الراوندية ، كان أول ضحاياهم ، ولولا وقفة معن بن زائدة منافحا عن أبي جعفر المنصور ، لما سلم من غدرهم ، وقد أكرم المنصور معنا أيما اكرام ، وأفسح له مكاناً الى جانبه على مائدة العشاء ، بعد اخماد الحركة ، وقال لجلسائه على تلك المائدة يصف معنا : « انه من أشد الرجال ، وانه من تلك الآساد » وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وولاه اليمن .

من هذا كله ، تتضح أمور عدة ، لعل أهمها :

١ ــ الخلاف في الهوية العرقية بين الراوندية ومن والاهم ، وابي جعفر المنصور ومن وقف يدافع عنه ، فقد كانت ثورة الراوندية ثورة عجم آلمهم وأمضهم مقتل رجلهم الاول أبي مسلم الخراساني ، وكان الذين وقفوا الى جانب أبي جعفر ، سادة عرب ، ذابت الخلافات السياسية بينهم (معن والمنصور مثلاً) وتوحدوا في جبهة عربية موحدة .

٢ ــ حاول القائمون على الحركة الانسلال الى أهم ركيزة من ركائز الدولة ، وهو دينها ، وتزييف بعض الشعارات الاسلامية ، كالقول بتناسخ الارواح ، وربوبية أبي جعفر ، وتقمص جبريل في الهيثم بن معاوية وسواها ويبدو أن المنصور لم يكن في أول الأمر على بينة من أهداف الحركة ومراميها ، حتى أنه حين أبلغه أحد خاصته بأنهم يقولون بأن المنصور هو رب العزة ، وهو الذي يطعمهم ويسقيهم ، أجاب الرجل قائلاً : « يا هذلي ، يدخلهم الله النار في طاعتنا ويقتلهم ، أحب الي من أن يدخلهم الجنة في معصيتنا » [الطبري ، ج ٧ ،

ص ٥٠٧] . على أن هذا الموقف من جانب ابي جعفر سرعان ما تبدل . ولا سيما حين ادرك أن ما يقولون بألسنتهم ما هو الا تزييف قبيح لما في نفوسهم من نقمة على الاسلام ، مصدر عزة العرب ومرتكز سيادتهم ، فحاولوا أن يأخذوا بظاهره لينسفوا جوهره ، ولكن اللعبة ما لبثت أن انكشفت لابي جعفر ، وكان ما كان من قتلهم وافنائهم .

على أن حركة الراوندية تظل رمزاً بما حملته من مظاهر ثلاثة توافرت فيما سبقها وما سيتلوها من حركات :

١ ـ هويتها الخراسانية .

٢ ـ حقدها الدفين على العرب .

٣ ـ حربها على الاسلام ومحاولة تشويه مبادئه وتزييفها من الداخل .

وهنا لا بد لنا أن نلاحظ ، أن خراسان لم تكن في هذه الفترة من تاريخها خالصة لبني العباس ، بل كان لشيعة علي بن أبي طالب فيها دعاة ورجال يكيدون لبني العباس ويحاولون استمالة الناس اليهم . [انظر ، الطبري ج٧ ، ص٥١٩]. وقد زاد هذا الصراع العباسي الشيعي ضعف الموقف العربي فيها ، كما زاد من الفوضى العقائدية الاسلامية ، في بقعة لم يكن ولاؤها في الاساس خالصاً للاسلام .

واذا استعرضنا اهم الازمات التي كانت تواجهها الدولة في هذه المرحلة من تاريخها فيما كان يعرف باسم بلاد ما وراء النهر ، لوجدنا أنه لم يكن يمر يوم دونما انتفاضة في اقليم من الاقاليم أو مدينة من المدن ، أو دونما ثورة يحركها زعيم محلي ، وحتى القادة والولاة الذين كانت ترسلهم الدولة ليمثلوها في تلك الاصقاع ، كانوا ، وبعد مرور فترة قصيرة على تسلمهم السلطة ، يرفعون رايات العصيان وتغريهم الاطماع الشخصية على اعلان الانفصال عن جسد الدولة . وكان هم الدولة اليومي هو وضع حد لهذه الحركات والثورات والانتفاضات . الامر الذي جعلها تنزف نزيفاً دائماً ، وما تكاد تسد خرقاً حتى تواجه بخرق أدهى وامر . اذا أضفنا الى كل ذلك ، أن الغالبية العظمى من سكان تلك الاصقاع لم يكونوا قد أسلموا بعد ، أو ان الكثير ممن اسلم منهم كان ايمانه اما ضعيفاً أو مشوهاً لاختلاطه بالعقائد المحلية القديمة ، لوجدنا أن الارض كانت مهيأة لهذا النوع من المشاكل التي شغلت الدولة على الدوام . وقد زاد هذا الوضع حدة ، السيرة السيئة للعديد ممن وسدت اليهم القيادات والولايات في تلك

الاصقاع، كما أن أطماعهم بما تفيض به تلك البلاد من خيرات وتسخيرهم لطاقاتهم وسلطانهم لجني اكبر ما يمكن من كسب ، كانت كلها عوامل في جعل هذه المنطقة منطقة تفجر دائم ، ومخزن حقد لا ينضب على الذين كانت تدار الدولة باسمهم، الا وهم الخلفاء العباسيون .

ان اهم ما يلاحظه المتتبع لاحداث هذه الفترة من فترات تاريخنا ، هو هذا الفارق الكبير بين الاهداف التي أعلنتها ثورة بني العباس على أسلافهم من بني أمية ، وبين التطبيق العملي لهذه الاهداف في السياسة اليومية وفي الاطار العام لسياسة الدولة . ولنبدأ بقضية العداء بين بني العباس وبني هاشم ، وما كان من موقف أبي جعفر المنصور من محمد (النفس الزكية) وابراهيم ، ابني عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن ابي طالب ، مروراً بثورة الحسين بن علي بن الحسن ، وثورة ادريس بن عبد الله واخيه يحي ونهاية موسى الكاظم على يد الرشيد ، حتى نصل الى مقتل محمد بن القاسم العلوي الذي كان يدعو الى الرضا من آل محمد والذي بدأ دعوته في الكوفة ثم انتقل الى الطالقان ، وكانت بينه وبين جيش المعتصم معارك دامت حتى سنة ٢٢٠هـ ، وانتهت بموته مسموماً على أغلب الظن ، وظل أتباعه في الكوفة وطبرستان والديلم وخراسان يقولون بأنه حي ولم يمت وانه المهدي الذي لن يلبث أن يخرج ليملأ الارض عدلاً بعد ما عمها الجور والفساد ، وظلت ذيول حركته قائمة حتى سنة ٣٣٤ هـ . هذه الحركات وما تمثله من طعنة في صميم ما أعلن من اهداف الدعوة العباسية (الدعوة الى الرضا من آل محمد) كانت دونما شك عامل هدم خطير في جسد الدولة من جهة ، وملجأ لكل ثائر على سياسة البيت العباسي من عرب ، وعجم على الخصوص ، من جهة أخرى . فاذا كانت الدعوة التي أعلنت باسم الرضا من آل محمد ، قد انتهت بخيانة هذا المبدأ الاول وملاحقة فئة كريمة من هؤلاء الآل تحظى بتأييد العديد ممن ساندوا الدعوة وبذلوا دماءهم في سبيلها ، فانه من الطبيعي ان يجد أعداؤها ممن يؤيد آل هاشم ، متنفساً في كل تحرك يقوم ضدها ، فيسرعوا الى مساندته ومده بالدعم المادي والمعنوي ، لا سيما وأن اجماع كتاب التاريخ والفرق ينعقد على ان أصل الحركة العباسية يرجع الى الكيسانية والهاشمية ، من اتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي وابي هاشم الذي عهد الى ولد عبد الله بن عباس ، أولاد عمومته ، بالامر من بعده ، بعد حادث السم المزعوم ولجوئه الى الحميمة . وحتى نقطع الطريق على ما تفرق حوله الراي من أسباب عهد أبي هاشم الى محمد بن علي العباسي وجعله اياه اماماً

للحركة السرية الهاشمية ، فاننا نقول بأن في هذا العهد ما يؤكد صدق القائمين الاوائل على هذه الدعوة في تحركهم ضد بني أمية وشعورهم بوحدة آل البيت ، فان أبا هاشم صاحب الدعوة رغم انتسابه الى الفرع الهاشمي لم يجد حرجاً في أن يعهد بالامر حين شعر بدنو أجله الى أبناء عمومته من آل العباس ، وبشكل خاص الى محمد العباسي ، لانه أخذ العلم عن أبي هاشم نفسه . ورغم وجود أقرباء لابي هاشم من العلويين ، ولكن تفرق رأيهم وما كان بينهم من تنافس على زعامة الشيعة العلوية وخصومة على ولاية ارث علي وفاطمة ، كانت كلها أسباب جعلته لا يتحرج من اسناد الزعامة الهاشمية الى شخصية غير علوية ، وهو محمد العباسي ، الذي حول المنظمة الهاشمية الى منظمة عباسية . وما لبث أعقابه ، ومن آل اليهم الامر من بعده من أفراد أسرته أن جعلوا همهم الاول القضاء على ابناء عمومتهم من آل علي ، أصحاب الدعوة الاول ، وشركاؤهم في النسبة الى آل البيت .

وسار العباسيون بعد أن غدوا أصحاب السلطان شوطاً أبعد في التنكر لشعارات ثورتهم ، اذ انهم وجدوا أن اعتمادهم في اثبات حقهم على وصية أبي هاشم يجعلهم يظهرون وكأن المبرر الوحيد لوجودهم هو ارتباطهم بآل علي وأن حقهم في ولاية أمور المسلمين مرتبط بقرابتهم لابناء علي فقط ، وهذا مالا يقيم لهم دولة ، ويجعل آل علي ، وهم أحياء يرزقون ، أحق بارثهم عن أبيهم . كما أن ارث الكيسانية يفضح ارتباطهم بحركات الغلو والتطرف والسرية ، وهم يودون كسب ود الفقهاء وعامة الناس ، ويودون بناء دولة لهم تقوم على أساس من حق عمومتهم لرسول الله من جهة ، وثورتهم على « أهل الجور » أي الامويين ، وما يستتبع ذلك من عدالة ومنع للظلم وارساء لقواعد الشرعية والسنة النبوية ، من جهة أخرى . وهكذا غدا الاساس الديني لدعوى الحق العباسي في الحكم هو أن العباس عم الرسول (ص) وأنه وريثه بعد أن انتقل الى جوار ربه . وسار العباسيون في عملية التحويل هذه بخطى وئيدة استمرت منذ عهد ابي هاشم الى محمد العباسي ، وحتى خلافة المنصور . ففي خطبة للسفاح يذكرها الطبري والدينوري والمسعودي وسواهم من المؤرخين يتحدث السفاح عما خص به الله آل عباس من صفات وألزمهم من واجبات فيقول . « وألزمنا (أي بني العباس) كلمة التقوى ، وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله (ص) وقرابته وأنشأنا من آبائه وانبتنا من شجرته » . [الطبري ، ج ٧ ، ص ٤٢٥] . كما يؤكد الحقيقة ذاتها داوود بن علي فيقول . وبنفس المناسبة : « الحمد لله ، شكراً شكراً شكراً ، الذي أهلك عدونا وأصار الينا

ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم » . [الطبري ، ج ٧ ، ص ٤٢٦] .
واستمر الموقف العباسي حيال هذا الامر فترة ليست بالطويلة ، كان الامر يطرح فيها تلميحاً حيناً ، وتصريحاً أحياناً أخرى حتى كانت خلافة المنصور الذي كشف كل قناع ، وأعلنها صريحة لا لبس فيها أن الامر لآل العباس وليس لسواهم من آل البيت ، اذ أنه في مراسلاته مع محمد النفس الزكية الذي كان أقوى المرشحين العلويين للخلافة في زمنه والذي أعلن الثورة عليه ، دخل في حوار طويل حول احقية ارث النبي وقال في رسالة له الى النفس الزكية رداً على ادعاء هذا الاخير بأن الحق لآل علي وفاطمة : « وأما قولك انكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان الله تعالى يقول في كتابه (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم) ولكنكم بنو ابنته ، وانها لقرابة قريبة ، **ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية »** . ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الام والخال والخالة لا يرثون » . الى أن يقول له في نفس لرسالة : « ... ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره (أي غير العباس) ، فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هذا الامر غير واحد من بني هاشم فلم ينله الا ولده ، فالسقاية سقايته وميراث النبي له ، والخلافة في ولده ، ولم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا اسلام في دنيا ولا آخرة الا والعباس وارثه ومورثه » . [الطبري ، ج ٧ ، ص ٥٧٠ ــ ٥٧١] . حتى أن بعضهم يذهب الى حد القول بأنه سمى نفسه « المنصور » بعد انتصاره على العلويين [انظر ، فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ١١٩] . كما شجع الشعراء على نظم أشعار تمجد حق آل عباس في خلافة رسول الله وامرة المؤمنين ، وروجت أحاديث نبوية لنفس الغاية . وهكذا فقد خاض العباسيون معركة سياسية وفكرية ضد العلويين خلال الدور العباسي الاول بكامله وسخروا لها رجالات الفكر والعقيدة وألفت كتب تتناول مواضيع تمس هذا الامر مساً مباشراً أو غير مباشر . ولا أريد أن أطيل حول هذا الموضوع ، ويكفي ان نعود بذاكرة القارىء الى خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد حين كانت سلطات دمشق تراقب بعين الشك والحذر تحركات علي بن عبد الله بن العباس الذي كان يمارس نشاطاً سياسياً سرياً جعل الوليد بن عبد الملك يضطر الى سجنه وضربه بالسياط ونفيه الى الشراة ، فاتخذ الحميمة مقراً له . أقول ، يكفي أن نعود بالذاكرة لهذه الاحداث ، وسواها كثير بعد ذلك ، لنقرر أنه كان لآل العباس أطماع ومطامح سياسية ، و ن الفرصة لاحت بعد عهد أبي هاشم ووصيته لمحمد العباسي .

واذا تركنا هذا المظهر الأول من مظاهر مخالفة العباسيين للأهداف المعلنة لثورتهم من حيث علاقتهم بآل البيت من العلويين ، وانتقلنا الى أمر آخر من الأمور المعلنة في خطة الثورة العباسية وأهدافها ، وهو الاعتماد على العنصر العربي ، والذي يتجلى في قول أبي مسلم الخراساني : « أمرني الامام أن انزل في أهل اليمن ، واتألف ربيعة ، ولا ادع نصيبي من صالحي مضر ، وأحذر اكثرهم من اتباع بني أمية ، واجمع الي العجم » . [أخبار العباس وولده ، ص ٢٨٥] ، وقوله : « قد أمرنا الامام باختصاص اليمن » . [المصدر السابق ، نفس الصفحة] ، هذا فضلاً عن النقاش الطويل الذي دار بين باحثين متخصصين حول هوية الثورة العباسية ، والذي جنح فيه باحثون محدثون من امثال فاروق عمر وعبد الحي شعبان وسواهما الى القول بأن جهد الدعاة العباسيين في خراسان كان موجهاً بصورة رئيسية للعرب : مقاتلتهم ومستقريهم . « فقد كان هناك دعاة عباسيون في قرى مرو حيث استقر العرب ، وفي كل مدينة فيها حامية عربية . لقد أدرك الدعاة بأن العرب وحدهم مصدر السلطة والقوة الضاربة الوحيدة في خراسان ، ومن أجل الوصول الى السلطة يجب أولاً كسبهم الى الدعوة العباسية » . [فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٩٨] ، و « أن سند أبي مسلم الرئيسي جاء من العرب المستقرين في مرو وضواحيها ، الذين ادركوا بأن لا مفر من الثورة من أجل تغيير جذري لا في خراسان وحدها ، بل في كل الامبراطورية » . كما يقول عبد الحي شعبان . [انظر ، المصدر السابق ، ص ٩٦] . وكان جهد هؤلاء الباحثين منصباً على تغيير التفسير العنصري الذي قال به فان فلوتن وسواه ، وكان يرى في هذه الثورة ثورة عنصرية ايرانية ضد السيادة العربية في الدولة ، ومحاولة منهم لابراز دور عرب المشرق في هذه الثورة . وسأترك الجانب الاجتماعي والاقتصادي من نظريتهم الى فقرة لاحقة ، لانطلق من هذا المنظور القومي العربي للعناصر التي قامت بالثورة ، واناقشه في ضوء الاحداث السياسية التي طبعت هذا الدور العباسي الأول بطابعها .

ان الباحث المدقق في الاحداث السياسية لهذا الدور يلاحظ قيام العديد من الثورات ذات الهوية العربية بقادتها ورجالاتها ومضمونها . وكأن الذين قاموا بهذه الثورات ، على كثرتها وخطورتها في فترة زمنية قصيرة ، كانوا يرون في حكم بني العباس حكماً لم يف بوعوده للعنصر العربي الذي كان عماد ثورتهم ، ففي الفترة الاولى من حكم هذه الأسرة ، كان طبيعياً أن تثور الشام رغم القهر والقمع الشديدين اللذين تعرضت لهما ، ولكن الأمر تجاوز ذلك بعد فترة قصيرة

ليغدو شعوراً عاماً ينتظم جميع القبائل القيسية التي شعرت أن الحكم العباسي يحابي اليمانية على حساب القيسية ولا يقيم للتوازن القبلي حساباً . ثم ما لبث الأمر أن غدا على خلاف ذلك ، فانحسرت الثورات القيسية لتحل محلها ثورات يمانية ، على الرغم مما بين اليمانية والثورة العباسية من حلف اكدته جميع مصادرنا . ورغم أنه لا يدخل في نطاق هذه الدراسة التي تأخذ بالتعميم لا بالجزئيات ذكر تفاصيل هذه الثورات ، فلا اقل من أن نذكر أن اهمال شأن العرب في الدولة غدا من السمات المميزة للعمل السياسي الى الحد الذي دعا قيساً ويمناً الى الثورة على السلطة العباسية في كل مرة تسنح فيها الفرصة وتتعاظم الشكوى . فكانت ثورة نصر بن شبث العقيلي عام ١٩٨ هـ والتي بررها بقوله انه لا يكره بني العباس وانه لا يقاتلهم الا لأنهم انحرفوا عن العرب واعتمدوا على الأعاجم . وكذلك الحال بالنسبة للثورة التي قامت في حوران والبثنية زمن عبد الله بن علي وثورة أبي الورد والسفياني في حمص وتدمر وحلب وشمال الشام ، وثورة الجزيرة برئاسة اسحق بن مسلم العقيلي ، وثورات دمشق التي استمرت حتى خلافة المتوكل عام ٢٤٠ هـ ، وثورات لبنان وحمص التي لعب فيها البيزنطيون دوراً محرضاً ودامت حتى خلافة المتوكل ، وثورات فلسطين والأردن التي توجتها حركة المبرقع اليماني عام ٢٢٦ هـ التي انضم اليه فيها ما يزيد على المئة الف رجل ، واستمرت حتى خلافة المعتصم .

ان استقراء أسباب وأحداث هذه الثورات يوضح انها بدأت منذ الأيام الأولى لانتقال السلطة لبني العباس ، وأن اسبابها المباشرة كانت مخالفة السلطة العباسية الجديدة لما أعلنته من مبادىء . ويتجلى هذا الذي ندعيه فيما نقرأه في كتاب العيون والحدائق عن ثورة شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم الخراساني سنة ١٣٣ هـ . يقول صاحب العيون والحدائق : « وفيها (أي في العام ١٣٣ هـ) خرج شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم ببخارى ، وقال : ما على هذا بايعنا آل محمد ، على أن تسفك الدماء ، ويعمل بغير الحق ، وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين الفاً ... وخرج جماعة على أبي مسلم فقاتلهم بعد حروب كثيرة » . [العيون والحدائق ، ج ٣ ، ط . المثنى ، بغداد ، ص ٢١١]. وقد أهمل بعض الباحثين المحدثين أمر هذه الثورات العربية في الدور العباسي الأول وظنوا أنها لم تقم الا في بلاد الشام ، وانها كانت تعبيراً عن نقمة « أهل الشام على العباسيين بسبب حرمانهم من المكاسب التي كانت لهم في عهد الخلافة الأموية » و « لابتعاد مركز الخلافة عن دمشق » . [انظر ، امينة بيطار ، دراسات في تاريخ العصر العباسي ، ط . دمشق ١٩٨٠/١٩٨١ ، ص ٧١ — ٧٢] . ولكن

تتبع الاحداث واستقصاء ما في مصادرنا من اخبار يظهر أن هذه الثورات كانت لا تقتصر على الشام فحسب ، بل تقوم في أغلب أصقاع الدولة الاسلامية . فهذه ثورة الأمير أحمد بن محمد العمري المعروف بالأحمر العين ببلاد اليمن [انظر ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ، وانظر أيضاً الطبري والبلاذري] ، وهذه ثورات واضطرابات الحجاز واليمامة التي قام بها بنو سليم من قيس عيلان وبنو هلال وبنو مرة وفزارة وغطفان ، وسواهم من القبائل العربيـة التي شغلت الخلافة العباسية ردحاً طويلاً من الزمن خلال حكم الواثق وبعد أقل من قرن على تسلم بني العباس السلطة [انظر أحداث خلافة الواثق في الطبري وابـن الأثير وسواهما] ، وكانت كلها تعبيراً عن النقمة العربية على التوجه الفارسي للدولة وانحسار سلطان العرب عنها . وهذا هو نصر بن شبث سيد بني عقيل ورافع راية العروبة مع الأمين يقولها مجلجة لرسول المأمون اليه حين جاءه يطلب اليه أن يقلع عن ثورته بعد مقتل الأمين ويضع السلاح الذي شهره في وجه الدولة لما رآه من تنكرها للعنصر العربي وميلها الى الفرس : « فصاح (اي نصر) بالخيل صيحة فجالت ، ثم قال : ويلي عليـه ! (أي على المأمون) ، هو لم يقـو على اربعمائة ضفدع تحت جناحـه ــ يعني الزط ــ يقوى على حلبـة العرب » . [الطبري ، ج ٨ ، ص ٥٩٩] .

ولم تكن مصر أقل تحسساً لهذه الوحشة التي قامت بين خلفاء الدور العباسي الأول وأصولهم العربية ، فقامت فيها ثورات عربية كان أكبرها وأكثرها خطراً ثورة عبيد الله بن السري بن الحكم زمن المأمون ، مما اضطر هذا الخليفة لأن يعهد بقمعها لأمهر قواده عبد الله بن طاهر ، وكافأه على نجاحه في القضاء عليها بتوليته مصر . [انظر اخبار هذه الثورة في ، الطبري ، ج ٨ ، ص ٦٠٩ وما بعدها] . وهكذا فان العنصر العربي الذي كان عماد الثورة العباسية على ما تذكر المصادر الأولية والدراسات الحديثة ، وجد نفسه يتراجع الى المحل الثاني في الدولة ، الأمر الذي دعاه الى اشهار السيف في أكثر من مناسبة محاولاً رد الأمور الى نصابها ، واحتلال المكانة لتي لم تعط له منذ اليوم الأول لوصول العباسيين للسلطة . ولن يطول الأمر بالعنصر العربي حتى يبعد نهائياً عن المسرح السياسي وتدال دولته ما قام للعباسيين أمر ، وسيحل محله كما هو معروف، ومنذ خلافة المعتصم ، العنصر التركي ، ثم سواهم من شعوب غير عربية كالديلم والسلاجقة وسواهم .

وعندي أن هذا الذي آل اليه حال العرب في دولة بني العباس كانت له بوادره وما يدل عليه منذ الأيام الاولى للثورة ، وقبل أن تحقق نصرها على بني

أمية . فرغم انضمام بعض عرب المشرق اليها واندفاعهم في نصرتها ، فقد شعروا ، ومنذ ولاية نصر بن سيار على خراسان ، وقيام أبي سلمة الخلال بالأمر لبني العباس في مرو ، بأن دورهم لن يكون الا ضئيلاً وثانوياً . « فاضطرب أمر العرب بخراسان ، وتعصبوا وتحزبوا واقتتلوا وهم متحيرون » كما يقول صاحب كتاب « أخبار العباس وولده » [ص ٢٤٨] . وهكذا ، فالريبة قديمة والشك قائم في نفوس العرب منذ تلك الفترة المبكرة ، وجاءت تصرفات وأفعال من وسدت اليهم الأمور من آل العباس ، لتؤكد هذا الشك . فكانت الثورات العربية للأسباب التي أوضحنا ، وعلى النحو الذي أسلفنا ، حتى بلغ الأمر ببعضها الى اعلان الاستقلال بما تحت أيديهم من أرض وجباية الخراج وتعيين الوزراء ، كما كان الحال في ثورة نصر بن شبث سيد بني عقيل التي سبقت الاشارة اليها . [انظر ، ابن أعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، ج ٨ ، ط . حيدر أباد ، ١٩٧٥ ، ص ٣١٢ ـ ٣١٣] .

واذا ما انتقلنا الى الميدان العقائدي ، فقد أعلنت الثورة العباسية في أكثر من مناسبة ، وعلى لسان أكثر من زعيم من زعمائها ، منذ الفترة السرية وحتى آلت اليها السلطة خالصة لا ينازعها فيها منازع ، أن الثورة انما قامت لتقاتل « قوماً حرفوا كتاب الله وبدلوا دينه ، وتولوا عن أمره » [فتوح ابن أعثم الكوفي ، ج ٨ ، ص ١٧١] ، كما أنها عازمة أصدق العزم « على اتباع كتاب الله وسنة نبيه » ، وندد زعماؤها « بأهل الجور » (أي الأمويين) الذين « فشلوا في تطبيق مبادىء العدالة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . وهكذا فقد تبرأ العباسيون من كل العناصر ، وخاصة المتطرفة منها التي ساندتهم في ثورتهم » [فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ١١٧] . ولكن هذا الادعاء لم يدم طويلاً ، وجاءت الأحداث في هذا الدور لتثبت أن الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ، لم يكن الأمر المطبق دائماً ، ولا سيما حين آلت الخلافة الى المأمون الذي نستطيع أن نعتبر فترة حكمه بداية مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الاسلامي اتسمت بسمات ظاهرها الحرية الفكرية ، ولكنها كانت حصيلة مخاض فكري طويل ، وثمرة طيبة حيناً ، وخبيثة حيناً آخر ، من ثمار التلاقح الفكري بين الأمم المختلفة التي عاشت على أرض الدولة الاسلامية وحملت معها إرثها الفكري وما تحصل لها من سالف حضاراتها ودياناتها ، كما حملت أحقادها القديمة ورغبتها في الانتقام من هذا الدين الذي أعز العرب وأشاد لهم دولة وحضارة ورثت دولهم وحضاراتهم .

وطبيعي أن الخلفاء العباسيين الأوائل كانوا أكثر التزاماً بالقواعد والأصول من أولئك الذين تلوهم . فهذا المهدي وابنه الهادي يشهران السيف في وجه

حركة الزندقة التي أخذت تستشري منذ زمن المهدي ، ويقتلان دون رحمة من يتناهى اليهما أنه من أصحاب ماني . وكانت وصية المهدي لابنه الهادي : « يا بني ان صار الأمر لك ، فتجرد لهذه العصابة فانها تدعو الناس الى ظاهر حسن ... ثم تخرجها الى عبادة اثنين ، احدهما النور والآخر الظلمة .... فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها الى الله لا شريك له ، فاني رأيت جدك العباس في المنام ، قلدني سيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين » . [المرتضى ، ذكر المعتزلة ، ص ٣١] . وحين آل الأمر الى الرشيد منع الجدال في الدين وحبس أهل علم الكلام . ولكن الحال تغيرت زمن المأمون ، فأطلق القول وفسح في المناظرات وشارك بشخصه في مجادلة الفقهاء ، حتى انه كما يقول صاحب العقد الفريد ، كان يوسع صدره للمرتدين عن الاسلام ويستعمل الحجة بعد الحجة حتى يرجع بهم اليه . [العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٢٥٥] . ثم ما لبث أن التزم مبدأ المعتزلة وقال بخلق القرآن ، وابعد عن دواوين الدولة وشد بالحديد من خالف رايه ، وأخذت المحنة الفكرية تسد على الناس سبل بقائهم ومعاشهم. وظل الحال كذلك طيلة خلافته وخلافة من تلاه حتى عهد المتوكل . ويصل التناقض أوجه حين ترى الاضطهاد والسجن وحتى الموت كان قدر كل من لا يقول بخلق القرآن مهما علت منزلته ، أما المجوس مثلاً ، فكان لهم أن يعارضوا ويو قاحة علماء المسلمين من أمثال الجاحظ الذي يحدثنا فيقول : « وقد عارضني بعض المجوس وقال : فلعل أيضاً صاحبكم (يقصد الرسول صلوات الله عليه) انما توعد أصحابه بالنار لأن بلادهم ليست ببلاد ثلج ولا دَمَق ، وانما هي ناحية الحَرور والوَهَج والسموم ، لأن ذلك المكروه أزجر لهم » . ويرد عليه الجاحظ رداً علمياً حول تنوع أقاليم بلاد العرب وأن فيها الحار والبارد الذي تتجمد مياهه بسبب شدة برودته في فصل الشتاء ، الى أن يقول له الجاحظ « .... وحجة أخرى على المجوس ، وذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو كان قال : لم أبعث الا الى أهل مكة ، لكان له متعلق من جهة هذه المعارضة ، فأما وأصل نبوته والذي اليه مخرج أمره ، وابتداء مبعثه الى ساعة وفاته أنه المبعوث الى الأحمر والأسود ، والى الناس كافة ... فلم يبق أن يكون مع ذلك قولهم معارضة ، وأن يعد من باب الموازنة » . [الجاحظ ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٥]. وفي هذا النص ، وهو واحد من كثير جداً في هذا الباب ، ما يوضح الحرية التي كان يتمتع بها مجوسي يشتم الرسول الأعظم ودين الاسلام ، في حين أن الذي كان لايقول بخلق القرآن يتعرض لاقسى المحن والويلات مهما علت منزلته وسما قدره . ويبدو أن شخصاً كالجاحظ قد مر في موقفه من هذا الأمر بمرحلتين :

مرحلة أولى ظن فيها أن هذا النقاش والجدال دليل حرية فكرية ووسيلة لتنشيط الفكر الناقد الخلاق ، فدعا المفكرين المسلمين الى الأخذ بهذا النهج واتباعه سبيلاً في تنبيه الاذهان اذ يقول : « وينبغي أن يكون سبيننا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا ، على أنا وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكثر مما وجدنا ، فما ينتظر العالم باظهار ما عنده ؟ رما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ؟ وقد أمكن القول وصلح الدهر ، وخوى نجم التقية ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم » . [الحيوان ، ج ١ ، ص ٤٣] . وهذه المرحلة كانت في الفترة الأولى من حكم المأمون على أغلب الظن . ولكنه ما لبث أن اكتشف سوء نوايا هؤلاء المتسترين بحرية الفكر ، فانتقل الى المرحلة الثانية التي رأى فيها أن الاغراق في هذه الحرية سيؤدي بالضرورة الى استشراء الزندقة في جمهرة المسلمين وكثرة تفرقهم وتشرذمهم واندساس أصحاب الغرض بين صفوفهم ، وأدرك أن هذه الحرية استغلت أشنع استغلال ممن يريدون القضاء على العرب والاسلام معاً وافساد الناس . وقد وصف هذا الذي حدث في المجتمع في عصره بقوله : « وقد ترك هذا الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانباً ، وأعرضوا عنه صفحاً ، فليس الا : لا أو نعم . الا أن قولهم لا ، موصول منهم بالغضب ، وقولهم نعم ، موصول منهم بالرضا ، وقد عزلت الحرية جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن » . [الحيوان ، ج ٧ ، ص ٣] . ووجد أن ذلك لم يكن صدفة ، وانما أمر تعمده المتعمدون في اشاعة الزندقة . فقال في أولئك الذين روجوا له بين صفوف العامة : « يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالاسناد من رواياتنا ، والمتشابه في كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ،وحتى مع ذلك ربما تبرؤوا الى علمائنا وأهل الاقدار منا ، ويشغبون على القوي ، ويلبسون على الضعيف . . . » . [رسائل الجاحظ على هامش الكامل ، ج ٢ ص ١٧٤] .

وعندي أن في كلام الجاحظ هذا صورة صادقة لهذا الانحراف الفكري الذي تناول أسس العقيدة فعمل فيها تخريباً وتشويهاً بقصد خبيث . لا أستطيع تبرئة الدولة عن مسؤوليته ، ولكني لا أجزم بتواطئها مع أصحابه أو ضلوعها في الترويج له عن قصد وسوء نية . ولست أريد أن أسير شوطاً في هذا الامر ، ولكني أردته اشارة واضحة الى الصلة البينة التي يمكن أن يلاحظها المدقق في الاحداث بين الحركات الثورية الدينية التي أشرت الى بعضها في مطلع

بحثي ، كالروانديه وحركات سنباذ والمقنع الخراساني وسواهم ، وبين هذا المناخ الفكري المتسربل بأثواب الحرية في الظاهر ، والذي يخفي أفاعي حادة الانياب تنتظر اللحظة المناسبة لتنهش الاساس العقائدي الذي قامت عليه الدولة فتقوضها من الداخل .

ولست أريد وانا أضع خاتمة لهذا البحث أن أدخل في تفاصيل الفوارق الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعاني منها المجتمع العباسي في هذا الدور الاول وما تلاه من أدوار . وأثر هذا كله في توجيه أحداث هذه الفترة وجهة غدت فيها حركة العيارين والشطار في القرن التالي حركة لها وجه اجتماعي واقتصادي . فكانت الاغارة على الاسواق ونهب أموال الاغنياء من السادة والتجار تبرر وتحمد لان بعض هذه الاموال المنهوبة كان يعطى للفقراء والمحرومين . ولهذا موضع آخر . أرجو أن يتاح لي تناوله في بحث قادم . ولكني أود أن اذكر بأن طبيعة الظرف الذي أدى الى ولادة الدولة العباسية وتنوع الشعارات التي حملتها والتي قصدت من ورائها كسب كل المتذمرين من الحكم الاموي الى جانبها . أدت كلها الى أن ينضم الى صفوفها خليط عجيب من المؤيدين فيهم الغلاة والمعتدلون . المسلمون وغير المسلمين . العرب وغير العرب . وقد أدى هذا كله الى نجاح الثورة ووصول بني العباس الى الحكم . ولكنه كان في نفس الوقت المنبت الوخيم الذي رتعت فيه عوامل الفساد والتفسخ التي نجم عنها هذا التناقض الكبير بن ما رفعته الثورة من شعارات . وما آل اليه الامر بعد أن انتهت السلطة الى البيت العباسي .

ولنا في تنوع مواقف المؤرخين العرب المسلمين من هذه الدولة . وتقسمهم بين مادح مستفيض في المدح . وقادح مغرق في القدح . خير دليل على عدم وحدة الموقف وتباين الآراء وتنق الاهواء والمصالح التي كان يمثلها هؤلاء المؤرخون .

وتظل الدعوة قائمة الى الباحثين في هذه الحقبة من تاريخنا لان لايكتفوا بالظاهر وألا يعتمدوا على المروي والمدون فحسب . وأن يستشفوا ما وراء هذه الاحداث من دلالات ومؤشرات ، وهذا هو ما نبغيه في دعوتنا لكتابة التاريخ العربي بأسلوب يلتزم المنهجية العلمية ويضع الحادث الفرد في مكانه الصحيح من المنظومة التاريخية .

حياة الناس في مدن الثغور
مدينة طرسوس

د . مصطفى علي الحياري

الجامعة الاردنية ـ كلية الآداب

تميزت الفترة الممتدة من الثمانينات من القرن الأول الهجري وحتى نهاية القرن الثاني للهجرة باهتمام الخلافة الاسلامية ـ سواء أكان مركزها في دمشق أو بغداد ـ بعمران مناطق الحدود الطويلة بين أراضيها وأراضي الامبراطورية البيزنطية لتكون مراكز دفاع أمامية تصد عن بلاد العالم الاسلامي الغارات المتكررة ، وتمنع قوات العدو من الاعتداء على سكان الحدود أو القيام بتخريب مدنهم وقلاعهم وحصونهم أو التعرض لمزروعاتهم وماشيتهم .

وشمل العمران كافة مناطق الثغور سواء بسواء . ونالت المنطقة التي عرفت بعد بالثغور الشامية اهتماما خاصا من قبل الدولة نظراً لموقعها الاستراتيجي الهام الذي يتحكم بالدروب المؤدية من قلب هضبة الأناضول الى بلاد الشام والعراق ، وبالعكس .

وقد أعيد ، خلال الفترة المذكورة ، بناء كافة المدن في هذه المنطقة والتي كانت قد خربت أو هجرها أهلها بالتدريج منذ بدايات الفتح الاسلامي لبلاد الشام . كما اقيم فيها أو على أطرافها الكثير من القلاع والحصون الجديدة ولذلك فقد عمرت مدن مثل المصيصة وأذنة وطرسوس (١)، وقلاع وحصون مثل المثقب والهارونية والكنيسة السوداء ولؤلؤة (٢) . واحتلت مدينة طرسوس من بينها مكانة خاصة نظرا للدور الكبير الذي كان لها بعد تأسيسها بحيث صارت أكبر مدن الثغور الشامية وأوسعها عمرانا وأكثرها سكانا .

وسنحاول في هذه الدراسة اعطاء صورة مناسبة ، وبالقدر الذي تسمح به المعلومات المتوافرة ، عن سكان هذه المدينة الثغرية وعن حياتهم اليومية وفعالياتهم في أوقات السلم والحرب . وهي صورة ربما كانت نموذجاً لحياة الناس في مختلف مدن الثغور .

كان الهدف الأساسي لبناء مدينة طرسوس وغيرها من مدن الثغور أن تكون مراكز للجهاد في سبيل الله ، تتجمع فيها المقاتلة والمتطوعة القادمون من مختلف بلدان العالم الاسلامي ثم تنطلق بحملاتها باتجاه أراضي الامبراطورية البيزنطية ، وقواعد حدود ثابتة مهمتها الدفاع عن حدود الخلافة الاسلامية ضد اعتداءات قوات الروم عليها . وعلى هذا الاساس شحنت هذه المدن في البداية بالمقاتلة على زيادة في العطاء وذلك ترغيبا في حياة المرابطة والتفرغ للجهاد في سبيل الله ، ومن ثم قصدتها المتطوعة من مختلف انحاء العالم الاسلامي .

وفي الفترة الأولى لعمران الثغور الشامية ، اثبتت التجربة العملية أن القوات التي تطوعت للمرابطة في مدن الثغور كانت قليلة وغير كافية للقيام بالمهام التي انيطت بها على الوجه الأفضل ، ولذلك فقد اعتمد في عملية الجهاد والدفاع عن مناطق الحدود التابعة للدولة الاسلامية على قوات الخلافة المركزية بصورة رئيسية .

وكانت هذه القوات ترسل كل سنة في حملات الصوائف أو الحملات التي كان يقودها الخلفاء أو من ينوب عنهم للغزو أو للرد على ما كان يقوم به الروم من تخريب في منطقة الثغور . ولكن قوات الخلافة هذه لم يكن بامكانها البقاء في منطقة الثغور بصورة دائمة بل كانت تعود كل سنة الى مراكزها التي جاءت منها . وبعد عودة هذه القوات كان يبدأ عادة الدور الفعال لأهل مدن الثغور من حامية وغيرها من الفئات في حماية الحدود في الفترة التي تمتد من أوائل الخريف وحتى أواخر الشتاء .

واستمر وضع الثغور الشامية على هذا النحو حتى تبعت هذه المنطقة للدولة الطولونية في بداية النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة (العقد السادس من القرن التاسع الميلادي) . فمنذ ذلك الوقت صارت مدينة طرسوس وبقية مدن الثغور الشامية تعتمد اعتماداً يكاد يكون كليا على امكاناتها العسكرية المحلية الممثلة بالحاميات والمتطوعة وأهل الثغور عامة ، في الدفاع عن حدود العالم الاسلامي الذي انشغل امراؤه بخلافاتهم الداخلية وصراعاتهم المستمرة من أجل السيطره والنفوذ .

وزاد اعتماد الثغور الشامية على امكاناتها المحلية في النصف الاول من القرن الرابع للهجرة / العاشر الميلادي بسبب من الظروف السياسية الصعبة التي مرت بها الخلافة الاسلامية التي تمثلت بضعف الخلافة العباسية وسيطرة

العناصر غير العربية من أتراك وديالمة على الدولة ، والتفكك السياسي الذي ادى الى ظهور امارات مستقلة انفصلت فعليا عن الخلافة وتصارعت فيما بينهـا لاخضاع منطقة الثغور الشامية لنفوذها مثل امارة الحمدانيين في حلب وامـارة الاخشيديين في مصر والمناطق الجنوبية من بلاد الشام .

واثرت هذه الظروف كلها في بنية مجتمع مدينة طرسوس ونوعية النـاس الذين سكنوها واتخذوها موطنا لهم . ففي بداية عمرانها ، شحنت المدينة بالمقاتلة والمتطوعة الذين استقدموا اليها من مختلف أمصار العالم الاسلامي ، فصار أغلب سكانها في البداية من أهل خراسان ومن أهل المصيصة وأهـل انطاكية الذين كانوا بدورهم يمثلون مختلف امصار الشام والجزيرة الفراتية . ونمت المدينة بعد ذلك نموا كبيرا من حيث اتساع العمران وازدياد عدد سكانها حتى صارت « أجل مدن الثغور وأكثرها أهلاً وأغصّها اسواقاً » (٣) ، واقبل الناس من المجاهدين والمتطوعة اليها من مختلف انحاء العالم الاسلامي . وذكرت المصادر المعاصرة لفترة ازدهار طرسوس انه لم يكن ثمة من مدينة كبيرة من مدن الاسلام ومعروفة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والري واصبهان وجميع الجبال وطبرستان والجزيرة الفراتية واذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشام ومصر والمغرب الا وبطرسوس لاهل هذه البلاد دار ورباط ينزله غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها ، وترد عليها الجرايات والصلات ، وتدر علهم الانزال والحملان العظيمة الجسيمة (٤) .

وكانت الجماعات التي تفد على طرسوس لتكريس حياتها للجهاد والغزو أولا ثم لنمط حياتها العادية ثانيا تمثل مختلف اجنـاس الناس وطبقـاتهم في المجتمع الاسلامي . وكان يساعد على ذلك كله ان الرؤساء وأصحاب النعم في حواضر العالم الاسلامي لم يبخلوا ، في التعويض عن عدم تمكنهم من المشاركة في الجهاد والدفاع عن حدود العالم الاسلامي ، في اقامة الربط وبناء الدور في طرسوس لتكون دور ضيافة أو أماكن اقامة للمتطوعة والغزاة الوافدين اليها ، وفي وقف الوقوف الكثيرة عليها لتستغل ويصرف من مغلها على مختلف جوانب الانفاق على هؤلاء الناس وخيلهم وسلاحهم . وقـد فصل ابن حوقل ذلك فذكر انه بالاضافة الى ما كان السلاطين والامراء يتكلفونه من أموال تنفق على الثغور فان القسم الاكبر من ذلـك كان يأتي من الأمصار لأن « أربـاب النعم يعانونـه وينفذونه متطوعين ويتحاضون عليه متبرعين » خاصة الاوقاف الكثيرة اذ لم يكن في بلد من البلدان من « رئيس أو نفيس الا وله عليها أوقاف من ضياع ذات

أكرة وغلات أو مسقف من فنادق ودور وحمامات وخانات ، هذا الى مشاطرة من الوصايا بالعين الكثير والورق والكراع الغزير » (٥) .

وكان أكثر هذه الوقوف والاحباس لاهل بغداد (٦) . ونتيجة لذلك كله صارت طرسوس المدينة « التي يقوم بها سوق الجهاد ، وينزلهــا الصالحون والعبّاد ، ويقصدها الغزاة من سائر البلاد » (٧) .

وأدت هذه الظروف التي ذكرنا والتطورات التي طرأت على مدينة طرسوس خلال القرن التالي لتأسيسها الى جعلها أكثر مدن الثغور الاسلامية الروميــة سكاناً . فقد ذكر ابن حوقل ، الذي عرفها قبل استسلامها للروم . أنه كان بها وبالمناطق التابعة لها مائة ألف فارس (٨) . وليس هذا بالعدد المبالغ فيه . فاذا كان عدد الرماة الذين يرمون عند الضرورة من فوق أسوارها ستة عشر الف رام . واذا لم كان ثلثا دور المدينة البالغ عددها أربعة وثلاثين ألف دار . مخصصة لسكنى العزاب الذين كانوا على الاغلب من الغلمان المكرسين حياتهم للجهاد ومن المتطوعة . واذا كان ثلث الدور الثالث مخصصا لسكنى المجاهدين وعائلاتهم (٩). ثم اخيرا اذا كان أصحاب المتاجر الصغيرة والصنائع الوضيعة « يلحقون بالطبقة العليا في الفروسية والشجاعة وارتباط الخيل واعداد السلاح » (١٠) فان كل ذلك يعني أن كل بالغ من سكان المدينة ومن عمالها كان عند الحاجة يشارك في الجهاد والغزو مهما كان العمل الذي يمارسه في حياته العادية . وسيظهر ذلك واضحا من الامثلة التي سترد في ما يلي من هذه الدراسة .

كان أكثر سكان طرسوس من الغلمان والمتطوعة الذين استوطنوها أو كانوا يفدون اليها . ولم يكن لهؤلاء صنعة أو حرفة الا الجهاد في سبيل الله أو التدريب المستمر على فنون القتال والاستعداد للغزو . وقد خلف لنا الجغرافي المعاصر المهلبي صورة مختصرة للحياة اليومية لهذه الفئات في المدينة . وهي صورة حية لحياة هذه الفئات من أهل الثغور . ففي الأيام التي لم يشغلهم فيها غزو الى أراضي الروم او نفير لمواجهة هجوم مفاجىء قام به الروم في منطقة الثغــور الشامية ، كان هؤلاء الغلمان يقسمون يومهم الى قسمين : القسم الاول . وهو صدر اليوم ، خصصوه للتدريب على ركوب الخيل واستعمال مختلف انواع الاسلحة « . . . لس لهم (فيه) عملا الا ارتباط فرهة الخيل وتخريجهــا في الطراد والعمل عليها » (١١) ، والقسم الثاني ، وهو بقية اليوم . فقد جعلــوه للراحة في منازل فياحة فيها « . . . البساتين والمياه الجارية والعيش الرغد » (١٢) .

وأما بقية سكان المدينة فلم يكن حالهم من حيث التدريب واستعمال الاسلحة اقل من حال الغلمان . وينطبق ذلك على جميع الفئات الاخرى حتى أصحاب المتاجر الصغيرة والصناعات الوضيعة (١٣) . وحتى الاولاد الصغار كانوا يبدأون التدريب الذي يناسبهم منذ نعومة أظفارهم وحتى بلوغهم السن التي تؤهلهم للالتحاق بفئات المقاتلة من الفرسان أو الرجالة (١٤) .

كان أهل مدينة طرسوس يمثلون مختلف أمصار العالم الاسلامي ويشكلون مجتمعا متميزا تمثلت فيه مختلف أجناس الناس وألوانهم . فقد كان الغالب على ألوانهم البياض والحمرة والسمرة الصافية . من ناحية أخرى نجد أن المجتمع الطرسوسي تمثلت فيه أيضا أغلب فئات الناس الاجتماعية وما يرتبط بهذه الفئات من خصائص عامة أو صفات مميزة . ومن الصفات العامة التي وصف بها أهل طرسوس ، والتي ربما تكونت نتيجة ظروف حياتهم الثغرية . أنه كان في أكثرهم « جفاء وغلظة على الغريب الا من كان قريب عهد منهم بالغربة» وان الشح كان غالبا عليهم (١٥) .

وترد معظم معلوماتنا عن فئات أهل مدينة طرسوس الاجتماعية عند صاحب كتاب **العزيزي** الذي يظهر أنه زار المدينة وعرف اهلها معرفة وثيقة . ويلاحظ أن المهابي لا يشير الى فئات السكان في المدينة الثغرية على أساس النمط المتعارف عليه من فئات خاصة واخرى عامة ولا حتى جماعات العامة المتعددة ، وانما يذكر فئات السكان حسب الدور الذي كانت تقوم به كل فئة في المدينة والصفات العامة التي تميزت بها . وذكر فئتين ، يظهر انهما تمثلان اكثر سكان المدينة : الفئة الاولى هي فئة أهل البلد واولاد الغلمان واولاد المجاهدين واولاد خراسان الذين كانوا « من الاخلاق السمحة والنفوس الكريمة والهمم العالية والمحبة للغريب على ما ليس عليه أحد » . ثم يضيف معلقا « ولكنهم كانوا في بقية من هؤلاء الاوباش » والاوباش الذين يقصدهم المهلبي هم الذين كانوا يشكلون الفئة الاخرى والذين يسميهم بالسوقة والمستخدمين . وكان أكثر هؤلاء « من الخوز » (١٦) وسفلة العجم ومن كان فيه فسولة عن الحرفة وكسل عن طلب المعاش ، فأظهروا زهدا وورعا واعلنوا بالنصب » (١٧) . وليس هذا بالامر المستغرب في مدينة مثل طرسوس جمعت الناس من كل أمصار العالم الاسلامي .

ويرد في المصادر الاخرى ذكر لبعض الجماعات من أهل طرسوس كان لها مكانة خاصة في المجتمع ميزتها عن غيرها من الفئات . فيذكر القاضي الطرسوسي أهل الشرف في المدينة الذين تميزو عن غيرهم ، وكانت هذه الجماعات تقتصر

على ابناء المهاجرين والانصار المقيمين بطرسوس والذين كان لهم سجل خاص بهم أنشيء زمن الخليفة المأمون ، كما كان لهم عطاء مقرر من عشــور عمــل طرسوس « يجري عليهم مجرى الميراث يأخذه خلفهم عن سلفهم » (١٨) ، ويذكر الطرسوسي جماعة ثابتة كان لها مكانتها ودورها المعروف في الجهاد هي « الشيوخ المسجدية » الذين سنذكر أمثلة من نمط حياتهم بعد قليل . أما ابن العديم فانه يؤكد على جماعات المتطوعة الذين كان اكثرهم من أهل الجبل وخراسان ، والذين يصفهم بانهم جمعوا بين « غلظ الاعجمية وسوء أدب الصوفية » (١٩) .

ويرد ذكر لفئة هامة في حياة مدينة طرسوس وان كانت لاتشكل جماعة خاصة لها مركزها الاجتماعي في المدينة ، هي فئة « الأولاء المؤلفة قلوبهم من الروم والارمن وأولادهم » الذين كان لهم دور أساسي في التجسس على العــدو والحصول على اخبارهم خاصة وقت الحرب وكان يخصص لهذه الفئة حصص معروفة من وارد العشر حددها الوالي لهم ومن يتجدد منهم . وكانوا يفضلون في توزيع عشر الشعير على غيرهم اذ كان يطلق لهم منه رسم « على مقــدار كراعهم قضيما لها في كل سنة » (٢٠) .

ويظهر من المقتطفات المتبقية من كتاب **سير الثغور** أن القاضي الطرسوسي قد اهتم بالترجمة لحياة عدد كبير من ابناء المدينة يمثلون مختلف فئات الناس وجماعاتهم وطبقاتهم ولكن المقتطفات ذاتها لاتعكس هذا الاهتمام العام . فالعدد القليل من التراجم التي وصلتنا من هذا الطريق تترجم بمعلومات قليلة ومحدودة لبعض رجال المدينة من الغلمان المشهورين والشيوخ المسجديــة وأئمة المسجد الجامع وخطبائه ورجال الصوفية والقراء . ولعــل ذكر ملخص لبعض سير هؤلاء يساعد في اعطاء صورة مجملة للحياة العامة والحياة اليومية لبعض فئات السكان في مدينة طرسوس .

ومن أشهر الجماعات التي استوطنت المدينة وكان لها دور هام في حياتها العامة ــ خاصة الجهاد ــ الشيوخ المسجدية . وهؤلاء كانوا جماعة معروفة تعيش في المسجد الجامع ولا عمل لها الا الغزو والجهاد في سبيل الله والصــلاة الدائمة حتى انه لم يكن لديهم تلاميذ يقرأون عليهم وانما كانوا يمضون وقتهم متوجهين الى القبلة « يصلون نافلة نهارهم أجمع الا في الاوقات المنهي عن الصلاة فيها ، لايشغلهم عن ذلك الا النداء بالنفير أو الغزو أو تجريد أو تشييع جنازة من يموت من الصالحين أو عيادة مريض من المجاهدين (٢١) . وكان من أبرز أفراد هــذه الجماعة اسحق بن ابراهيم بن يعقوب الشهرزوري ، أحــد الرجــال

الصالحين المرابطين الذي أمضى عشرين سنة من حياته ملازما للجانب الغربي من منبر المسجد في طرسوس يصلي ويقرأ القرآن ويلبي نداء النفير الى الغزو الى أن مات (٢٢) . ومنهم زَبَرْجَ الشَمَلي الاسود ، أحد غلمان ثَمَل الخادم الذي تولى طرسوس مدة طويلة ، وقد ترك اللذة وزينة الدنيا في أيام سيده وحفظ القرآن وتنسك واشتغل بالعبادة كل وقته لايشغله عنها الا الجهاد أو تشييع جنازة أو عيادة مريض (٢٣) . ومع أنه كان يعيش في دويرة خارج المسجد الجامع الا انه عد من الشيوخ المسجدية لكثرة مكوثه فيه . وبقي زبرج في طرسوس حتى استسلمت للروم فخرج عنها الى القدس حيث عاش بقية حياته (٢٤) .

ويرد عند القاضي الطرسوسي ذكر لعدد من الخطباء والأئمة والقراء الذين عملوا في المسجد الجامع بمدينة طرسوس . وكان للخطباء من بين هؤلاء دور هام في حياة المدينة الثغرية وهو حث الناس على الجهاد والغزو . من أشهر الخطباء الذين ذكروا أبو القاسم الحمامي الذي يبدو انه أوتي مقدرة كبيرة في البيان واعطاء كل مناسبة حقها من المقال . وكان في بيانه أمهر مايكون في مقام الدعوة ودفع الناس الى المشاركة في القتال . ويروى عنه في هذا المجال الحادثة التالية التي تشير بوضوح الى دوره وأمثاله في حياة مدن الثغور : أراد أحد الامراء القيام بغزاة من طرسوس ، فحضر الى المسجد الجامع « للخروج منه على الرسم » المعروف في كل غزاة لكن هطول الامطار الغزيرة في ذلك اليوم ثبط عزائم الناس فتخلفوا عن تلبية نداء الجهاد والغزو . ورأى الخطيب الحمامي قلة عدد من حضر من الناس مع الامير وانه دون العدد المعهود في مثل تلك الغزاة، فقام وخطب خطبة كان رد فعلها أن تجددت عزائم الناس وتجهز عدد كبير منهم للمشاركة في الغزاة (٢٥) .

ومن أئمة المسجد الجامع المذكورين ابن أبي سمينة الذي كان من الصالحين المعروفين بجودة القراءة وطيب الصوت ، وصلى بالناس بضع عشرة سنة (٢٦) ، وابن أبي قباس الذي يوصف بانه كان « من فرسان المحراب » وكان « اذا قرأ في محراب طرسوس سمعت قراءته في سوق الصفارين وكان اذا خطب حير السامعين والهى المحزونين » (٢٧) .

وأما الصالحون من القراء والزهاد وأهل العلم والحديث فيذكر القاضي الطرسوسي أنه لم يستطع احصاءهم لكثرتهم . وعدد منهم اسحق ابن خلاد الذي كان يعلم قراءة القرآن الكريم ، وكان يقرأ عليه « ثلاثين شيخا قراء استاذين من أهل الفضل والنبل والورع والزهد » ، وامضى خمسين سنة من

حياته صائما متعبدا (٢٨) ، ومنهم أبو عبد الله العلوي من المحدثين الصالحين المستورين (٢٩) ، وابو الترك السلمي من أهل العلم والحديث والجهاد في سبيل الله (٣٠) ، وابو القاسم القحطبي وابو القاسم بن الابار من الزهـاد ورجـال الصوفيـة (٣١) .

ومن الزهاد المعروفين بطرسوس ايضا زهير بن محمد بن قصبر المروزي. اصله من أهل بغداد وانتقل الى طرسوس واقام فيها مرابطا . ويروى عن البغوي قولا مشهورا يتعلق بورعه وزهده : « ما رأيت بعد أحمد بن حنبل اورع من زهير ولا أفضل ، سمعته يقول : اشتهي لحما أربعين سنة ولا آكله حتى ادخـل (أرض) الروم فآكله من مغانم الروم » (٣٢) .

ولا تكتمل الصورة العامة لمدينة طرسوس وحياة الناس فيها دون وصف لحياتهم في الاوقات التي كانت تعيش المدينة فيهـا أقصى درجات الاستعداد الحربي والتهيؤ للقتال والتي كان يتحدد فيها دور كل فئة من فئات السكان حتى الاولاد الصغار الذين لم يبلغوا الحلم . تلك الاوقات هي اوقات النفير العام أو الدعوة المفاجئة لامير المدينة وقادة فرسانها ورجالتها والمتطوعة للخروج الى الغزو أو التصدي لهجوم العدو في اية منطقة من مناطق الثغور الشامية الاخرى القريبة . وقد قدم لنـا القـاضي الطرسوسي صورة حية لهـذا الاستعداد المفاجىء .

كان اذا وقع النفير في أي وقت من نهار أو ليل فان اول عمل يقوم بـه المسؤولون عن المدينة هو اغلاق جميع ابواب المدينة ما عدا الباب الذي تقرر خروج النفير منه . وكان هذا الباب هو أقرب أبواب المدينة الى الجهة التي سيقصدها الغزاة . وكانت توضع مفاتيح الابواب جميعا عند صاحب الشرطة . وكان مقر هذا المسؤول ورجالته والمحتسب ورجاله ، في حال النفير وطول مدته، عند الباب الاول الذي يلي الباب الذي يخرج الناس منه الى النفير . وفي نفس الوقت الذي كانت تتم فيه هذه الخطوات الاولى كان المحتسب يركب ومعه رجالته يجوبون شوارع المدينة وينادون بأعلى اصواتهم « النفير يا أصحـاب الخيل والرجالة ، النفير حملكم الى باب الجهاد. . . أو الى أي باب اتفق » . واذا كان الوقت الذي وقعت فيه الدعوة الى النفير نهارا انضم الى المحتسب ورجالته عدد كبير من الصبيان وساعدوهم في النداء بالنفير (٣٣) .

وكان نوع الدعوة الى النفير يعتمد على شدة الموقف الذي استدعاه . فاذا كان الموقف عاديا استدعي اهل الخيل والرجالة فقط ، اما اذا كان الحال صعبا

وخطيرا فقد كان المحتسب ورجالته يأمرون أهل الاسواق باللحاق بالنفير الذي خرج مع والي المدينة . وبعد خروج الناس مع الامير كانت تستمر الدعوة الى النفير والمناداة به حتى يعود الامير او الوالي مع من خرج معه و لحق به ، الى دار الامارة التي كانت تقع عند باب الجهاد وبالقرب من المسجد الجامع (٣٤) .

وأما كيفية خروج النفير العادي من المدينة وحتى وصوله الى مبتغاه فقد كان ايضا يتم حسب اصول مرعية ، فعندما كان يعقد الامير او الوالي لقائد من الفرسان بالتوجه الى جهة من الجهات ، كان يبعث معه قائدا أو قوادا من قواد الرجالة المعروفين مع رجالهم « أهـل القوة والنشاط والنية مـن المتطوعـة المسجدية » (٣٥) . فاذا خرجوا ونزلوا اول منزل من منازل الطريق ، قام شيوخ من الصالحين المعروفين بالمحافظة على الغلمان الذين يحصلون تحت علم وراية كل واحد منهم حتى انه اذا أراد أحد هؤلاء الغلمان الوضوء لم يسمح له بذلك الا برقيب ثقة أمين وشيخ معروف يمضي معه الى حاجـته ويعيده مـن ثم الـى جماعته (٣٦) .

ولعل أجمل دور من أدوار فئات السكان في مدينة طرسوس مـن حيث الاستعداد للجهاد والمشاركة في النفير الصبيان . ويبدو أن هؤلاء كانوا يدربون منذ نعومة اظفارهم ليصبحوا أعضاء فعالين في مجتمعهم وفي عملية الجهاد التي كانت محور النشاط لكل فئات السكان . وذكر صاحب **سير الثغور** أنه بالاضافة الى اشتراك الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم في النداء للنفير ، كانوا ــ بعد خروج النفير من المدينة ــ يجتمعون الى رجل معروف في المدينة ، ثم يحملون من السلاح ما يستطيعون ممارسته ومزاود فيها اطعمة أمثالهم ويسيرون وراء هذا الرجل ، يسيرون بسيره ويقفون بوقوفه ، فلا يزال ذلك دأبهم الى عودة الامير الى دار الامارة ، فيدخلون أمامه .

« على مراتبهم ، يصفهم قائدهم الامثل فالامثل رماتهم عن قسي الرجل التي عملت على مقاديرهم ، ثم رماتهم عن القسي الفارسية ، وربما كان فيه من اولاد اليمانية من يحمل القسي العربية بنبلها ــ صبيين صبيين . ثم من يحسن الثقاف فيثاقف قرينه ومثله وخدينه وشكله ، حتم يدخـل كل صف منهـم في مرتبته . ثم يتلوهم رؤية قائدهم بمطرده وعلامته (٣٧) .

وكان تدريب هؤلاء الصبيان يتم على هذه الصورة :

« حتى اذا خرج احد الصبيان من حد الطفولة واشتد عضده وقارب حد البلوغ او بلغ أو تجاوز البلوغ قليلا ، انضاف الى قائد من قواد الرجالة الذين

ذكرت وصحبه في نفيره وغزوه وارتاد لنفسه الرفاق بحسب ما يختار تربه وجاره وقرينه . فاذا التحى وخرج عن حد المرد دخل في جمهور الناس ، حاذقا بما يحتاج اليه ، ماهرا بامر جهاده وتدبير أمره ، ناقدا يقظا ان شاء الله » (٢٨) .

هذه هي الصورة العامة التي نجدها في المصادر المتوافرة ، عن حياة الناس في هذه المدينة المشهورة من مدن الثغور الشامية ، وتمثل هذه الصورة اسلوب حياة الناس فيها على مختلف اجناسهم وطبقاتهم ، وذلك في فترة قوة منطقـة الثغور وازدهار مدنها . ولكن الوضع في الثغور الشامية لم يستمر على الحال التي ذكرنا . فقد طرات في منطقة الثغور الاسلامية ــ البيزنطية ظروف غير مناسبة تراكمت مع الزمن وادت بالنتيجة الى ضعفها وعدم تمكنها من التصدي لهجمات الروم المتكررة عليها . وادى ذلك كله في النهاية الى استيلاء الروم على معظم المنطقة واستسلام ما تبقى لهم دون قتال . وكان آخر المدن التي استسلمت مدينة طرسوس .

---

(١) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، نشر م . دي غويه (ليدن ــ بريل ، ١٨٦٦) ١٦٥ ــ ١٧٠ ، قدامة **الخراج وصنعة الكتابة** ، مخطوطة كوبرولو باسطنبول رقم ١٠٧٦ ؛ ورقة ١٢٨ ــ ١٣٠

(٢) نفس المصدر ، ١٧١ ، قدامة ، **الخراج** ، ورقة ١٣٠ أ .

(٣) المهلبي ، **المسالك والممالك في بغية الطلب في اخبار حلب** ، مخطوطة أيا صوفيا باسطنبول رقم ٣٠٣٦ ، ورقة ١٠٨ ب (وسيشار اليه فيما يلي **ببغية**) .

(٤) ابن حوقل ، **صورة الارض** ، (دار مكتبة الحياة ــ بيروت ، الارت) ، ١٦٨ . انظر كذلك **سير الثغور فى أخبار طرسوس** في **بغية** ، أيا ، ورقة ١١٢ أ ، المهلبي ، **المسالك** ، في **بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٨ ب ، وقد ترجم Le Strange فصل ابن حوقل بصورة موجزة انظر ، **Lands of the eastern caliphate,** (London, 1969), P. 132.

(٥) ابن حوقل ، **صورة الارض** ، ١٦٨ ــ ١٦٩ ، وبشكل مختصر في المهلبي ، **المسالك والممالك في بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٨ ب ــ ١٠٩ أ .

(٦) المهلبي ، **المسالك والممالك في بغية** ، أيا ورقة ١٠٨ ب ــ ١٠٩ أ . وهناك مثل يورده ابن الجوزي عن احد هؤلاء المهتمين بأمر الثغور من أهل بغداد ، اذ يذكر في ترجمة الحسين بن علي ابن محمد بن يحيى النيسابوري المشهور بحسينك ، أنه لما وقع الاستنفار لطرسوس ، وذلك قبل تسليمها للروم ، دخل على حسينك بعض أصحابه فوجدوه يبكي ويقول : « دخل الطاغي ثغر المسلمين طرسوس وليس فى الخزانة ذهب ولا فضة » . ثم باع ضيعتين نفيستين من أجل ضياعه بخمسين الف درهم واخرج عشرة من الغزاة والمتطوعة الاجلاد بـدلا عن نفسه . **المنتظم في تاريخ الملوك والامم** ، ٧ ، (طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن ، ١٣٥٨ هـ) ١٢٧ ، ويبدو انه نقل ذلك عن الخطيب البغدادي ، انظر **تاريخ بغداد** ، ٨ (تصوير المكتبة السلفية ــ المدينة المنورة) ص ٧٥

(٧)المهلبي ، **المسالك والممالك** ، في **بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٦ ب .

(٨) ابن حوقل ، **صورة الارض** ، ١٦٨ .

(٩) **سير الثغور في بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٩ ب ــ ١١٠ م ، ١١٢ أ .

(١٠) المهلبي ، **المسالك والممالك** ، في **بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٩ أ .

(١١) **المصدر ذاته** .

(١٢) **المصدر ذاته** .

(١٣) **المصدر ذاته** .

(١٤) سيرد ذكر ذلك بالتفصيل في ما يلي .

(١٥) المهلبي ، **المسالك والممالك** ، في **بغية** ، أيا ، ورقة ١٠٩ أ .

(١٦) الخوز هم أهل خوزستان ونواحي الاهواز بين فارس والبصرة وواسط الجبال . ويصفهم ياقوت بانهم ألأم الناس وأسقطهم وأن الغالب على أخلاقهم السوء والبخل المفرط والمنافسة فيما بينهم في النزر اليسير . **معجم البلدان** ، ٢ ، ٤٩٤ ــ ٤٩٧ .

(١٧) المهلبي ، **المسالك والممالك في بغية** ، أيا ورقة ١٠٩ أ .

(١٨) **سير الثغور في بغية** ، أيا ورقة ١١٠ أ .

(١٩) ابن العديم ، **بغية** ٦/مخطوطة ، مكتبة أحمد الثالث باسطنبول رقم ٢٩٢٥

(٢٠) **سير الثغور فى بغية** ، أيا ، ورقة ١١٠ ب .

(٢١) **المصدر ذاته** ، ٢/أحمد الثالث ، ورقة ٢٦٢ أ .

(٢٢) **المصدر ذاته** .

(٢٣) **المصدر ذاته** ، ٦/أحمد الثالث ، ورقة ١٩٢ ب .

(٢٤) **المصدر ذاته** .

(٢٥) ابن العديم ، **بغية** ، ٨/أحمد الثالث ، ورقة ١٧٣ ب ــ ١٧٤ م .

(٢٦) **سير الثغور** في **بغية** ، ٨/أحمد الثالث ، ورقة ٢٣٩ م .

(٢٨) **المصدر ذاته** ، ٢/أحمد الثالث ، ورقة ٢٦٩ أ .

(٢٧) **المصدر ذاته** ، ورقة ٢٣٩ ب ــ ٢٤٠ م .

(٢٩) **المصدر ذاته** ، ٣/أحمد الثالث ١٣٨ ب ــ ١٣٩ أ .

(٣٠) **المصدر ذاته** ، ٨/أحمد الثالث ، ٣٧ ب ــ ٣٨ أ .

(٣١) **المصدر ذاته** ، ورقة ١٧٤ ب .

(٣٢) الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ٨ ، ٤٨٤ ــ ٤٨٥ ، ابن الجوزي ، **المنتظم** ، ٥ ، ٤ ، سبط بن الجوزي ، **مرآة الزمان** ، (خط) مكتبة أحمد الثالث ، ١٠ ورقة ١٠

(٣٣) **سير الثغور في بغية** ، أيا ورقة ١١٤ ب ــ ١١٥ أ .

(٣٤) **المصدر ذاته** ، ورقة ١١٥ ا .

(٣٥) **المصدر ذاته** ، ورقة ١١٥ أ ــ ب .

(٣٦) **المصدر ذاته** .

(٣٧) **سير الثغور في بغية** ، أيا ، ورقة ١١٥ ب .

(٣٨) **المصدر ذاته** ، ورقة ١١٥ ب ــ ١١٦ أ .

أضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس

د. يوسف درويش غوانمه

جامعة اليرموك

هو داود بن عيسى بن محمد بن ايوب الملك الناصر الولي المهاجر صلاح الدين ابو المفاخر ابن المعظم عيسى (١) . ولد بدمشق في ١٧ جمادى الاولى سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) (٢) ، وامه ام ولد تركية الاصل ، عاشت فترة في مدينة الكرك (٣) ، وعرفت بشدة الباس ورباطة الجاش ، فاحبها أهل الكرك ، وتمكنت بمساعدتهم سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) من مقاتلة قوات الكامل محمد التي ارسلها لمحاصرة الكرك ، وانتزاعها من الناصر داود ، فابقت المدينة لولدها (٤) .

نشا الناصر داود في حياة أبيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، ملازما للاشتغال بالعلوم على اختلافها ، وشارك في كثير منها (وحصل منها طرفا جيدا) (٥) . وعاش حياة العلماء واحبهم (٦) ، وارتحل الى العراق في طلب العلم ، فسمع في بغداد من جماعة من العلماء نذكر منهم : محمد بن احمد القطيعي وغيره . وسمع بالكرك من ابن اللتي ، وشمس الدين عبد الحميد الخسروشاهي، وسيف الدين علي الآمدي (٧) ، واجازه ابو الحسن المؤيد بن محمد الطوسي وغيره من العلماء (٨) . ويذكر ابن شاكر الكتبي بانه (كان حنفي المذهب عالما فاضلا مناظرا ، ذكيا له اليد البيضاء في الشعر والادب) (٩) .

وكان لنشاة الناصر داود اثر كبير في حبه للعلم وتعلقه بالعلماء ، فوالده المعظم عيسى كان عالما فاضلا متفننا في الفقه والنحووغيره،قرب العلماء واكرمهم، ولازمه العديد منهم فكانوا (لا يفارقونه في سفر ولا حضر) (١٠) . وكان يجلس الى جماعة الفقهاء ويباحثهم في مسائل لغوية وفقهية ، ويجزل لهم العطاء (١١). وكان ايضا يحث ابنه الناصر داود على طلب العلم واقتناء الكتب النفيسة ، بل

كان حريصا على اهدائه بعضها (١٢) ، فاليونيني يذكر ان الناصر داود كان يحب اقتناء الكتب النفيسة فيقول : (حصل منها جملة كثيرة ذهبت بعد وفاته) (١٣).

وقد اصطحب المعظم عيسى ابنه الناصر داود في العديد من اسفاره وحروبه ضد الفرنج ، كما ارسله في مهمات رسمية (سفارات) الى بعض الملوك والامراء (١٤) ، فصارت لديه دراية بأمور الدولة ، وازدادت حنكته وتجربته السياسية .

الانقسام في صفوف البيت الايوبي :

شب النزاع بين المعظم عيسى صاحب دمشق واخيه الكامل محمد سلطان مصر ، وادى هذا التصدع الى اضعاف الجبهة الاسلامية ، فانهك قواها وزادها تمزيقا ، وكان سببا في ضياع بيت المقدس ، فقد حاول المعظم عيسى صاحب دمشق التوسع شمالا على حساب امارة حماة ، فاحتل معرة النعمان وسلمية (١٥) ، ثم حاصر حماة نفسها . فلما وصلت انباء ذلك الى اخويه الكامل محمد صاحب مصر ، والاشرف موسى صاحب سنجار واخلاط (١٦) ، والبلاد الشرقية ، خشيا من ازدياد نفوذه ، فابن واصل يقول على لسانهما ، ان اخذ المعظم عيسى حماة (تمدى الى غيرها واطمعته نفسه بالاستيلاء على البلاد كلها) (١٧) . لذا هدداه وارغماه على العودة الى دمشق ، وفي نفس الوقت عقدا اتفاقا مفاده انتزاع دمشق من المعظم عيسى . الا ان المعظم تمكن من كسب اخيه الاشرف الى جانبه ، بعد ان تحالف مع جلال الدين خوارزم شاه صاحب مملكة عراق العجم واذربيجان، ومظفر الدين بن زين الدين كوكبوري صاحب اربل(١٨). واصبحوا يشكلون خطرا على املاكه ، فاضطر الى مسالمة اخيه المعظم وانضم الى جانبه ، واتى الى دمشق معلنا ذلك (١٩) .

الا ان الكامل محمد كانت له اطماعه في بلاد الشام ، فقد عمل حثيثا على انتزاع دمشق من أخيه المعظم ، وبسط نفوذه على بلاد الشام جميعها (٢٠) . ازاء ذلك خشي مغبة هذا التحالف ، بالاضافة الى انه اخذ يشك في اخلاص جنوده الى درجة اتهامهم بممالأة أخيه المعظم (٢١) . فبحث عن حليف يستطيع الوقوف الى جانبه ، ولم يجد غير الاجنبي فأرسل سفارة الى الامبراطور فردريك الثاني The Emperor Frederik II. في صقلية على رأسها الامير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ مستنجدا به ، واعدا اعطاءه بيت المقدس ، وما بيد المسلمين من الساحل ، ان قدم بقواته لمساعدته (٢٢) فلقيت هذه الدعوة استحسان الامبراطور واعاد سفارة الكامل بسفارة أخرى محملة بالهدايا

النفيسة (٢٣) ، ووعد بالحضور الى فلسطين ، ثم أخذ في الاستعداد لاعداد حملة صليبية جديدة الى الديار المقدسة .

تسليم بيت المقدس للصليبيين :

في خضم هذه الاحداث ، توفي الملك المعظم عيسى في ذي القعدة سنة ٦٢٤ هـ (تشرين ثاني ١٢٢٧ م) ، وتولى مملكة دمشق ابنه الملك الناصر داود ولم يتجاوز العشرين عاما . وهكذا اصبحت الساحة خالية للكامل محمد ، فعمل بسرعة على تحقيق اطماعه في بلاد الشام وضمها الى سلطانه . فافتعل خلافا مع الناصر داود ، اذ طلب منه قلعة الشويك (٢٤) ليجعلها خزانة له . فامتنع الناصر داود (وأدى ذلك الى تصميم عزم الملك الكامل على الخروج الى الشام وأخذ دمشق وغيرها منه) (٢٥) . ولكي يهيء الجو لقدوم الصليبيين الى فلسطين ، خرج الكامل بقواته من مصرفي رمضان ٦٢٥ هـ (آب ١٢٢٨ م) . فاستولى على نابلس وبيت المقدس والخليل من الناصر داود (٢٦) ، ثم اقام في تل العجول قرب غزة منتظرا وصول الامبراطور فردريك الثاني الذي كان في طريقه الى فلسطين .

وصل الامبراطور الى فلسطين ، وحطت قواته في عكا في شهر شوال ٦٢٥ هـ (ايلول ١٢٢٨ م) ، وبدأت الاتصالات بين الطرفين ، ويجدر بنا التساؤل عن موقف الكامل محمد ، ووقوفه هذا الموقف المثير . فالمؤرخون يذكرون ان الظروف كانت الى جانب الكامل محمد ولمصلحته ، فموت أخيه المعظم عيسى قد انهى حاجته الى حليف خارجي . فابن واصل يقول : (وانما قصد الملك الكامل بالاتفاق مع الامبراطور واستدعائه لاشغال سر الملك المعظم ولئلا يتمكن الملك المعظم بالاتفاق مع جلال الدين خوارزم شاه صاحب اربل من قصده وقصد الملك الاشرف) (٢٧) . وذكر بعض المؤرخين المحدثين ان الحملة الصليبية السادسة كانت من الضعف بحيث لا تشكل خطرا على الكامل محمد خاصة وبلاد الشام عامة (٢٨) ، ومع ذلك جبن الكامل محمد من الوقوف امامها ، مدعياً انه اراد الايفاء بوعده لما عرف عنه من تسامح ديني . ولكن هل بلغ التسامح الديني لدى الكامل حدا جعله يفرط بأقدس مقدسات المسلمين ؟ وهل التسامح الديني يجعلنا نفرط بأوطاننا ونسلمها للصليبي المستعمر ؟

كانت فكرة القيام بحملة صليبية الى بلاد الشام واردة لدى الامبراطور فردريك الثاني بسبب ضغط البابوية عليه . ولا شك ان الكامل كان على علم بالاستعداد للحملة ، فوجدها فرصة مواتية كي يرسل للامبراطور للاتفاق معه على الاسراع والقدوم الى فلسطين ، كي يحول دون نجاح المعظم عيسى وحلفائه من مهاجمته وانتزاع مصر منه . وهذا ما اكده ابن واصل (٢٩) . ثم ان المصادر

اللاتينية للحملة اكدت وجهة النظر التي ذهبنا اليها . فالامبراطور فردريك كان يستعد للقيام بهذه الحملة في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) ، أي قبل وصوله الى فلسطين بعام واحد ، ولكنه تأخر بسبب اصابته بمرض شديد (٣٠) . كذلك اراد الامبراطور ان يمهد لحملته هـذه ، فأرسل بدوره الى المعظم عيسى صاحب دمشق للاتفاق معه مقابل التنازل عن بيت المقدس الذي كان ضمن أملاكـه . فرد المعظم على رسوله قائلا : (قل لصاحبك ما انا مثل الغير ، ما له عندي سوى السيف) (٣١) . ثم بادر فأعد قواته وارسلها الى نابلس للوقوف في وجه الصليبيين وحماية بيت المقدس . فالخطة كانت مدبرة ومتفق عليها بين الكامل محمد وفردريك ، بموجبها يسلم الكامل بيت المقدس ومعظم الفتوح الصلاحية للصليبيين .

وكان بامكان الكامل النكوث بوعده خصوصا وان الامر يتعلق ببيت المقدس . المدينة الاثيرة لدى المسلمين جميعا ، ولن يكلفه ذلك كثير جهد ، اذا اخذنا بعين الاعتبار أقوال بعض الباحثين بان الحملة الصليبية السادسة كانت غير ذي بال، وانها أضعف واغرب حملة صليبية وصلت الى بلاد الشام. ان الدلائل تنفي ذلك، فالمصادر الاسلامية ذكرت ان جموعا فرنجية كثيرة وصلت الى فلسطين قبـل قدوم الامبراطور ، ومكثوا هناك بانتظار وصوله (٣٢) . واكدت ذلك المصادر اللاتينية فالمؤرخ Roger of Wendover ذكر في تاريخه ان جموعا صليبية وصلت الى فلسطين قبل قدوم الامبراطور فردريك في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م)، ولما ايقنوا انه غير قادم عاد ٤٠٫٠٠٠ منهم الى أوروبا ، وبقي آخرون بانتظاره (٣٣) اما عن الحملة نفسها ، فالمصادر الاسلامية ذكرت ان الامبراطور قدم (الى عكا في جموع كثيرة من الالمانية وغيرها من الفرنج) (٣٤) . اما المصادر اللاتينية فذكر المؤرخ : Philip of Novara ان الاسطول الذي حط في ميناء عكا رفقة الامبراطور كان مؤلفا من سبعين قطعة بحرية (٣٥) .

وهكذا فاننا نرى ان الحملة الصليبية السادسة كانت على درجة من القوة والاستعداد ، ويؤكد ذلك ، ما فعله الامبراطور فردريك الثاني . فبعد قدومه الى فلسطين استولى على بعض المناطق في الساحل ، كصيدا ويافا وقيسارية ، وراح يزيد في تحصيناتها (٣٦) . ثم ان الجيش الذي تحرك نحو قيسارية كان مؤلفا من ٨٠٠ فارس و ١٠٫٠٠٠ من المشاة (٣٧) . ومع ذلك فان قوات الكامل آنذاك كانت من القوة والمنعة ما تستطيع به التصدي للصليبيين والايقاع بهم . الا ان الكامل خرج بقواته الى فلسطين لا للوقوف في وجه الصليبيين بل لانتزاع بيت المقدس من ابن أخيه الناصر داود ، لتسهيل مهمة تسليمها للصليبيين . كما نصت على ذلك المعاهدة المعقودة بين الطرفين ثم اقام في غزة بانتظار وصول

الامبراطور الى فلسطين . وهذا الموقف يذكرنا بموقف الافضل شاهنشاه من جموع الحملة الصليبية الاولى للاراضي المقدسة ، فقد خرج من مصر بقواته وانتزع بيت المقدس من الاميرين سكمان وايلغازي بعد سقوط انطاكية بشهر واحد (٣٨) . فكلاهما تعاهد مع الصليبيين وفرط ببيت المقدس . فالافضل خرج من مصر وانتزع القدس من الاراتقة، بينما كان الصليبيون متوجهين اليه، والكامل خرج من مصر وانتزع القدس من الناصر داود صاحب دمشق ، بينما كان فردريك الثاني في طريقه للاراضي المقدسة . ومصر في الحملتين الاولى والسادسة كانت من القوة والمنعة ما تستطيع به دفع المعتدين والتصدي لهم والانتصار عليهم .

ولما شعر الكامل محمد ان حصار دمشق قد طال بقيادة اخيه الاشرف موسى ــ وكانا قد اتفقا على انتزاع املاك ابن أخيهما الناصر داود واقتسامها فيما بينهما ــ وان مشاعر الكراهية ضده قد ازدادت، حتى من داخل قواته (٣٩) . فقد عارضه امراء جيشه ومنهم الامير سيف الدين بن زكرى الذي اشار عليه ضرورة الاتحاد مع أخيه الاشرف وابن أخيه الناصر داود ، فيجتمع ثلاثتهم ويقاتلوا العدو (فاما لنا واما علينا ، ولا يقال عن السلطان انه اعطى الفرنج القدس) (٤٠) . وخشي الكامل ان يؤدي ذلك الى ثورة عارمة ضده تطيح بملكه ، فأسرع الى انهاء المفاوضات ، وعقد معاهدة مع الصليبيين في ٢٨ ربيع الاول ٦٢٦ هـ (٢٥ شباط ١٢٢٩ م) ، سلم بموجبها بيت المقدس اليهم (٤١) . بالاضافة الى الناصرة وبيت لحم واللد والقرى الممتدة على طول الطريق بين القدس وعكا (٤٢) . فالكامل محمد اتفق مع الصليبيين على القدوم الى الاراضي المقدسة ، وكانت له اطماعه في الاستيلاء على بلاد الشام واضعاف خصومه فيها ، فاستعان بالصليبيين من اجل ذلك . ويؤكد ابن واصل ذلك حيث يقول : (ورأى الملك الكامل انه ان شاقق الامبراطور ولم يف له بالكلية ان يفتح له باب محاربة مع الفرنج ويتسع الخرق ، يفوت عليه كلما خرج بسببه) (٤٣) . واما المؤرخ اللاتيني: Roger of Wendover فيذكر ان الحروب الداخلية انهكت الملك الكامل فآثر عقد المعاهدة مع الفرنج لمدة عشر سنوات بدون اراقة دماء (٤٤) .

ولم يغفر المؤرخون المعاصرون له هذه الزلة ، فنعتوه بالخيانة والتقصير واعتبروا ذلك العمل وصمة في الدين ، وحزن المسلمون لخروج القدس من ايديهم ، وانكروا على الملك الكامل هذا الفعل (٤٥) . وقامت المآتم في جميع بلاد المسلمين واستعظموا ذلك واكبروه واستشنعوه منه (٤٦) . وجلس سبط ابن الجوزي في الجامع الاموي يذكر للمسلمين ما جرى على البيت المقدس ، وذكر ما في تسليمه من الصغار للمسلمين والعار ، وعلق هو نفسه على هذه الحادثة في تاريخه فقال : (يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة) (٤٧) . ووصف

ابن واصل الناس في الجامع الاموي قائلا : (وكان يوما مشهودا وعلا يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم) (٤٨) .

اما تعليق الكامل على هذه الضجة التي اجتاحت العالم الاسلامي فقوله : (انا لم نسمح لهم الا بكنائس وآدر خراب ، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين) (٤٩) . وذكر ابن واصل ان الكامل اذا قضى غرضه واستتبت الامور له ، سيبادر الى تطهير البيت المقدس من الفرنج واخراجهم منه (٥٠) . ولكن تقديرات الكامل كانت خاطئة ، فقد توفي ولم يتمكن من استرداده ، او حتى مجرد التفكير في تحريره من الصليبيين ، وكانت وصمة عار في تاريخه .

استيلاء الكامل محمد على دمشق :

ارسل الكامل اخاه الاشرف لحصار دمشق ، وبقي هو في فلسطين (لتتميم امر الصلح مع الفرنج وليخلو سره من جهتهم) (٥١) . وبعد توقيع المعاهدة توجه الى دمشق ، وشددت قواته الحصار على الناصر داود الذي اضطر الى الاتفاق مع عميه وقررا له : (الكرك والشوبك واعمالهما ، والصلت والبلقاء والاغوار جميعها ، ونابلس واعمال القدس وبيت جبريل) (٥٢) . ثم دخلت قواتهما دمشق بين مشاعر السخط من أهلها ، ويصور ابن واصل مشاعر الدماشقة قائلا : (وما رأيت يومئذ احدا من الدمشقيين الا ورأيته في صورة من فجع بموت ولد أو اب) (٥٣) . ثم غادر الناصر داود دمشق ، وتسلم البلاد التي عينت له مكونا : امارة الكرك الايوبية ، وذلك في شعبان ٦٢٦ هـ (تموز ١٢٢٩ م) .

وقد لعبت هذه الامارة دورا له اهميته في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، وتحملت عبئا كبيرا في مقارعة الوجود الصليبي في فلسطين ، واتسعت رقعتها فشملت كل منطقة شرقي الاردن ، ومعظم الاراضي الفلسطينية (٥٤) . ثم كان لها دورها في مرحلة الصراع الذي نشب من جديد بين الملوك الايوبيين ، فأصبحت اذ ذاك تمثل مركزا لتوازن القوى بين القاهرة ودمشق . ويعبر اليونيني عن ذلك على لسان احد الامراء موجها كلامه للكامل : (انت واخوك - أي الاشرف موسى - مثل الميزان لا يرجح عليك ولا ترجح عليه ، وقد بقي بينكما الملك الناصر داود ، فالى أي جهة مال ترجحت) (٥٥) .

الناصر داود يحرر بيت المقدس :

نصت معاهدة الصلح التي عقدها الكامل محمد مع فردريك الثاني على تسليمه القدس شريطة أن لا تجدد اسواره . اما القرى الواقعة في منطقة القدس فتبقى بأيدي المسلمين ، ويعين وال عليها يكون مقامه في قريـة البيرة شمالي القدس (٥٦) . وبقي بيت المقدس بيد الفرنج طيلة حياة الكامل محمد ، ولم يفكر في استرداده منهم كما وعد ، علما بأنه كان يستطيع ذلك بما لديه من قوات . اضف الى ذلك انه جمع حوله معظم الملوك الايوبيين في الشام ، وحاول التوسع شرقا على حساب السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم ، وانتزاع ما بيده من بلاد (٥٧) . ولكنه لم يحاول بهذه القوات تحرير بيت المقدس من الفرنج .

وفي رجب ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) توفي الكامل محمد وبيت المقدس بيـد الفرنج . وبعد وفاته عاد التمزق والانشقاق الى صفوف البيت الايوبي ، فاهتبل الفرنج هذه الفرصة واخذوا يعززون وجودهم في المدينة المقدسة وفلسطين ، فأعادوا بناء بعض اسوار القدس ، ثم عمروا في غربيه (قلعة جعلوا برج داود عليه السلام من ابراجها) (٥٨) وشحنوا هـذه القلعة بالاجناد والعتـاد (٥٩) . وصاروا يضيقون على المسلمين ، ويحاولون السيطرة على اجزاء أخرى مـن فلسطين ، فقاموا بزعامة ثيوبالد الكمباني : Théopald of Champagne بتحصين عسقلان وغيرها اثر وصول جموع صليبية الى فلسطين (٦٠) ، واستولوا أيضا على قافلة تجارية اسلامية قرب نهر الاردن كانت في طريقها الى دمشق(٦١) . عندئذ رأى الملك الناصر داود صاحب الكرك وجـوب استنقـاذ القدس مـن الصليبيين ، فالمنهاجي السيوطي ذكر ان الناصر داود كان يعمل منذ قدومه الى الكرك (على استنقاذ بيت المقدس من أيدي الفرنج وتطهيره من أرجاسهم وادناسهم) (٦٢) . وهكذا قر عزمه على تحرير القدس خصوصا وان عمه الكامل الذي كان يؤيد بقاء القدس بيد الصليبيين قد توفي (٦٣) .

فحشد الناصر داود قواته ، وسار من الكرك باتجاه القدس (٦٤) ، وكان الصليبيون لايتوقعون هذا الهجوم ، سيما وان الخلاف والانقسام بين الايوبيين كان على أشده ، أما هم فكانوا في شغل شاغل بسبب احتفالهم (بيوم عيدهم الاكبر) (٦٥) . فحاصر الناصر داود بيت المقدس ، وقسم قواته الى فرق وضع كل فرقة في مكان اعده لها ، ثم نازل القلعة ونصب عليها المجانيق (٦٦) . وقبيل فجر ذلك العيد هجمت قواته على القدس فدهش الفرنج (وحاروا حين سمعوا

التكبير من كل جانب من جوانب البلد ، ووضع المسلمون فيهم السيف) (٦٧) . واجتاحت قوات الناصر القدس وذلك في جمادى الاولى ٦٣٧ هـ (كانون اول ١٢٣٩ م) ، وطهروه من الفرنج (٦٨) . أما القلعة فبقيت محاصرة مدة سبعة وعشرين يوما واخيرا (سلمت اليه بالامان ، ولما سلمت اليه هدمها ، وهدم برج داود عليه السلام) (٦٩) ، وسواها بالارض . ثم سمح الناصر داود للفرنج بمغادرة القدس (٧٠) ، وهذا التصرف يذكرنا بما فعله صلاح الدين الايوبي مع الفرنج عند تحريره للقدس في سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) .

ثم كتب الناصر من انشائه الى الخليفة العباسي المستنصر بالله يبشره بهذا الفتح المبين (٧١) ، كما أمر بكتابة البشائر الى سائر الممالك الاسلامية يخبرهم بفتح بيت المقدس وتحريره من الفرنج (٧٢) واتفق عند هذا الفتح وصول محي الدين ابن الجوزي رسول الخليفة العباسي للتوفيق بين الملوك الايوبيين(٧٣) وصحبته الشاعر جمال الدين بن مطروح، فقال ابن مطروح بهذه المناسبة قصيدة يمدح فيها الناصر داود ويمثله بالناصر صلاح الدين الايوبي ، نقتطف منها الابيات التالية :

المسجد الاقصى لـه عادة سارت فصارت مثلا سائرا
اذا غدا بالكفر مستوطنـا ان يبعث الله لـه ناصرا
فنـاصـر طهـره اولا وناصـر طهـره آخرا (٧٤)

اما المنهاجي السيوطي فقال : (ثم رجع الناصر بعد تمام هذا الفتح المبين الى الكرك ، وقد سطرت هذه المثوبة في صفحات حسناته ، وتواردت الالسن بالثناء له وشكر مساعيه المثوبة المحمودة) (٧٥) .

مناقشة وخاتمة :

يوجد في تاريخنا الكثير من السلبيات ، وعلينا ان لانركز في كتاباتنا على الوجه المشرق فقط ، فلدينا الجانب المظلم من هذا التاريخ . وباعتقادي أن دراسة تلك الجوانب المظلمة واجب قومي على باحثينا تقع مسؤولية تحمل عبئه ، لنأخذ من تلك الاحداث العظة والعبرة .

فبيت المقدس اصبح سلعة في فترة الصراع المرير بين الملوك الايوبيين في مصر والشام ، فكانوا لايجدون حرجا في عرضه على الصليبيين بين الفينـة

والاخرى . فالكامل محمد صاحب مصر عرض تسليم القدس الى الصليبيين في الحملة الصليبية الخامسة على دمياط ، مقابل جلائهم عن الاراضي المصرية ، ثم استدعاهم الى فلسطين وسلمهم بيت المقدس في الحملة الصليبية السادسة. اما الصالح اسماعيل صاحب دمشق فقد عقد صفقة مع الصليبيين بموجبها سلمهم القدس ، مقابل مساعدتهم له عسكريا في حربه ضد الصالح نجم الدين ايوب صاحب مصر ، بل زاد على ذلك فمنحهم طبرية وعسقلان وكوكب الهواء (٧٦) . وكان رسوله في اتمام الصفقة الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص الذي ذهب بنفسه (الى عكا واجتمع بالفرنج وقرر معهم أن يمضوا معه لحرب الملك الصالح فأجابوه الى ذلك) (٧٧) .

وقد سلطنا الاضواء في هذا البحث على الملك الناصر داود ودوره في مقارعة الصليبيين وتحريره لبيت المقدس سنة ٦٣٧ هـ . فالمراجع الحديثة صمتت عن دوره في تحرير البيت المقدس ، ولكنها ركزت على تحريره من قبل الخوارزمية سنة ٦٤٢ هـ بعد استدعائهم للشام من قبل الصالح نجم الدين ايوب . ونؤكد هنا ان الفرنج لم يكونوا في القدس خال دون الخوارزمية اليه ، فابن واصل ذكر ان الناس جفلوا بين أيديهم حال تقدمهم الى بلاد الشام ، حتى ان قوات الصالح اسماعيل عادت من غزة الى دمشق . أما عن فرنج القدس فقال : (وهربت الفرنج الذين كانوا بالقدس بعد استيلائهم عليه) (٧٨) . فقوات الفرنج خرجت من القدس حال سماعهم بمقدم الخوارزمية . اما نقمة الخوارزمية فوقعت على نصارى القدس دونما تمييز ، ويؤكد ابن واصل ماذهبنا اليه فيقول : (وهجمت الخوارزمية القدس ، وبذلوا السيف فيمن كان فيه من النصارى ، ولم يبقوا على احد منهم ، وسبوا ذراريهم ونساءهم ودخلوا كنيستهم المعروفة بقمامة)(٧٩) فنقمة الخوارزمية لم توجه ضد القوات الفرنجية ، بل الى اهالي بيت المقدس من النصارى ، لان الفرنج غادروا القدس حال سماعهم اجتياح الخوارزمية لبلاد الشام .

ولذا فاننا نرى ان القدس لم يحرره الخوارزمية سنة ٦٤٢ هـ كما هو متعارف عل[illegible] مراجعنا الحديثة ، فالتحرير يكون بقوة السيف ومواجهة قوات عسكرية وقتال مرير كما حدث سنة ٥٨٣ هـ عندما حرره صلاح الدين الايوبي ، وسنة ٦٣٧ هـ عندما حرره الناصر داود بن المعظم عيسى . وكل مافعله الخوارزمية هو اجتياح المدينة المقدسة والانتقام من سكانها النصارى ، تماما كما فعلوا بالمسلمين في بقية بلاد الشام ، عند اجتياحهم لها . وهذا ما أكده ابن واصل حيث قال : (فاجفل الناس بين ايديهم وما مروا بموضع الا ونهبوه وعاثوا

به) (٨٠) . اما عن المدة التي مكثها الفرنج في بيت المقدس بعد ان سلمها لهم الصالح اسماعيل ، فكانت شهورا قليلة ، فقد غادروها قبل وصول الخوارزمية للقدس .

وعلى ذلك فالملك الناصر داود صاحب الكرك هو الذي حرر بيت المقدس بعد ان سلمه الكامل محمد صاحب مصر للصليبيين ، وبقي القدس بيد المسلمين قرونا عديدة ، اللهم الا تلك الشهور القليلة التي اشرنا اليها في بحثنا هذا .

---

(١) ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٣ م ، ج ١ ص ٤١٩ — ٤٢٢

ابن واصل ، مفرج الكروب ، تحقيق حسنين ربيع وسعيد عاشور دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ م ، ج ٥ ص ١١٢

ويذكر اليونيني انه لقب بأبي المظفر ايضا (الذيل على مرآة الزمان ج ١ ، ص ١٢٦) .

(٢) ابن شاكر الكتبي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٩ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ج ٣ ص ٤٩٦

(٣) الكرك : بفتح الكاف والراء وكاف اخرى ، اسم لمدينة وقلعة مشهورة في طرف الشام من نواحي البلقاء من ناحية جبال الشراه ، وهي على سن جبل عال تحيط بها اودية سحيقة الا من جهة الربض (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ق ١ ص ٣٦٢) .

وعن اصل الكلمة ومشتقاته انظر للباحث : امارة الكرك الايوبية ، عمان ، ١٩٨٠ م ، ص ٤٥ وما بعدها .

(٤) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٥٨ وللباحث امارة الكرك الايوبية ، ص ٢٢٤

(٥) اليونيني ، الذيل على مرآة الزمان ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، الهند ، ١٩٥٤ — ١٩٦١ ، ج ١ ص ١٢٧

(٦) اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٨

(٧) اليونيني ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٢٧ — ١٤٨ ، ابن شاكر الكتبي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٩ ، ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٥ — ٤٠ ، وللباحث امارك الكرك الايوبية ص ٢٣١

(٨) اليونيني ، المصدر السابق،ج ١ ، ١٢٧ ، ابن شاكر الكتبي، المصدر نفسه ، ج١ ص٤١٩

(٩) ابن شاكر الكتبي ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ٤١٩ ، ومن المعروف ان الايوبيين كانوا على المذهب الشافعي ماعدا المعظم عيسى وابنه الناصر داود ، فقد كانا على المذهب الحنفي (ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢١١) .

(١٠) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢١٤

(١١) المصدر نفسه ، ص ٢١٨ ، ج ٥ ص ٣٨

(١٢) ابن شاكر الكتبي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٢٦ ، ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ١١٩ .

(١٣) اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٥

(١٤) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٤٢

ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية ، ج ٦ ص ٢٥٧

(١٥) معرة النعمان : سميت كذلك نسبة الى النعمان بن بشير الصحابي ، وهي مدينة كبيرة تقع بين حلب وحماه ، وتشتهر بالزيتون والتين والفستق (لي سترانج ، فلسطين في العهد الاسلامي ، عمان ، ١٩٧٠ م ، ص ٤٧٧) .

سلمية : هو حصن كالمدينة تقع على طرف البادية ومن سلمية الى حمص اربعة وعشرون ميلا (الادريسي ، القسم الخاص بفلسطين وسورية من نزهة المشتاق ، بون ، المانيا ، ص ٢٦) .

(١٦) سنجار : قرية تقع في اقليم جبل سمعان الى الغرب من حلب (لي سترانج ص ٤٠٣) .

اخلاط : او خلاط ، بلدة واسعة ذات خيرات كثيرة ، وهي قصبة ارمينية الوسطى ولها بحيرة جميلة (ياقوت ، ج ٢ ، ص ٣٨٠) .

(١٧) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢٧

(١٨) اربل : مدينة كبيرة تقع بين الزابين وتبعد عن الموصل مسافة يومين ولها قلعة حصينة (القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٦٦) .

(١٩) لمزيد من التفاصيل عن هذا التحالف انظر كتابي ، امارة الكرك الايوبية ص ٢١١ ــ ٢١٢

(٢٠) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، مخطوط مصدر طبع شكاغو ، ج ٨ ، ص ٤١٧ ، الذهبي : دول الاسلام تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، ج ٢ ، ص ١٣٢

وللباحث ، امارة الكرك الايوبية ، ص ٢١٠

(٢١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٤ ص ١٧٧

(٢٢) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٠٦

الذهبي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٢

Eracles, Recueil des Historiens, H. occ. Vol. 2, p. 528.

Michaud's, History of the Crusades, translated by : W. Robson, London, 1852, Vol. 2, P. 273.

Ibid, P. 273.

(٢٣)

(٢٤) الشوبك : قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وآيلة قرب الكرك . (البغدادي ، مراصد الاطلاع ، ج٢ ص ١٣٢) .

(٢٥) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٢٥

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٤٨٠

ابن واصل : المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٢٧

(٢٧) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٣٤

(٢٨) سعيد عاشور ، مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٧٢ م ، ص ٨٦

Runciman, A History of the Crusades, Vol. 3, PP. 183-184.

(٢٩) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٣٤

Roger of Wendover, The Crusade of Frederick II, From Christian Society and the Crusades, Sources of Medievall history, Edited by Edward Peters, Pennsylvania, 1971, P. 148.

Runciman, op. Cit. Vol. 3, P. 178.

(٣٠) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٤٢٤

Recueil des Historiens des Croisades H. Orientaux, vol. 4, P. 185.

(٣١) سبط ابن الجوزي ، المصدر نفسه ، ص ٤٢٧

(٣٢) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٣٤

الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ص ١٣٢

(٣٣) **Roger of Wendover,** op. Cit. P. 148.

(٣٤) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٣٣

(٣٥) **Philip of Novara,** The Crusade of Frederick II, Source of Medieval history. From Christian Society and the Crusades, Edited by Edward Peters, Pennsylvania, 1971, P. 157.

(٣٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ص ٤٧٧

ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٣٥

Eracles, Recueil des Historiens des Croisades, H. occ. Vol. 2, P. 372.

(٣٧) **Roger off Wendover,** op. op. cit., p. 151.

(٣٨) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ١٠٤

وللباحث بيت المقدس في الحملة الصليبية الاولى ، بحث القي في المؤتمر الدولي الثالث لبلاد الشام ، عمان ، نيسان ١٩٨٠ م .

(٣٩) **Michaud's,** op cit. vol. 2, P. 278.

(٤٠) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ص ٢٢٤

(٤١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ص ٤٨٢

ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٤٢

Roger of Wendover, op. cit. P. 152.

(٤٢) ابن واصل ، المصدر السابق ،ج ٤ ص ٢٤٢

اليونيني : الذيل على مرآة الزمان ، ج ١ ص ١٢٩

Philip of Novara, op. cit. P. 158.

Michaud's, op. cit. P. 278.

(٤٣) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٤٢
(٤٤) Roger of Wendover, op. cit. P. 152.
(٤٥) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٤٣
(٤٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٤٨٢
ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٤٣
(٤٧) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٤٣٢
(٤٨) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٤٦
(٤٩) ابن واصل : المصدر نفسه ، ج٤ ص ٢٤٣
(٥٠) المصدر نفسه ، ص ٢٤٣
(٥١) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢٤١
(٥٢) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٦
(٥٣) المصدر نفسه ص ٢٥٧
(٥٤) ابن واصل ، المصدر نفسه ج٥ ص ١٧٥ – ١٩٢
اليونيني : الذيل على مرآة الزمان ، ج ١ ص ١٣٨
(٥٥) اليونيني ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٣٨
(٥٦) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٤١
(٥٧) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج٥ ص ٧٤
(٥٨)ابن واصل : المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٢٤٦ . وانظر : اليونيني ، الذيل على مرآة الزمان ج ١ ص ١٤١
(٥٩) المنهاجي السيوطي : اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى ، مخطوط بجامعة برنستون ، اميركا رقم ٥٨٥٠ لوحة ٧٨ ب .
(٦٠) هاملتون جب ، صلاح الدين الايوبي ، ترجمة يوسف ابيش ، بيروت ١٩٧٣ م ، ص٢٢٢
(٦١) رانسمان ، ج ٣ ص ٣٧٣
(٦٢) المنهاجي السيوطي ، المصدر السابق لوحة ٧٨ ب .
(٦٣) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ص ٤٢٣
(٦٤) ابن شاكر الكتبي ، المصدر نفسه ، ص ٤٢٣
(٦٥) المنهاجي السيوطي : المصدر نفسه لوحة ٧٩ أ .
(٦٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٢٤٧
(٦٧) المنهاجي السيوطي : المصدر نفسه : لوحة ٧٩ ب .
(٦٨) هاملتون جب : المصدر السابق ، ص ٢٢٣
(٦٩) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٤٧ وانظر :
Michaud's, op.cit. voll. 2, P. 293.
Benvenisti, The Crusaders in the Holy Land, New York, 1972, P. 48.

(٧٠) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٢٤٧

(٧١) راجع نص هذه الرسالة في ملاحق كتابي (امارة كرك الايوبية) ص ٣٦١

(٧٢) المنهاجي السيوطي : المصدر السابق ، لوحة ٧٩ ب .

(٧٣) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٤٨

(٧٤) ابن واصل : نفس المصدر ، ص ٢٤٧

اليونيني : الذيل على مرآة الزمان ، ج ١ ص ١٤٢

ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ١ ص ٤٢٤

(٧٥) المنهاجي السيوطي : المصدر نفسه ، لوحة ٧٩ ب .

(٧٦) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٣٢

(٧٧) المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٣٣

(٧٨) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٣٧

(٧٩) ابن واصل : المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٣٧

(٨٠) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٣٦

* * *

التنظيم العسكري عند العرب المسلمين
فترة النشأة والتكوين

د . أحمد بدر

رئيس قسم التاريخ ـ جامعة دمشق

يرتبط انشاء الجيش المنظم بوجود الدولة ، أي ما افتقده العرب البدو قبل الاسلام ، لذلك لم يكن لهم جيش بالمعنى الدقيق للكلمة ، رغم ان حياتهم كادت تكون حرباً دائمة ، وقدراتهم القتالية واقدامهم في الحرب جعلت منهم محاربين مثاليين الى الحد الذي دفع ابن خلدون كي يجعل من انتصارهم في الحروب التي يواجهون فيها الحضر قاعدة مطردة وقانوناً عاماً يتجاوز مجتمعاً معيناً وعصراً محدداً . اما العرب المتحضرون الذين اقاموا ، دولاً ، كدول اليمن وتدمر والانباط ، فكانت لهم جيوشهم المنظمة التي خاضت حروباً هجومية او دفاعية معروفة ومشهورة شهرة مستفيضة .

وتقدم لنا القبائل التي تنتقل الى مرحلة التحضر وانشاء الدول نموذجاً لكيفية التدرج في ارتقاء التنظيم العسكري والتلازم بينه وبين درجة التحضر وكذلك انسجامه مع الشكل العام للسلطة في هذه المجتمعات . وهكذا ظهر لدى القرشيين المتحضرين في مكة نظام عسكري قائم على مهام متعددة وزعت على البطون ، شانه في ذلك شان تنظيماتهم الأخرى . اشتهر من هذه المهام القيادة وهي امارة الركب ، التي يقود صاحبها الركب في خروجهم للقتال أو للتجارة وكانت لبني أمية . وفي الحرب كانت لهم رايتهم العامة المسماة بالعقاب ، واسندت مهمة نشرها لبني عبد الدار . كذلك كانت قيادة الخيل في المعركة مهمة خاصة يدعونها ((الأعنة)) ، ومثلها ((القبة)) فكانوا اذا خرجوا للحرب ضربوا خيمة كبيرة يجمعون فيها ما يجهزون الجيش به ، وتشبه ما يسمى في عصرنا الحاضر بالمهمات الحربية ، وظهر لدى الفساسنة والمناذرة تنظيم اكثر تعقيداً ، اذ اشتهرت عند آل جفنة كتيبتا الملحاء والشهباء ، بينما برزت لدى المناذرة الأكثر تحضراً اسماء خمس كتائب ، كان احد ملوكهم يغزو بها ويوجهها

وهي : الشهباء التي تضم اخوته وبني عمه ومن معهم من اعوانهم وعبيدهم ، وقد سميت بذلك لبياض وجوههم ، واياهم عنى الاعشى بقوله « وبني المنذر الاشاهب » . اما الرهائن فرهائن العرب ، ودوسر اشتهرت بشدة بطشها حتى اصبحت مضرب المثل فيقال : ابطش من دوسر . واما الصنائع فبنو قيس وتيم اللات ، واما الوضائع فالف رجل من الفرس وجههم كسرى اعواناً فكانوا يقيمون سنة وينصرفون ليحل غيرهم محلهم .

الاساس الايديولوجي للحرب ـ الجهاد :

ظهر الاسلام كدعوة للايمان بما جاء من عند الله ، وبلغها رسوله الكريم ، ثم اضحى بعد الهجرة دولة مختلفة عن كل الدول التي قامت من قبل . فدولة الاسلام لم تكن دولة قبيلة او مملكة تخضع لأمر الشيخ او نزوات الملك ، وانما تعمل بأوامر الله التي يبلغها رسوله ، كذلك تكون مجتمع هذه الدولة من مجتمع لا تربط بين افراده طاعة الملك او رابطة الدم المتمثلة بالنسب والقرابة ، وانما رابطة الايمان ، وانعكس ذلك على طبيعة الحرب التي تخوضها وهدفها ، فلم تعد غزواً للآخرين بغاية الغنيمة والكسب كما هي الحال في حروب القبيلة ، كما لم تهدف الى توسيع الملك وتضخيم السلطان والاستزادة من الثروة والمال ، وانما حرباً لخدمة الدعوة وفي مصلحتها ، للدفاع عن معتنقيها وتأمين حرية انتشارها وسعياً لتطبيق شريعتها ، وهذه الحرب هي الجهاد وهو الشكل الوحيد من الحروب الجائزة ، اما ما عداها فهي حروب بغي وعدوان . وقد عبر ابن خلدون عن هذه الأفكار بقوله « اعلم ان الحروب وانواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله واصلها ارادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبيته فاذا تذامروا ... كانت الحرب ، وهو امر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الأكثر اما غيرة ومنافسة واما عدوان واما غضب لله ولدينه واما غضب للملك وسعي في تمهيده . فالأول اكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة . والثاني وهو العدوان اكثر ما يكون من الامم الوحشية الساكنين بالقفز كالعرب والترك والتركمان والاكراد واشباههم لانهم جعلوا ارزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم ... والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها . فهذه اربعة اصناف من الحروب الصنفان الاولان منها حروب بغي وفتنة والصنفان الاخيران حروب جهاد وعدل » .

تعني كلمة الجهاد لغوياً الجهد الموجه نحو هدف معين ، اما في الاصطلاح فتطلق على معنيين ، الاول مرادف للمجاهدة اي الجهد الموجه نحو الذات بهدف

الوصول الى الكمال خلقياً ودينياً . ويسمى بعض المفكرين المسلمين المجاهدة باسم الجهاد الروحي أو الاكبر ، مقابل المعنى الثاني للجهاد وهو المعنى الحربي الذي يسمونه الجهاد الجسدي أو الاصغر ، ومع ذلك فان الاستخدام الاكثر شيوعاً وعمومية هو الجهاد بمعنى محاربة اعداء الدين ، وهذا المعنى الاخير هو البارز والظاهر بشكل اوضح في الفترة الاولى التي نتحدث عنها . وقد نظمت الشريعة هذه العملية من نواح متعددة ؛ امراً بهـا وتوجهها وغايتها ، وهكذا كانت الآيات القرآنيـة التي تنزل على الرسول حسب مقتضى الحال تتوالي وتحتوي في جملة ما تحتوي عليه ، هذا الشكل من الجهاد في قتال ومحاربة اعداء الدين منذ الهجرة الى ما قبيل وفاة الرسول الكريم ؛ بدأت بآيات من سورة الحج وانتهت بآيات من سورة براءة ، ويتجلى فيها تطور متناسب مع اوضاع المسلمين خلال هذه الفترة ، اذ يتجلى الطابع الدفاعي عند ما كان المسلمون ضعفاء والهجومي عندما اصبحوا اقوياء ، وهكذا يرد في سورة الحج « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيـع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز » . وتدل آيات أخرى على ان الحرب حالة طارئة على الوضع الاساسي وهو السلم . ولا تنبغي مباشرتها الا باذن . ويخوضها المؤمن دفاعاً عن النفس والديار والعقيدة . وتظهر القاعدة نفسها في الرد بالمثل سواء عند التجاوز على حرمة الحياة والنفس أو حرمة الاماكن المقدسة . كما يظهر ذلك في آيات من سورة البقرة « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين» واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلونكم فيه . . . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عـدوان الا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليـه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين » .

بعد الانتصارات المدويـة التي احرزها المسلمون مثل فتـح مكة وبسط السيادة على الجزيرة العربية وتطلعهم لنشر الدين الاسلامي خارجها بتأمين حرية الدعوة له ، اصبح التشريع بدفعهم للهجوم كما يظهر ببعض آيات سورة التوبة التي تشير الى ضرورة العمل ضد المشركين مثل الآية ٣٨ « يا ايها الذين آمنوا ان المشركين نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . . . . » ثم

تنتقل للأمر بقتالهم حيث كانوا (الآية ٢٩) « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » وترد في الآيات مبررات ذلك مبرزة التناقضات في العقيدة بين المسلمين وبينهم واشراكهم بالله وكذلك ظلم كهنوتهم الاجتماعي ووقوفهم في وجه الاسلام « يا ايها الذين آمنوا ان كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم » . وفي الآية ٣٣ « يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون » . وتجعل الآية (٣٦) حكم غير المسلمين واحداً على اختلاف معتقداتهم ودياناتهم .... وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين » . وهناك اتجاه آخر يحاول ان يجعل الأمر بمحاربة أهل الكتاب غير مطلق ولا يخص جميعهم ، اذ يرد في الآية « من الذين اوتوا الكتاب ... » ومن هذه للتبعيض تدل على البعض الذي بغى واعتدى بدليل الآيتين السابقتين. وقد نزلت هذه الآيات في اجواء التوجه لقتال الجماعات والقبائل التي تصدت لقوافل المسلمين في الشمال وتجمع بعض القبائل لغزو المدينة ، وكذلك قتل مبعوث رسول الله الحارث بن عمرو الى ملك غسان كما قتل فروة الجذامي وهو عامل من عمال الروم أسلم (٤) . ومن ناحية اخرى فقد استثنت الآيات من القتال المشركين المرتبطين بعهد مع المسلمين كما ورد في الآية ٤ « الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقضوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم احداً » .

وقد اعتبر الجهاد بالمعنى الحربي فرضاً استناداً للآية الكريمة (٢١٦ سورة البقرة) « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ...) لكنه فرض مختلف عن غيره من الفروض الدينية الاخرى لكونه فرضاً على الجماعة لا على الفرد كالصلاة . فاختلف المجتهدون والفقهاء حول صفته ، هل هو فرض عين ام فرض كفاية ؟ واعتبرته الغالبية فرض كفاية استناداً الى الآية ١٢٢ من سورة التوبة « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » والآية ٩٤ من سورة النساء التي يرد فيها ما ينص على أجر الطرفين القائم بالجهاد والقاعد عن ضرورة « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير اولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وانفسهم وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجراً عظيماً » . كما ان افعال الرسول الكريم وأعماله تفيد ذلك فلم يخرج قط للجهاد الا وترك في المدينة بعض الناس كما يروى عن انس قوله « كان النبي (ص) في غزاة فقال ان اقواماً بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً الا وهم معنا فيه حبسهم العذر » (٥).

ولم يلبث الفقهاء ان قاسوا على الاحكام الواردة في القرآن الكريم والحديث في القضايا المستجدة وتحديد ما بدا من الاحكام عاما بالنسبة لها ، ومن ذلك ما يتعلق بقضية كون الجهاد فرض كفاية اذا قام به البعض سقط عن البعض الآخر : فمن هو هذا البعض الذي يقوم به ؟ وما هو المعيار الذي يحدد هذا البعض ؟ فربطت الغالبية بين هذه البعض وتحقيق الغاية فقالت انه كل من يلزم لتحقيقها وهكذا تتوسع حدود البعض أو تضيق تبعاً لوضع الحرب ، حتى انها تشمل الجماعة كلها في حالة مدينة محاصرة او جماعات مقيمة على الحدود وبالتالي تجعل الفارق يتلاشى بين فرض العين وفرض الكفاية .

تبقى الى جانب آراء الاغلبية هذه آراء متباينة لجماعات متميزة ضمن اطار المسلمين كالخوارج الذين يجعلون الجهاد فرض عين ، وقامت في الطرف الآخر والجانب المعاكس جماعات تجعله فرض كفاية وفي حدود دنيا . وربما تأثر هؤلاء بالجو المحيط من فقدان عملية محاربة اعداء الاسلام لشيء من عنصرها الروحي لحساب الميل الى جمع الغنائم ، وكذلك لاستقرار المجتمع النسبي وانغماس قطاعات واسعة منه في الفعاليات الاقتصادية ، وهكذا ينسب لعطاء المترفى سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ — ٣٣ م رأي يشدد على ضرورة التمسك بتحريم القتال في الشهور الاربعة الحرام . كما ينسب لسفيان الثوري المولود سنة ٩٧ هـ/٧١٥ رأي يقول بأن الجهاد فرض في حالة الدفاع فقط ، الاانه في حالات الهجوم مندوب ، وفي وقت متأخر اكثر تبني الجاحظ رأي سفيان الثوري هذا ،كما ان عبد الله بن الحسن يرى ان الجهاد مجرد تطوع (٦) .

مهما يكن من امر موقع الجهاد بين الفروض الدينية فان كلا من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية تحض المسلمين عليه وتعد القائمين به بالاجر والثواب والمتخلفين والقاعدين عنه بالعقاب والعذاب ، فعندما دعا الرسول (ص) الناس لغزوة تبوك وتثاقلوا لما هم فيه من عسر وشدة وحر تنزلت الآيات التي تحض على هذا الأمر ومنها ، الآية ٣٨ من سورة التوبة « يا ايها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل » وفي الآية التالية يأتي الوعيد « الا تنفروا يعذبكم عذاباً اليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً ان الله على كل شيء قدير » .

اما ثواب المقاتلين فقد نصت على جوانبه آيات كثيرة ، فهم الاعلون ولهم الرحمة ونصيبهم الجنة مقابل ما يبذلون ومن الامثلة عليها،الآية الكريمة(٢٠و٢١) من سورة التوبة « الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم اعظم

درجة عند الله واولئك هم الفائزون» «يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم » . والآية ١١١ « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » . واستثنت الآيات من هذه الاوامر اولئك القاعدين والمتخلفين لسبب قاهر عددت الآيتان ٩١ ــ ٩٢ من سورة التوبة انواعه بالقول «-ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين اذا ما آتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزناً لا يجدوا ما ينفقون » . وعلى ذلك نصت الآية ١٧ من سورة الفتح « ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج » .

وتأتي الأحاديث النبوية لتصور جوانب اخرى مما يحيق بالقاعد والمتخلف من عقاب وما ينتظر المجاهد والمستشهد من صور الاجر واشكال الثواب مثل الحديث الذي رواه مسلم وابو داود والنسائي قوله (ص) « من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق » بينما تجب الجنة لمن قاتل ولو قليلا وذلك في قوله : « اغزوا في سبيل الله فمن قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة » كما ان خطاياه تغفر « قال رجل يا رسول الله ارأيت ان قتلت في سبيل الله اتكفر عني خطاياي . فقال : نعم وانت صابر محتسب مقبل غير مدبر » . ويصل الشهيد الى مرتبة الشفاعة كما في قوله (ص) « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » .

من ناحية اخرى تحض الآيات القرآنية على الثبات في الحرب والتعاضد والطاعة « يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين » (آية ٤٥ و ٤٦ من سورة الانفال) ، كذلك وصفت الآية (١٥ من سورة الحجرات) الطريقة المثلى للتقدم للحرب « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وتجعل جهنم وبئس المصير لمن ينهزم في الحرب كالآيتين (١٥ ــ ١٧) « يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

ومن ناحية اخرى احتوت الآيات القرآنية ما اتخذه الفقهاء تحديداً للثبات واعتباره غير مطلق « يا ايها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون

صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا الفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » فبنى عليها ان على المسلم ان يقف لعشرة من الكفرة ، ثم خفف هذا الحد الى اثنين في الآية « الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين » وهكذا يكون على المسلم الا ينهزم امام مثليه من الاعداء . لكن تطور القتال وتباين قوة الاسلحة وفعاليتها جعل الفقهاء يوجهون انظارهم نحو عناصر اخرى غير العدد لوضع حدود للثبات . وهكـذا ذهب المـاجشون الذي اعتمد على قول لمالك ابن انس « ان الضعف انما يعتبر في القوة لافي العدد ، وانه يجوز ان يفر الواحد عن واحداذاكان أعتق جواداً منه وأجود سلاحاً وأشدقوة» .

من ناحية اخرى حددت الآيات القرآنية والاحاديث ما هو جائز وما هو محرم من النكاية والاذى الذي يلحق بالعدو ، والذي يمكن تصنيفه الى ما يمكن ان يقع في الاموال والاملاك أو في النفوس والرقاب . اما في النفوس والرقاب فتقول اية كريمة « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » ، وعند الاسر يمكن ان يقتل او يفتدي او يمن عليه اسوة بما فعل الرسول الكريم ، ويستثنى من الاستعباد والقتل الرهبان لقول الرسول الكريم «فذرهم وما حبسوا انفسهم له» كما يروى ان الرسول لم يستعبد احرار ذكور العرب . وهناك رأي آخر لايرى ان امر الله وسنة الرسول ورد فيها شيء عام هو المذكور ، وورد الى جانبه ما يخصصه فضرب الرقاب العامة تخصصها آية اخرى هي « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » وبالتالي فهي تستثنى غير المقاتلين ، ويدعمون رأيهم بما اثر عن نهي الرسول الكريم عن قتل اصحاب الصوامع والعاجزين والأطفال والنساء وهي اصناف غير مقاتلة ، فقد روى ابن عباس قول الرسول عند بعث جيوشه « لاتقتلوا أصحاب الصوامع » وروى أنس ابن مالك « لاتقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلا صغيراً ولا امرأة ولا تغلوا » . ويلحق بهؤلاء المستخدمون أو الاجراء (العسفاء) والفلاحين ، فقد روى رباح بن ربيعة « انه خرج مع رسول الله (ص) في غزوة غزاها فمر رباح واصحاب رسول الله (ص) على امرأة مقتولة فوقف رسول الله (ص) عليها ثم قال : ما كانت هذه لتقاتل ، ثم نظر في وجوه القوم فقال لاحدهم « الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفاً ولا امرأة » وطبق عمر الشيء نفسه اذ روى عن زيد بن وهب قال « أتانا كتاب عمر رضي الله عنه وفيه لاتغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً واتقوا الله في الفلاحين » (٨) .

وفي مجال النكاية في الاملاك اباح الرسول الكريم اتلاف ما يقوي الاعداء . فقد قطع كروم اهل الطائف وكان ذلك احد اسباب استسلامهم ، وأمر في حرب النضير بقطع نخيلهم ونزلت الآية مؤيدة لفعله « ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين » . وقد قاس الفقهاء فيما بعد على ذلك واباحوا اتلاف اشياء اخرى تؤدي الى اضعاف الاعداء كتغوير المياه عليهم أو قطعها (٩) .

انهاء الحرب :

ورد في القرآن الكريم آيات تجعل الحرب ضد الكفار مستمرة لا تنتهي الا باسلامهم او دفعهم الجزية كما في الآية (٥) من سورة التوبة « فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » وفي الآية (١٦) « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين » . واذا لم يسلموا « حتى يؤتوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . لكن الآية (٦٥) من سورة الانفال تجعل بالامكان انهاء الحرب بالسلم والموادعة اذ تقول « ان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه السميع العليم » وتسير السنة النبوية على النهج نفسه ، اذ كان الرسول الكريم يطلب من قواد سراياه ان يخيروا العدو بين ثلاث الاسلام او الجزية او الحرب ، لكنه وادع المشركين في صلح الحديبية . وقد اختلف الفقهاء بعد ذلك حول جواز مهادنة او مسالمة اعداء الاسلام ، وقد اعتبر الشافعي الآيات التي تدعو الى الجهاد ضد اعداء المسلمين حتى اخذ الجزية او الاسلام ناسخة لآيات سورة الانفال التي تجيز الصلح ، اما الاحتجاج بفعل الرسول في الحديبية فيصح على المهادنة الموقتة لا المسالمة ويجب الا يتجاوز امد هذه المهادنة مدة استمرار موادعة الحديبية . وقد شهد عصر الرسول والخلفاء الراشدين تطبيق هذه الموادعة مع جماعات مقابل شيء يدفعونه للمسلمين دون خضوع لهم مثل موادعة الرسول الكريم لاهل نجران (١٠) . وموادعة المسلمين في خلافة عثمان أهل النوبة عندما سألوا عبد الله بن سعد بن ابي سرح الصلح والموادعة « فأجابهم الى ذلك على غير جزية لكن على هدية ثلاثمائة رأس كل سنة وعلى ان يهدي المسلمون اليهم طعاماً بقدر ذلك » ووجد في عهد معاوية نموذج آخر عندما اعترف باستقلال امراء ارمينيا وفي حكم بلادهم حسب قوانينهم مقابل دفع كمية من المال والعين . وبناء على ما تقدم قسم الفقهاء العالم كله الى ثلاثة مناطق : ديار الاسلام حيث تسود

احكام الشريعة الاسلامية ويكون الحكم للمسلمين دون ان يعني ذلك كون المجتمع مسلماً بكامل افراده لوجود اتباع لديانات اخرى ايضاً ضمن صفوفه . ومقابل هذه الديار توجد دار الحرب التي لا سيادة للمسلمين عليها ، وبينهما تقع دار العهد التي لا تطبق فيها أحكام الشريعة ولها استقلالها وليس عليها للمسلمين سوى سيادة غير مباشرة يعبر عنها بدفع كميات من المال او العين تقوم مقام الجزيـة .

الجيش

عناصر الجيش :

كونت نواته تلك المجموعات الصغيرة المعروفة بالسرايا التي كان يرسلهـا الرسول الكريم قبل موقعة بدر للاغارة على قوافل القرشيين ، وكانت كلها من المهاجرين ، لان بيعة أهل المدينة وما نصت عليه الصحيفة الناظمة للعلاقات بين الرسول (ص) من جهة وبين أهل المدينة من جهة ثانية كانت دفاعية . وعند الاستعداد لخوض عمار معركة بدر انضم الانصار . مما جعل الجماعة الاسلامية في المدينة بكاملها جماعة محاربة يتوجب على افرادها المشاركة في الجهاد بشكل أو بآخر حسب اوامر الرسول (ص) ولم يبق من فاصل بين مجتمع وجيش ، حتى ان اولئك المدنيين الذين انفصلوا عن الجيش المتوجه للمواجهة في احد اعتبر ذلك منهم علامة على عدم الاخلاص للاسلام وهم المنافقون (١٢) . وفيما بعـد سارت الامور نحو وجود هـذا التمايز بقـدر ما كان الاسـلام يتقـدم وينتشر بين القبائل العربية ، اذ اصبح هناك مسلم مجاهد وآخر غير ذلك دعي بالاعرابي . وقد ثبت عن الرسول الكريم انه اذا بعث سريـة في الجزيرة قال لاميرها « اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال او خلال فأيتهن ما اجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين واعلمهم انهم ان فعلوا ذلك ان لهم ما للمهاجرين وان عليهم ما على المهاجرين ، فان أبوا واختاروا دارهم فاعلمهم انهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب الا ان يجاهدوا مع المسلمين » (١٣) . استمر هذا التمايز وتضخم مع الزمن ، ففي زمن ابي بكر لجأ الى التكليف ، فحيث كان انقسام بين القبائل حول الردة سنة ١١ هـ كلف من بقي على الاسلام والطاعة بمواجهة المرتدين من بني قومه ، ولتشكيل قوات حملات لمحاربة مناطق الردة الكبرى اعتمد على أهل المدينة اولا ثم كلف في المناطق الاخرى ممن لم يلتحق طوعاً في الجهاد . كما هو

الحال في الطائف حيث كتب الى اميرها عثمان بن ابي العاص ان يضرب بعثاً على أهل الطائف على كل مخلاف بقدره . كما كتب الى عتاب بن اسيد ان « اضرب على أهل مكة وعملها خمسمائة مقو « القوي بنفسه ودابته » (١٤) .

عندما بدأت الفتوحات في عهد أبي بكر . اثر اخضاع الجزيرة العربية كلها ، لم يرض بالاستعانة بأحد من أهل الردة فيها ، الا ان الحاجة الجأت المسلمين فيما بعد للاستعانة بهم والاستفادة من طاقاتهم . وهكذا سار المثنى بن حارثة الشيباني نحو أبي بكر ليستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبته وتجلى ندمه من أهل الردة ممن استعظمه العدو . وليخبره أنه لم يخلف احداً انشط الى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم . لكنه وجد ابا بكر مريضا لم يلبث ان توفي وقام عمر بالسماح بالاستعانة بأهل الردة في الفتوح . مفسحا المجال بذلك لمشاركة كل ابناء القبائل في الجزيرة بالفتح .

تبع ذلك توسع جبهات القتال وتعددها مما خلق حاجة ووفر الامكانيات في الوقت نفسه للاستعانة بجماعات غير عربية . ولعل اول عملية انضمام قوى من خارج الجزيرة العربية الى صفوف الفاتحين تمت في جنوب غرب ايران الحالية ، حيث حصل اتصال بين أبي موسى الاشعري قائد الجيش الفاتح وسباه الاسواري قائد مقدمة يزدجرد في المنطقة ، الذي ادرك على ما يظهر صعود نجم العرب المسلمين وامكانياتهم على احراز نصر مؤكد . فعرض هذا الاخير على أبي موسى الانحياز بقومه الاساورة الى جانب العرب المسلمين بصفة حلفاء لهم على الا يتدخلوا في المنازعات التي تنشب بينهم ويكون لهم النزول بحيث شاؤوا من ارض العرب وان ينسبوا للقبيلة التي يختارونها كأحلاف لها وان ينالوا شرف العطاء ، أي الفي درهم . ولم تلبث جماعات محاربة اخرى في الجيش الفارسي ان حذت حذو السابقين مثل السيابجة والزط والاندغار . واكثرهم ممن سبى الفرس من أهل السند وادخلوه في عداد جندهم ومقاتليهم . ثم اسكنهم ابو موسى في البصرة مع الاساورة الذين سبقوهم في النزول وحفروا قناة خاصة بهم دعيت بنهر الاساورة (١٥) . واصبح الجميع احلافاً لقبائل تميم النازلة في هذه المدينة ؛ فصارت الاساورة في بني سعد والزط والسيابجة في بني حنظلة ، ومعهم شاركوا في الفتوحات أيضاً حتى خراسان الواقعة في الشمال الشرقي من أيران ، وبرز الاساورة في المعارك بمهارتهم في رمي النشاب . ومع ذلك لم تستطع هذه الاقوام الغريبة ان تنأى بنفسها عن النزاعات بين العرب عندما تعمقت لتبقى محافظة على احد شروط اتفاقها مع العرب بانضمامها لهم ونزولها حيث شاءت ومحالفة من ارادت . فقد اضطرت جماعة من السيابجة

في البصرة الموكلة ببيت المال للخليفة الراشدي علي بن ابي طالب اثناء فتنه الجمل للبقاء الى جانبه ورفضوا تسليم بيت المال الى جماعة عائشة ام المؤمنين الذين قتلوهم . وفي رواية للطبري انه كان في صفوف جيش علي زط وسيابجة . كذلك ظهر السيابجة في صفوف المتقاتلين في فتنة ابن الاشعث . كل هذا برر للامويين نفي اغلبهم من العراق الى جهات متعددة (١٦) . باعتبارهم خالفوا شرط التحالف الذي ينص على الا يعينوا العرب على بعضهم بعضا . كذلك سار مع عمرو بن العاص من الشام الى مصر لفتحها بعض الروم واليهود دعوا باسم الحمراء . ويظهر انهم تحالفوا مع القبائل العربية هنا على شاكلة تحالف جماعات الفرس والقبائل العربية في البصرة . وكان هؤلاء ثلاث جماعات « بنو تبه وروبيل والازرق وكانوا ممن سار مع عمرو بن العاص من الشام الى مصر من عجم الشام ممن كان رغب في الاسلام من قبل اليرموك ومن أهل قيسارية » . وكان عدد من رافق عمرو من بني تبه مائة رجل ومن بني الازرق اربعمائة رجل ومن بني روبيل الف رجل (١٧) ولم يخل جيش عمرو بن العاص في مصر من وجود جماعة فارسية اذ ينقل ابن ماكولا عن ابن يونس قوله « ان سنبخت الفارسي كان بمصر وكان على عرافة الفارسيين وكان في شرف العطاء». وفي أقصى الشمال عند التوغل في ارمينية باتجاه الخزر لمحاربتهم في عهد هشام بن عبد الملك الذي ولاها لاخيه مسلمة . فسالمه ملوك الجبال فصار اليه كما يقول البلاذري « شروانشاه وليرانشاه وطبرسرانشاه وفيلانشاه وخرشانشاه وصار اليه صاحب مسقط » وكان هؤلاء يحاربون معه مقابل ألا يفرض عليهم تقديم شيء من الجزية او العين . وقد حدد دور كل منهم في الحرب وظهر عند تولية مروان بن محمد في زمن هشام ذاته . الذي « جعل على صاحب شروان ان يكون في المقدمة ، اذا بدأ المسلمون بغزو الخزر وفي الساقة اذا رجعوا ، وعلى فيلانشاه ان يغزو معهم فقط وعلى طبرسرانشاه ان يكون في الساقة اذا بدأوا وفي المقدمة اذا انصرفوا » (١٨) .

بدأ اا ' في الحاق المحاربين الغرباء بالجيش الفاتح في اذربيجان منذ بداية فـ ـها زمن عمر بن الخطاب ، وذلك مقابل اعفاء من يحشد الفاتحون من الجزية في عام حشده ، اذ يرد في كتاب امان عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب لاهل اذربيجان من جملة واجباتهم « ان يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ... ومن حشد منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة » (١٩) . وفي الامان الذي قدمه سراقة بن عمرو عامل الخليفة نفسه للارمن ان على هؤلاء المشاركة في الدفاع عن

مواقعهم بأن « ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحاً ، على ان يوضع الجزاء عمن اجاب الى ذلك ، والحشد عوض عن جزائهم ومن استغني عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على اهل اذربيجان (٢٠) .

ظلت قاعدة الاستخدام لابناء البلاد المفتوحة مستمرة الى زمن عمليات فتح ما وراء النهر ، ولو انها تقدمت باتجاه تحديد اعداد ثابتة من كل بلد عوضاً عن ترك اعداد المجندين خاضعة للظروف مقيدة بالضرورات الآنية التي يفرضها وضع معين ، وتذكر هذه الاعداد في شروط الامان والصلح لكل منطقة او مدينة ، كما يرد في الروايات ما يفيد مشاركة هؤلاء المجندين في فتح المناطق التي تلي بلادهم وكلما توغل الفتح اكثر في العمق كانت الاعداد المطلوبة اكثر . وهكذا فرض قتيبة بن مسلم الباهلي على أهل بخارى وكَس ونسف خوارزم عشرين الفاً وتفيد الرواية التي تتحدث عن حصار قتيبة لسمرقند عام ٩٣ هـ انه « ناصحه من معه من اهل بخارى وخوارزم فقاتلوا قتالا شديداً وبذلوا انفسهم » (٢١) . وعند ما صالح قتيبة اهل سمرقند فرض عليهم ثلاثين الفاً « ليس فيهم صبي ولا شيخ ولا عيب ، ويفهم من اجزاء اخرى من الرواية ان هذه الاعداد كانت تخدم غرضاً مزدوجاً ، فهي محاربة ورهائن في الوقت نفسه اذ يقول قتيبة بعد دخول سمرقند « الآن ذلوا حين صار اخوانهم واولادهم في ايديكم » (٢٢) .

بينما كانت عملية الحاق ابناء المشرق وسكان البلاد المفتوحة بالجيش العربي الفاتح تأخذ مجراها في المشرق ، كان يجري الامر نفسه في الجناح الغربي من ديار العرب والاسلام ويقوم الفاتحون بضم اعداد من ابناء القبائل المغربية التي دعاها مؤرخونا القدماء بالقبائل البربرية جرياً على التسمية الكلاسيكية لها . وقد جرى الضم لاعداد من التجمعات القبلية الاساسية في المغرب وهي زناته وصنهاجة ومصمودة . اذ يحدثنا ابن عذاري انه كان « مع حسان بن النعمان جماعة من البربر استأمنوا اليه فلم يقبل منهم الا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر الفا يجاهدون مع العرب . فأجابوه وأسلموا عليه فعقد لولدي الكاهنة لكل منهما على ستة آلاف فارس ، واخرجهم مع العرب يتجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر »

وقد عبرت عن هذا التعاون أو الاخوة في السلاح حسب التعبير الحديث بين ابناء القبائل المشرقية الفاتحة وبين قبيلة جراوة المغربية من تجمع زناته ،

تعبيرا رمزيا اسطورة حيكت حول الكاهنة تقول : « بأن الاسير العبسي خالد بن يزيد كان في جملة اسراها فقالت له يوما : « ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع وأنا اريد ان ارضعك فتكون أخا لولدي ، وكان لها ابنان أحدهما بربري والاخر يوناني ... وقالت له نحن جماعة البربر لنا رضاع ! اذا فعلناه نتوارث به فعمدت الى دقيق الشعير فلتته بزيت وجعلته على ثدييها ودعت ولديها وقالت كلا معه على ثديي ففعلا ، فقالت قد صرتم اخوة (٢٣) . ويظهر ان قبائل زناتية اخرى أي من نفس التجمع ، مثل بني يفرن سلكوا مسلك اخوتهم في التجمع لانهم بقوا بعد قرون يقولون انهم موالي عثمان بن عفان الذي يعتبر فاتحة وبداية السلطة الاموية . بعد حسان بن النعمان برز موسى بن نصير كقائد منتصر في فتح المغرب ، وقد اتبع فيه سياسة قائمة على مهاجمة القبائل في مواطنها وكي يأمن بقاء هذه القبائل الكثيرة الانتقاض على ولائها صار يأخذ منها رهائن كما فعل في كتامة وهي القبيلة التي تنتمي الى التجمع القبلي الثاني صنهاجة ، وعندما قدم عليه وفدها « ولى عليهم رجلا منهم وأخذ منهم رهائن من خيارهم » .. وفي المغرب الاقصى حيث ينزل في مرتفعاته وجباله التجمع القبلي الثالث مصمودة، تكرر ما حصل في اجزاء المغرب الاخرى اذ « حمل أبو مدرك زرعة بن ابي مدرك رهائن المصامدة ، جمعهم موسى مع رهائن البربر الذين اخذهم من افريقيا والمغرب وجعل عليهم مولاه طارقا ودخل بهم جزيرة الاندلس (٢٤) .

اضافة لهؤلاء الملتحقين بالجيش العربي الاسلامي أو بالخدمة كحلفاء للعرب شارك في الفتوح أيضا عنصر آخر هو عنصر العبيد ، الذين حاربوا الى جانب اسيادهم . وقد يمن عليهم هؤلاء الاخيرون بالحرية ليصبحوا موالي لهم ولكنهم موالي عتاقة مختلفين عن موالي الحلف كحلف الاساورة مع تميم .

وهذا ما يفسر لنا ماحدث في الصراع بين العرب والموالي في مناطق من الدولة عندما عمم العرب على الموالي كلهم وصف العبيد ونعتوهم ببني العبيد واعتبروا مشاركتهم لهم في الفيء غبنا لا يحتمل ، كما فعل اشراف الكوفة تجاه المختار* بن ابي عبيد عندما استنكروا عمله في مشاركة الموالي لهم في فيئهم . كذلك كان أبناء القبائل المغربية في المغرب والاندلس يشكون من عدم ادخالهم في ديوان العطاء وعدم مشاركتهم في الفيء ، ولم يجد عبد الرحمن الداخل عندما أراد التمكين لنفسه في الاندلس وتوسيع قاعدة الدعم لدولته وسيلة افضل من ادخال ابناء هذه القبائل في الديوان (٢٥) .

كانت عدة الرقيق كبيرة لدى بعض القادة ، فقد استرق عبيد الله بن زياد في غزوة لمنطقة ما وراء النهر اربعة آلاف سنة ٥٤ هـ واسكنهم البصرة (٢٦)

وربما تجاوز موسى بن نصير الجميع في عدد من استرقهم واصطنعهم مما جعل بعض الكتاب يطلقون العنان لخيالهم في سرد قصص عنهم كتلك التي يوردها ابن قتيبة « قال وذكروا عن بعض المصريين ، ان رجلا منهم اخبرهم ان يزيد قال لموسى ذات ليلة ، وقد سهر سهرا طويلا : يا أبا عبد الرحمن ، كم تعد مواليك واهل بيتك ؟ فقال كثير . قال : يكونون الفا ؟ قال له موسى : نعم والفا الفا حتى ينقطع النفس ، لقد خلفت من الموالي ما أظن ان احدا لايخلف مثلهم » (٢٧) . لكن هذا الرقيق لم يكن ليصب كله في مجرى القوى المحاربة اذ كان فيه الجواري وفيه من يستخدم في الاعمال الخاصة بالسادة ، حتى ان احد فاتحي ما وراء النهر جعل الرهن لديه يعمل في المدينة بالزراعة مما جعل افراد الرهن الذين كانوا من عليّة القوم يقتالونه (٢٨) .

من ناحية اخرى يطرح السؤال التالي نفسه ، وهو الى أي حد كان دور الموالي الملتحقين بالجيش العربي ، بصنفيهم من موالي الحلف وموالي العتاقة ، فعالا وحاسما ؟ وتجيب الوقائع على هذا التساؤل ان هذا الدور أصبح فاعلا وحاسما ، اواخر القرن الاول الهجري وفي طرفي الدولة القصيين ؛ اقصى الشرق واقصى الغرب . فقد استخدموا بأعداد كبيرة في فتوحات ما وراء النهر وفي ارمينيا وبرز دورهم كقوى تعمل تحت امرة قادتها أو امرائها وتحتل موقعا خاصا بها في الجيش كمقدمة أو ساقة . وفي المغرب كانت فعالية دورهم أكبر واوضح لدرجة ان الحملة الاولى التي حطمت قوة القوط الضاربة في الاندلس وباشرت فتحها مكونة في غالبيتها من المغاربة الذين يقودهم طارق بن زياد .

أما في الفترة الاولى وفي قلب الدولة فكان عدد الموالي وبالتالي دورهم متواضعا ، فقد لاحظنا اعداد الروم الذين رافقوا عمرو بن العاص في فتح مصر ، كذلك يذكر البلاذري عن جماعة السيابجة الذين حالفوا العرب في جنوب شرق ايران « انهم اربعون ويقال اربعمائة » . واذا كان هذا الرقم يمثل عدد جماعة انضمت للعرب في الفترة الاولى في عصر الخلفاء الراشدين فان الاعداد العاملة ضمن الجيش الدائم في قواعد المركز ظل ضئيلا بالقياس الى اعداد ابناء القبائل العربية . ونجد مثلا على ذلك في احدى روايات الطبري التي تتحدث عن اعداد جند البصرة في خراسان في فترة خلع قتيبة وتقول « من أهل العالية تسعة آلاف وبكر سبعة آلاف وتميم عشرة آلاف وعبد القيس اربعة آلاف والازد عشرة آلاف .... والموالي سبعة آلاف عليهم حبان من الديلم أو من خَراسان » بهذا وباستخدام هذا الرقم كمؤشر ، يمكننا القول ان الموالي بعناصرهم المختلفة لم يزد اسهامهم في جند قاعدة من قواعد قلب الدولة عن اسهام قبيلة عربية واحدة من القبائل الست .

عدد الجيش :

مما مر نستنتج أن تحديد اعداد القوات المحاربة في الدولة العربية الاسلامية ، ليس بالامر السهل لكون البعض جندا دائمين وقيام البعض بالحرب في اوقات معينة وظروف محددة . لكن من الممكن تقديم ارقام لانستطيع الجزم بصحتها الاكيدة وانما يمكن الركون اليها واعتبارها قريبة من الصدق لكون مصادرها ذات صلةبالدواوين التي تسجل العطاء،وهي الارقام المتعلقة باعدادالجند الدائميين أو النظاميين الذين يتناولون العطاء ويحوزون على نسبة من الغنيمة . وقد سارت هذه الاعداد في خط متصاعد منذ الهجرة حتى ذروة موجة الفتوحات في العصر الاموي . اذ لم تتجاوز العشرات في زمن بعث الرسول (ص) للسرايا عندما كان القتال خاصا بالمهاجرين فقط ، ثم قفز الرقم الى عدة مئات بعد مشاركة الانصار ، فقد بلغ عدد المشاركين من المسلمين في موقعة بدر « ثلاثمائة وبضعة عشر ، وكان المهاجرون سبعة وسبعين رجلا وكان الانصار مائتين وستة وثلاثين » وتضاعف هذا العدد ثلاث مرات عند خروج المسلمين لمواجهة قريش في أحد ، اذ خرج الرسول (ص) في ألف من أصحابه ، وانخزل عنه في الطريق عبد الله بن ابي بن سلول بثلث الناس ، وفي الحديبية وما بعدها عند غزوة خيبر يحدثنا البلاذري ، ان الرسول (ص) قسم خيبر على ستة وثلاثين سهما له ثمانية عشر سهما لما ينوبه من الحقوق وامر الناس وقسم ثمانية عشر سهما كل سهم لمائة ... ممن شهدوا الحديبية وهم الف وخمسمائة واربعون والذين كانوا بأرض الحبشة اربعون رجلا » (٣٠) وعند قيام موجة الفتوحات والقبول بمشاركة جميع عناصر الجزيرة العربية قفز العدد قفزة هائلة اذ يذكر ابن عبد الحكم ان « الديوان كما حدثنا سعيد بن عفير عن ابن لهيعة في زمن معاوية اربعين الفا »(٣١) وهناك ما يسم ويطبع هذه الرواية بسمة الصحة وطابع الاعتدال ، خاصة وأنها تنسجم مع روايات اخرى عن اعداد الجند في فترة سابقة . ففي رواية تسند الى محمد بن الحنفية تجعل جيش أبيه عند نزوله في العراق قبيل موقعة الجمل في حدود عشرة آلاف . خرج علي من المدينة في سبعمائة رجل وانضم اليهم من الكوفة سبعة آلاف وممن حولهم ألفان (٣٢) . واكثر الروايات مبالغة في تضخيم عدد جيش علي تصل بمن خرج اليه من أهل الكوفة عماد جيشه الاساسي الى اثني عشر ألفا . مقابل هذا تبدو رواية سيف في الطبري والتي تصل بعدد من التف حول عائشة في موقعة الجمل ثلاثين الفا مبالغة الى حد كبير ، وفي فترة الفتوحات الواسعة في العصر الاموي بلغ عدد جنود الديوان في الشرق أي مركز

التوسع الكبير مائة الف كما يستفاد من رواية للطبري اثناء حديثه عن ذروة المواجهة بين الحجاج والثائرين عليه بقيادة ابن الاشعث بقوله « واصبح أهل الكوفة واهل البصرة وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم والقراء من اهل المصرين فاجتمعوا جميعا على حرب الحجاج وجمعهم بغضهم والكراهية له : وهم اذ ذاك مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم » . فاذا اعتبرنا أن عدد الجند ممن يأخذ العطاء في الجناح المقابل الغربي معادلا لعددهم في الشرق بلغ عدد من ينال العطاء مائتي الف ، ومثل هذا الامر في التعادل بين الجهتين كان واردا في ذهن الاخباريين سابقا ففي رواية للمدائني ينقلها الطبري ان يزيد بن المهلب انطلق من خراسان لفتح جرجان « في عشرين ومائة ألف ومعه من أهل الشام ستين ألفا » لكن هذه الاعداد لم تكن تشارك كلها في الحرب ، وانما كان يضرب عليها البعث للقيام بمهمة ما ، فيختار العدد المطلوب لهذه المهمة ، أو يترك لمن يوكل اليه أمر الحملة امر الاختيار والانتقاء .أما في حالات النفير عند الخطر العام فيجب ان يخرج الجميع . وقد لوحظ ميل عام نحو التراخي واهمال الالتحاق بالحملات أو بالجيش المحارب منذ استشراء الفتنة عند الصراع بين علي ومعاوية ، وخاصة في أيام الاول الاخيرة . وقد اعتبر علي التراخي والتقاعس ناتجا لاعن رغبة في الخوض بفتنة وانما تمسكا بالحياة ، فورد في كتابه الذي قرىء على المنبر في أيامه الاخيرة ما نصه « قد صرتم غرضا ترمون ولا ترمون ويغار عليكم ولا تغيرون ، ويعصى الله فترضون ، اذا قلت لكم سيروا في الشتاء قلتم كيف نغزو في هذا القر والصر ، وان قلت لكم سيروا في الصيف قلتم حتى ينصرم عنا حمارة القيظ ، وكل هذا فرار من الموت ، فاذا كنتم من الحر والقر تفرون فأنتم والله من السيف أفر ، والذي نفسي بيده ما من ذلك تهربون ، ولكن من السيف تحيدون ... » واضطر آخر الامر عند العزم على التوجه ضد معاوية ولم ير غير ثلاثمائة رجل ، إلى العمل بنصيحة حجر بن عدي وسعيد بن قيس الهمذاني الذين قالا « اجبر الناس على المسير وناد فيهم فمن تخلف فمر بمعاقبته » فأمر مناديا فنادى في الناس لايتخلفن أحد وأمر معقل بن قيس ان يسير في الرسانيق فلا يدع أحدا من جنوده فيها الا حشره ، فلم ينصرف هذا الا بعد مقتل علي (٣٣) . وتزايد هذا الامر باطراد خلال العصر الاموي ووجد فيه بعض القواد خطرا شديدا يتجاوز ضرورة الدفاع ضد عدو خارجي أو فتنة داخلية ليتعداها الى تعريض اعراض الجند الذين يذهبون للقتال ويخلفون نساءهم وراءهم للخطر . وقد خطب مسلم بن سعيد امير خراسان سنة ١٠٦ هـ عند قيامه بالغزو فقال « ... ما اخلف بعدي شيئا أهم عندي من قوم يتخلفون مخلفي الرقاب، يتواثبون الجدران على نساء المجاهدين »

ادى هذا الامر لقيام الخلفاء والولاة بفرض العقوبات على المتخلفين منها الغاء العطاء . فعندما توفي بشر بن مروان الذي وجه أهل مصري الكوفة والبصرة تحت قيادة المهلب لقتال الازارقة . انصرف كثير من الناس بموته فهددهم عبد الملك برسالة حملها مولاه بقوله : « ومن عصى ولاة الامر والقوام بالحق اسخط الله عليه . وكان قد استحق العقوبة في بشره وعرض نفسه لاستفاءة ماله والغاء عطائه » (٣٥) .

وقام الحجاج بفرض عقوبة أشد وصلت الى الاعدام ومصادرة الاموال وذلك في حالتي النفير وضرب البعث . فقد استنفر الحجاج الناس في السنة التالية بقوله : « والله لتستقيمن على سبل الحق أو لادعن لكل رجل منكم شغلا في جسده ، ومن وجدت بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه وانهبت ماله » وأوجد طريقة محكمة للتحقق من الالتحاق وعدم التخلف ، فلم يجعل التواجد عند العرفاء في المصر والخروج مع الجيش دليل براءة من التخلف بل ارسل العرفاء الى مقر المهلب برامهرمز ليأخذوا منه كتب موافاة الناس لهم وتبرئة انفسهم . وسلك نفس الطريق في حالة البعث ، فعندما وجه عثمان بن سعيد ضد الخوارج وأمره بالخروج عن المدينة وانتظار موافاة الناس ، طلب من أصحاب الدواوين ضرب البعث ليخرجوا اربعة آلاف من الناس من كل ربع الف رجل ، ولما فعلوا ، اهدر دم من يتخلف ممن ضرب عليه البعث بعد اربعة ايام .

لكن هذه الشدة بدأت تزول وزادت نسبة التخلف كما شاعت قضية ارسال البديل التي كانت تتم بقيام المكلف بدفع ما يسمى جُعاله أو جعِاله أو جَعَالهَ ومعناها الاصلي أجر العمل أو الرشوة ، لكن المعنى الاصطلاحي كما ورد في اللسان « ان يكتب الغزو على الرجل فيعطي رجلاً آخر شيئاً ليخرج مكانه بجعل يشترطه » . واتسم الموقف من هذا العمل على الصعيدين النظري الشرعي والعملي الواقعي بعدم التصريح بجوازه . فمن الناحية النظرية سئل ابن عمر عن الجعالة فلم يحرمها صراحة بل كان جوابه اميل للقبول بها الى حد أنه صرّح بأن البديل ينال ثواباً بجهاده وحلالاً بغنيمته اذا توفرت عنده النية في الغزو ولم يغز رغبــة في المال وذلك بقوله « اذ أنت اجمعت الغزو فعوضك الله رزقاً فلا بأس به واما ان اعطيت دراهم غزوت وان منعت اقمت فلا خير فيه » ، اما عن كون المال الذي يأخذه البديل كأجر لخروجه حلالاً أو حراماً فيقول « ان كان عبداً أو أمة يختص به ، أي بمن يأخذ الجعالة فهو غير طائل ، وان جعله في كراع أو سلاح فلا بأس » (٣٨) . وعلى الصعيد العملي نجد الخلفاء يتراخون

أمام العمليتين التخلف والجعالة ، اذ ضرب الوليد بن عبد الملك بعث الفين « وتجاعلوا فخرج الف وخمسمائة وتخلف خمسمائة » (٣٩) .

وعالج الولاة والقواد امر ارسال البديل سنة ١٦ هـ بطريقة تدل على انهم ارادوا التوفيق بين منعه من جهة وعدم المعاقبة على القيام به من جهة ثانية ، وذلك بأخذ القسم من المكلف على يمين لا نعرف نصه ولكن يفهم من سياق الخبر الوارد فيه انه غير دقيق في الفاظه ويسمح لمن يقسمه بالتحايل وتنفيذ رغبته . نجد مثلاً على ذلك فيما حدث عند ما عين اسد بن عبد الله على قيادة الجيش الغازي في بلاد ما وراء النهر في العام المذكور وترك تصريف الامور الى المولى توبة ، الذي يورد الطبري وصفه بالقول أنه « احسن الى الناس وألان جانبه وأحسن الى الجند واعطاهم ارزاقهم ، فقال له اسد : حلفهم بالطلاق فلا يتخلف احد عن مغزاه ولا يدخل بديلاً ، فأبى ذلك فلم يحلفهم بالطلاق . قال : وكان الناس بعد توبة يحلفون الجند بتلك الايمان ، فلما قدم عاصم بن عبد الله اراد ان يحلف الناس بالطلاق فأبوا ، وقالوا نحلف بايمان توبة » .

ويظهر ان التخلف والتقاعس عن تلبية داعي الحرب مرده الى الاستقرار الذي تجاوز القواعد القديمة الى المناطق القاصية في اقصى الشرق واقصى الغرب لدرجة أنه أصبح لكل فرع عشيرة عدا النسب رابطة ارض . وهكذا يورد الطبري اسماء قرى في اقصى الشرق ترتبط باسم قبيلة مثل قرية « باسان » وهي لبني نصر وبوينة وهي لطيء (٤١) . اما في اقصى الغرب في الاندلس حيث نزلت كل قبيلة عند الفتح فيما طاب لها من ارض لدرجة ان العشائر والقبائل نزلت كل منها في اماكن خاصة . مما اعطى النسب معنى ارضياً مع الزمن واستمر الوضع قرونا عدة لدرجة ان الفقيه ابن حزم الذي جاء بعد أربعة قرون وكتب انساب العرب ، استطاع ان يحدد امكنة نزول ومواطن القبائل الفاتحة . وحذا الجند الذين جاؤوا بعد فترة الفتح بربع قرن حذو اسلافهم وقد ربط قائدهم بلج بن بشر بين معنى اسم مدينة وهي أبده وبين تأبيدها على قبيلة معينة في صفوف جيشه (٤٢) . لكل ذلك كان توجيه الحملات والنفير يواجه بتقاعس من هؤلاء المستقرين ، واذا كان صعبا بالنسبة للقريبين من الثغور المستقرين فهو اكثر صعوبة بالنسبة لمن يوجهون من القواعد القديمة البعيدة كالتوجه من البصرة والكوفة الى اقصى الشرق . وكان الثائرون من القواد يستغلون النقمة التي تعمر القلوب من جراء البعد عن المواطن . كما فعل ابن الاشعث عندما أثار الجند على الحجاج بقوله « انكم ان اطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ... ولن تعاينوا الاحبة فيما ارى أو يموت اكثركم » وكانت اوضاع جند

الشام اكثر صعوبة اذ انهم كانوا مصدر النجدات لاخماد الثورات أو للمعونة في الفتح ، كارسالهم زمن الحجاج نجده له ضد ثورة ابن الاشعث ، وارسالم زمن هشام لاخماد ثورة القبائل المغربية الى اقصى اراضي المغرب التي وصلوا منها الى الاندلس (٤٢) .

ولعل ما يعطي صورة بالغة الدلالة على ما تثيره هذه العملية من نقمة ، وعد يزيد الثالث ، في جملة وعوده التي أطلقها لنيل الدعم لحكمه ، ان يبقي قوات الشام في ارضها ولا يرسلها الى الخارج ، كما جرى الامر مراراً وتكراراً قبله (٤٤) .

تعبئة الجيش :

تطور شكل التعبئة وفق التزايد في الاعداد وتنوع الاسلحة وضرورات مواجهة الجيوش الكبيرة للاعداء التي واجهها العرب المسلمون ، ومع ذلك ظلت مراعاة العصبيات والارتباطات الاجتماعية شيئاً يؤخذ بالحسبان ، ويظهر هذا واضحاً جلياً في التعبئة .

كانت نواة الجيش العربي الاسلامي كتلة شديدة التماسك اذ يربط بينها الايمان والنسب القبلي وان طغى الايمان على النسب القبلي حتى كاد يمحوه ، اذ ان اسم المهاجرين لحق بكل من آمن من القبائل الاخرى في الفترات الاولى وهاجر الى المسلمين . وعندما وافق الانصار على الاشتراك في الهجوم تحت قيادة الرسول (ص) صار الجيش يسير الى الحرب وهو مؤلف من وحدتين متميزتين وان لم تتميز كل جماعة براية خاصة ، لكن تضخم الجيش بعد الحديبية وقبيل فتح مكة خاصة وضرورات التوجيه والقيادة جعل الوحدات تتمايز اكثر . فعدا عن المهاجرين والانصار الذين ظلوا تحت قيادة الرسول (ص) كونت كل قبيلة وحدة خاصة تحت رايتها ، كما يستفاد من خبر ايقاف ابي سفيان زعيم مكة القادم على الرسول (ص) في مكان يرى منه مرور الجند الاسلامي مع العباس بن عبد المطلب حسب ابن هشام الذي يقول « ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هذه . . . » وازداد التمايز عند تكوين الجيوش في حروب الردة ، اذ أصبح لكل وحدة قائد ، كما يظهر في جيش خالد المتوجه لمحاربة مسيلمة حيث كان « على الانصار ثابت بن قيس والبراء بن فلان وعلى المهاجرين ابو حذيفة ، وعلى القبائل على كل قبيلة رجل » . ويظهر ان دوافع عدة لعبت دورها في هذا التقسيم والتمايز ، منها ضرورة تمكين القائد العام للجيش من ادارة دفة التوجيه لهذه الاعداد مما يضطره لتقسيمها الى

وحدات ، اما جعل الوحدة قبيلة وليس غير ذلك فمرده الى ضرورة تأمين الطاعة من جهة وضمان التعاون والتلاحم بين افراد الوحدة وكذلك الاستفادة من اعتزاز القبيلة بمكانتها ، اذ يتميز عملها بذلك وتتحدد مسؤوليتها ومدى اسهامها في تحقيق النصر ومسؤوليتها عن الهزيمة . ويظهر هذا الامر واضحاً في الروايات التي تتحدث عن ذلك في جيوش الردة . فقد ردّت احداها سبب التمييز الى تقاذف التهم بين الجماعات حول المسؤول عن الهزيمة فتقول « ان المهاجرين والانصار جبّنوا أهل البوادي وجبنهم أهل البوادي ، فقال بعضهم لبعض ، امتازوا كي نستحيا من الفرار اليوم ، ونعرف اليوم من أين نؤتى ففعلوا . وقال أهل القرى : نحن اعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم فقال لهم أهل البادية : ان اهل القرى لا يحسنون القتال ، ولا يدرون ما الحرب » (٤٦) . ويأتي الطبري برواية أخرى لسيف يرد فيها التمييز الى القائد خالد بن الوليد لتحديد المسؤولية وتقول « لما اشتد القتال ، كانت يومئذ سجالاً انما تكون مرة على المسلمين ومرة على الكافرين فقال خالد ايها الناس امتازوا لنعلم بلاء كل حي ولنعلم من أين نؤتى ، فامتاز أهل القرى والبوادي وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر ، فوقف بنو كل أب على رايتهم فقاتلوا جميعاً » . افلح هذا النظام في تحقيق الغاية اثناء حروب الردة ، لكنه بدا غير ملائم اثناء الفتوحات عند ما قفزت الاعداد قفزات كبيرة وتكونت جيوش ضخمة اضطرت اثناء زحفها لمواجهة جيوش كبيرة منظمة محتشدة . وينسب احداث التطوير الملائم في اللحظات الحاسمة لخالد بن الوليد ، تصوراً وتطبيقاً . فقد لاحظ عندما قدم بمدد من العراق الى الشام حيث وقفت أربعة جيوش ، كان كل منها مخصصا لفتح منطقة في الاصل ، في مواجهة الجيش البيزنطي المحتشد في اليرموك . ورأى انها عاجزة من مواجهته بوضعها الراهن . اذ كانت كما قال « على تساند وانتشار » بينما كان الجيش البيزنطي على نظام وتعبئة ، ويعني التساند كما في اللسان خروج القوم على رايات شتى دون قائد عام يجمعهم ، كما يعني الانتشار تفرق الابل عن راعيها وتفرق الجيش عن قائده . فاقترح وجود قيادة عامة من جهة ، وتعبئة الجيش على طريقة الكراديس من جهة ثانية . فجعل اعداده التي تبلغ حوالي الاربعين الفاً في حوالي اربعين كردوساً . ويرجح أن يكون معنى الكردوس هنا جمع وحدات الجيش في كتائب لان التكردس في اللسان يعني « الانقباض واجتماع بعضه الى بعض وكردس القائد خيله أي جعلها كتيبة كتيبة » (٤٧) . ثم جمعت هذه الكراديس في وحدات اكبر هي :

مقدمة أو طليعة وقلب وجناحان وردء أو ساقة . لكنهم عند المسير في الشعاب وعدم الخشية من الاحاطة بهم من هذه الناحية لايتخذون مجنبتين أو جناحين . وتحدد الرواية العلاقة بين الكردوس او الكتيبة وبين الوحدةالعسكرية

السابقة وهي القبيلة ، أو العشيرة منها . هل كانت الكتيبة قبيلة أو عدة قبائل ؟ أو ان القبيلة كأقسام المدن قد يكون بعضها مؤلفاً من قبيلة واحدة وبعضها الآخر من عدة قبائل ذوات اعداد صغيرة كالاسباع والارباع والاخماس ؟

ومهما يكن من أمر تبدو الوحدات هنا كراديس أو كتائب على كل منها قائد يخضع لقائد القسم الذي يتبعه من اقسام الجيش الخمسة . ويظهر لنا من الروايات التي تسرد اخبار المعارك ان رابطة النسب القبلية ظلت تراعى في تشكيل الكتائب أو وحدات الجيش التي تدخل ضمن وحدات أكبر قائمة على اساس الروابط الجديدة التي نشأت بعد موجة الفتوحات ، كروابط الارباع والاخماس والاسباع ضمن المدينة أو القاعدة العسكرية أو الجند . واضافة لرابطة النسب نشأت وحدات على أسس اسلامية لا علاقة لها بالنسب بل بفئات اجتماعية جديدة ظهرت ضمن المجتمع الاسلامي كفئة القراء . كذلك ظهرت وحدات متميزة بسبب الاعتماد المتزايد على العنصر المتحرك في الحرب وهو الخيل الذي يستحق تطور استخدامها وقفة خاصة .

الخيل واستخدامها :

اهتم العرب منذ الجاهلية بالخيل اضافة لاهتمامهم بالجمال ، وخاصة في حالات الحرب وغاراتها نظراً لسرعتها وليونة حركتها ، كما كانت في اوقات السلم وسيلة احتفالات جماعية كاقامة حلبات السباق الذي كانت له قواعده التي تحدد فيها مراتب الخيل السابقة وتحديد اسماء خاصة لها (٤٨) ، كما ذاع صيت بعض الخيول واشتهرت اسماؤها بعدما ارتبطت حروب متطاولة بين بعض القبائل باسمائها . ومن الشائع ان العرب اعتقدوا بوجود انساب للخيل شبيهة بأنساب البشر ، وان خيل الجزيرة الاصيلة انحدرت من « زاد الراكب » الحصان الذي منحه سليمان الحكيم لقبيلة الازد . ومن ثم أصبح النسب للخيل يشرفها ، ويعوضها عما يفقدها اياه أحياناً المنظر غير اللائق من الاعتبار حتى خلال العصور الاسلامية، فعندما هدد الحجاج احدهم قطع عطاء فرسه الاعجف، اثبت صاحبه نسبه الى زاد الراكب ، فتراجع الحجاج (٤٩) .

جاء الاسلام وحاجته للقوة دفاعاً عن المسلمين ودعوتهم وحرية نشرها فدعا المسلمين لاعداد وسائل القوة التي وضع الخيل في مقدمتها أو مرادفة لها كما تدل على ذلك الآية الكريمة « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بها عدو الله وعدوكم » . وقام الرسول الكريم يشجع على ارتباطها

بالقول والفعل ، فقد فضلها في السهمان ، وذهب الجمهور « أن للفارس ثلاثة اسهم واحد له واثنان لفرسه ، واما الراجل فله سهم واحد » . اما في الاقوال فيؤثر عنه « الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة واهلهـا معانون عليها . فامسحوا نواصيها وادعوا لها بالبركة » وفي رواية اخرى « الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة ، واهلها معانون عليها والمنفق عليهـا كالباسط يده بالصدقة » ويثاب الانسان حتى على النية « من هم ان يرتبط فرساً في سبيل الله بنية صادقة اعطي أجر شهيد » . كما اعتبرت بعض الاحاديث العملية واجبة على القادر « ما من رجل مسلم الا وحق عليه أن يرتبط فرساً اذا اطاق ذلك » . واتبع المسلمون بعد وفاة الرسول سنته المتمثلة في أفعاله وأقوالهفي الاهتمام بالخيل ، لابل أن أهمية الخيل ازدادت لديهم بسبباستمرار الفتوحات وضرورات الحركة ضمن مسافات شاسعة اضافة لتعاظم الجيوش وتطـور أساليب عملياتها ، والحاجة في بعض الاحيان لتقديم الامدادات السريعة . وقد ظهر ذلك واضحاً منذ أيام الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب الذي أمر باقامة مراكز تجميع لها تكون في الوقت نفسه موضع الاعداد والاكثار ، كما يستفاد مما يورده الطبري بالقول « كان لعمر أربعة آلاف فرس عدة لكون ان كان يشتيها في قبلة قصرالكوفة وميسرتهومن أجل ذلك يسمىذلكالمكانالآري الىاليوم . ويربعها فيما بين الفرات والابيات من الكوفة مما يلي العاقول فسمته الاعـاجم آخـر الشاهجان يعنون معلف الامراء ، وكان قيمه عليها سلمان بن ربيعة الباهلي في نفر من أهل الكوفة يصنع سوابقها ويجريها في كل عام . وفي البصرة نحو منها وقيمه عليها جزء بن معاوية ، وفي كل مصر من الامصار الثمانية على قدرها . فان نابتهم نائبة ركب قوم وتقدموا الى أن يستعد الناس » وفي أماكن أخرى تشير رواية أخرى الى تعميم العملية على الامصار اذ أن « عمر اتخذ في كل مصر على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين عدة لكون ان كان فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف » . وعندما اختط العرب المسلمون القطائع تركوا بينهم وبين البحر (النيل) والحصن قضاء لتعريق دوابهم وتأديبها . ويورد ابن عبد الحكم مايفيد ان ولاة العرب المسلمين ساروا على نهج عمر في هذا المضمار وذلك بقوله « كان الناس يجتمعون بالفسطاط اذا قفلوا فـاذا حضر مرافق الريف خطب عمرو بن العاص فقال : قد حضر مرافق ريفكم فانصرفوا [وعودوا في الصيف] اذا حمض اللبن واشتد العود وكثر الذباب فحي على فسطاطكم ولا اعلمن ماجاء أحدكم قد أسمن نفسه وأهزل جـواده » وفي مكان آخر يهدد من فعـل ذلك « واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير علة

حططت من فريضته قدر ذلك واعلموا أنكم في رباط الى يوم القيامة » . وفيما بعد وحتى أواخر القرن الاول عندما كان قتيبة بن مسلم الباهلي يقود العمليات في بلاد ما وراء النهر ويعبر عبر أراض فسيحة وصحارى مترامية الاطراف يلعب فيها الاستكشاف وقطع الحواجز المائية دوراً بارزاً . اشتهر عنه اهتمامه بانتقاء واعداد الخيول للطلائع يشتريها عقب العودة من كل غزو كما تعبر عن ذلك رواية الطبري بالقول « وكان قتيبة اذا رجع من غزاته كل سنة اشترى اثني عشر فرساً من جياد الخيل ، واثني عشر هجينا . لا يجاوز بالفرس أربعة آلاف فيقام عليها الى وقت الغزو . فاذا تأهب للغزو وعسكر قيدت واضمرت . فلا يقطع نهرا بخيل حتى تخف لحومها فيحمل عليها من يحمله من الطلائع » (٥٢) .

صفوف الجيش :

نجد هذه الاعتبارات التي اوردناها واضحة بشواهد من وصف صفوف الجيش عند تقدمها للمعارك ، ففي موقعة صفين كان الجيش مؤلفا من وحدات قبلية هي عبارة عن فرع القبيلة المقيم في مكان معين كتميم البصرة ، يقودها فردمنها ولها رايتها . كما أن كل قسم من هذه الاقسام الخمسة كانت مؤلفة من تجمع قبلي اكبر كما هو حال جيش علي عند التعبئة في الموقعة ذاتها فوضع في القلب مضر وفي الميمنة ربيعة وفي الميسرة أهل اليمن . أما أقسام جيش معاوية الكبرى فكانت عبارة عن فروع القبائل التي تعيش في جند معين وهكذا يشار لعمل معاوية بالقول « استعمل على أهل دمشق الضحاك بن قيس وعلى أهل حمص ذا الكلاع وعلى أهل قنسرين زفر بن الحارث وعلى أهل الاردن سفيان بن عمرو وعلى أهل فلسطين مسلمة بن خالد » .

وكانت كل كتلة كبرى سواء أكانت كتلة قبلية كبيرة تكون أحد أقسام الجيش الخمسة أو مجموعة العشائر في جند معين تنقسم الى قسمين رئيسين هما : الرجالة والخيالة ولكل من القسمين قائد . كما نستنتج من اللوحة الكاملة التي يرسمها لنا أبو حنيفة الدينوري (٥٣) لكن الخيالة لم يلبثوا ان انقسموا بدورهم الى قسمين ؛ الخيول العادية التي اصبحت تعرف باسم الخيول المجردة أو المجردة فقط . والخيول المجففة التي عليها التجافيف ، جمع تجفاف وهو مايوضع على جوانب الخيل من معدن او مايشابهه ، ويظهر أنها عمت الجيش في أواخر القرن الاول واوائل الثاني ، اذ كان يشار للخيالة دائماً بهذين الاسمين عند الحملات ولكل منها قائدها . ويذكر المدائني في خبر غزوة طخارستان « فركب الناس الى الجنيد (قائد الحملة) فصير تميما والازد في الميمنة وربيعة في الميسرة مما يلي

الجبل ، وعلى مجففة خيل بني تميم عبد الله بن زهير بن حيان وعلى المجردة عمر – أو عمرو – بن جرقاس ، وعلى جماعة بني تميم عامر بن مالك الحماني وعلى الازد عبد الله بن بسطام بن مسعود بن عمرو المعنى، وعلى خيلهم المجففة والمجردة فضيل بن هناد وعبد الله بن حوذان ، احدهما على المجففة والاخر على المجردة »

ويظهر أن عملية وضع التجافيف كانت للجمال أول الامر تقليدا للفيلة التي واجهتهم في معارك فتح العراق الكبرى وقاوموها بطرق مختلفة ثم قاموا حسب التعبير الذي يورده الطبري « وعندما فعل المسلمون ما فعلوا بالفيول تكتبت كتائب الابل المجففة فعرقبوا فيها وكفكفوا عنها » .

وكانت هذه القوى بهذا التنظيم تتقدم للمعارك صفوفا اختلف عددها من معركة لاخرى ، لكن القوات الصغيرة كانت تشكل كتائب صغيرة متحركة لانها لاتستطيع المواجهة بالصفوف والمقاتلة على أساس الزحف . وفي آخر العصر الاموي تطور الامر في عهد مروان الثاني فاستغنى عن الصف واصبحت الحرب حرب كراديس تهاجم أو تنسحب ككتلة وليس على اساس الصف (٥٥) .

القيادة ومرافقو الجيش :

بهذا النظام كان الجيش يسير ويتقدم نحو المعارك تحت امرة قائد عام كان الرسول الكريم اول الامر او احد صحابته فيما بعد الى ان كانت سنة ١٣هـ وجاء المثنى بن حارثة الشيباني يطلب من الخليفة توجيه النجدا . فقام عمر بعد بيعته يندب الناس لحرب فارس فلم ينتدب أحد طيلة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع تقدم اثنان احدهما أبو عبيد الثقفي الذي لم يكن من أهل السابقة . وعندما اجتمع الناس أو البعث للعراق قيل لعمر « أمرّ عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين والانصار . قال : لا والله لا أفعل ؛ ان الله انما رفعكم بسبقكم وسرعتكم الى العدو . فاذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق الى الدفع واجاب الى الدعاء ، والله لا أؤمر عليهم الا أولهم انتداباً » (٥٦) ، ومع ذلك أبقى عمر للصحابة مكانة خاصة فرغم تعينه لابي عبيد الا انه أمره بأن يسمع من أصحاب الرسول (ص) وأن يشركهم في الامر . ورغم مكانة المثنى منه الا انه اجابه كرد على شكوى من زعيم بجيله ذي السابقة أنه لن يمكنه من التحكم بأحد أصحاب رسول الله . وظلت قضية السابقين تراعى حتى في التعيين للقيادات الاصغر فعندما سمح عمر لسعد بن أبي وقاص باستخدام المرتدين أمره « الا يولي رؤساءهم على مائة » . لكن شرط السابقة لم يدم بعد عمر ان تولاه

اناس لاسباب اخرى مختلفة للقرابة او للكفاءة او للاخلاص الى حد تعيين موالي الامراء ، كما هو حال موسى بن نصير في تعيين مولاه طارق بن زياد لفتح الاندلس .

وكان الى جانب القائد حسب اخبار أوائل القرن الثاني الهجري هيئة من المستشارين تشاهدهم لدى القادة في العمليات الحربية في اقصى الشرق واقصى الغرب . فعندما ارسل هشام جيشا شاميا لاخماد ثورة القبائل المغربية بقيادة كلثوم بن عياض « عهد اليه ان يطيع هرون القرني مولى معاوية بن هشام ومغيثا مولى الوليد لمعرفتهما بالبلد » وعند اجتماع جيشه بجموع القبائل المغربية وصفا للقائد خطة مناسبة لقلة عدد أفراد الجيش تجاه الجموع المعادية بالقول « خندق أيها الامير وتلوم بالكراديس واعطنا الخيل نخالفهم الى قراهم وذراريهم » لكن أمرهما لم يطع (٥٧) . وفي الاندلس قام يوليان حاكم سبتة حليف العرب بدور المستشار لطارق بن زياد وهو الذي عين له الادلاء . أما في فتوح الشرق فيظهر ان مهمة الاشارة على القائد اصبحت وظيفة ثابتة ويسمى صاحبها « صاحب الرأي » وتقدم رواية المدائني في الطبري ما يفيد في التعرف على النواحي التي تعطي هيئة المستشارين هؤلاء رأيها فيها « في المعارك التي جرت مع الترك سنة ١١٢ هـ » « وكان صاحب رأي خراسان في الحرب المجشر ابن مزاحم السلمي وعبد الرحمن بن صبيح الخرفي وعبيد الله بن حبيب الهجري ، وكان المجشر ينزل الناس على راياتهم ، ويضع المسالح ليس لاحد مثل رأيه وكان عبيد الله على تعبئة القتال . وكان رجال من الموالي مثل هؤلاء في الرأي والمشورة والعلم بالحرب ، فمنهم الفضل بن بسام مولى بني ليث وعبدالله بن ابي عبدالله مولى بني سليم والبختري بن مجاهد مولى بني شيبان(٥٨) وهذا يعني أنهم يقومون بأعمال عدة منها تنظيم الكتائب وتأمين الحماية حول الجيش وتعبئة الجيش للقتال وتقديم الخطط للخلاص من المآزق . وهناك حوادث اخرى تدل على أنهم يشيرون في نواح اخرى ؛ فعندما أراد القائد السير نحو سمرقند سأل أي طريق يسلك من الطريقين السهلي والجبلي أشار المجشر الى الطريق الاول بما تضعه الرواية على لسانه « فيه الشجر والحشيش ولم يزرع منذ سنين ، فقد تراكم بعضه على بعض ، فان لقيت خاقان احرق ذلك كله فقتلنا بالنار والدخان ولكن خذ طريق العقبة » . كما كانوا يستشارون في اتخاذ القرار الحاسم حول دخول المعركة والامتناع عن ذلك ، وكانوا يعطون رأيهم بناء على المعطيات التي يعرفونها عن العدو . وقد قدموا النصح للقائد بأن لايقدم على دخول معركة مالم يتوفر له خمسين الفاً لان الاتراك يحاربون خيالة ليس صفاً ولا زحفاً ولا يمكن مجابهتهم الا بجيش كبير .

وترافق الجيش عناصر ليست في الاصل ذات مهمات حربية وفي مقدمة هؤلاء التجار اذ ترد اشارات متعددة لخروجهم وكان هؤلاء يقومـون بفتـح الاسواق كي يتجهز منها الجند ، ومن الامثلة عليهـا مايرد عن الاشعث أثنـاء الاستعداد لمحاربة رتبيل ، اذ خطب فيهم يحثهم على الالتحاق بالحرب والخروج لمعسكرهم مـع الناس حيث « عسكر الناس كلهم في معسكرهم ووضعت لهـم الاسواق واخذ الناس بالجهاز والهيئة بآلة الحرب » . كما كان مع الجيش قاص وقاض وقارىء . فعندمـا برز الجيش العربي الاسلامي لموقعة اليرمـوك كان القاضي ابو الدرداء والقاص ابو سفيان ويظهر ان القاص كان بمثابة واعظ يعظ الناس ويحضهم على الجهاد ، اذ يرد في رواية لسيف يوردها الطبري ان القاص كان عشية المعركة يسير فيقف على الكراديس فيقول الله الله انكم زادة العرب وانصار الاسلام وانهم زادة الروم وانصار الشرك ، اللهم ان هذا يوم من ايامك. اللهم انزل نصرك على عبادك . وتصف رواية أخرى عن نفس الموقعة ان « القارىء كان المقداد ومن السنة التي سن رسول الله (ص) بعد بدر أن تقرأ سورة الجهاد عند اللقاء وهي الانفال ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك » (٦٠) .

رافق الجيش اضافة للسابقين النسوة ، ففي معارك العراق الاولى كـن على مسافة من الجيش وأوكلت قوة خيالة بحمايتهن . وعدا المهمة التي كن يقمن بها في منذ ايام الجاهلية في اثارة النخوة لدى الرجال المحاربين قمن بمهمات مساعدة للجيش فبعد اليوم الاول من معركة القادسية أمر سعد بنقل الشهداء والرثيث الى خلف الصفوف « فأما الرثيث فأسلم الى النساء يقمن عليه الى قضاء الله عز وجل عليهم ، وأما الشهداء فدفنوهم هناك » كما عملت النسوة والصبيان بحفر القبور في يومي اغواث وارماث . وعندما يتعرضن للهجوم كـن يدافعن عن أنفسهن ، وعندما تتوفر الحماسة لدى بعضهن كن يقمن في بعض الحالات خلال فترة الفتوح الاولى بمساعدة الرجال في الحرب ، فأثناء المجابهة بين العرب والفرس في جبهـات ميسان قالت « أردة بنت الحارث بن كلدة ، لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم فاعتقدت لواء من خمارها واتخذ النساء من خمرهن رايات ، وخرجن يردن المسلمين فانتهين اليهم والمشركون يقاتلون فلمـا رأى المشركون الرايات ظنوا أن الامدادات بدأت تصل للمسلمين فانكشفوا » . واستمرت مرافقة النسـاء في العهد الاموي كما يقول البلاذردي أنه « كانت بنو امية تفعل ذلك ارادة الجد في القتال للغيرة على الحرم » . واستمر الامر على ذلك حتى وقت متأخر من العصر الاموي لدرجة انهن تعرضن لخطر أثناء حروب قتيبة الترك « وأثناء غزو بخارى تراجع المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم

حتى دخلوا في عسكر قتيبة وجاوزوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين » . وبعدها منع أسد بن عبد الله في المنطقة نفسها من اصطحاب النساء ونادى مناديه « برئت ذمة الله من رجل حمل امراة ممن كان من الجند » .

خطط الجيش وطريقته في المعارك :

التأهب والاستطلاع :

قبل مسير الجيش كان القائد يقوم في جملة ما يقوم به بالاهتمام بتجهيز الجند لأنفسهم ، وتنظيم الاستطلاع . وقد وصل اهتمام بعض القادة بأمر تجهيزات الجند الى الاشياء الصغيرة كما هو حال كثير بن شهاب صاحب الري وقزوين الذي عينه المغيرة بن شعبة والي الكوفة من قبل عمر بن الخطاب ويقول عنه البلاذري أنه « كان اذا غزا أخذ كل امرىء ممن معه بترس ودرع وبيضة ومسلة وخمس ابر وخيوط كتان وبمخفف ومقراض ومخلاة وتليسة »(٦٢).

اما الاستطلاع فكانت له حسب شهادة النصوص اشكاله المختلفة بحسب الوضع فعند الاستعداد للدخول في معركة كانت ترسل جماعات تقوم بالاغارة وتأسر رجلاً من علية القوم اذا امكنها لمعرفته بالاوضاع العامة اكثر من غيره . لكن الاستطلاع الاصعب والادق كان في بلاد ما وراء النهر ومع الترك السريعي الحركة الذين يهاجمون بغتة وعلى الخيول وليس زحفاً لذا كان الاستطلاع هنا لتعيين مكان تواجدهم على مسافات بعيدة .

وقد سلك قتيبة في هذا المجال طريقة يأمن معها شر تقاعس الطليعة المستطلعة عن اداء واجبها والكذب عليه لذا اختار نوعيتها وحدد عملها بطريقة ملائمة يوردها لنا الطبري بالقول « وكان يبعث في الطلائع الفرسان من الاشراف ويبعث معهم رجالاً من العجم ممن يستنصح على تلك الهجن . وكان اذا بعث بطليعة أمر بلوح فنقش ، ثم يشقه شقين فيعطيها شقة ويحتبس شقة لئلا يمثل مثلها ، ويأمر القائد بأن يدفنها في موضع يصفه له من مخاضة معروفة او تحت شجرة معلومة أو خربه ثم يبعث بعده من يستبريها ليعلم اصادق في طليعته أم لا » . وسلك قائد [illegible] طريقة أخرى لمعرفة الاخبار بسرعة ، اذ سرح عشرة من طلائع الجند وأمر قائدهم بأن يرسل اليه احد الافراد كلما سار مرحلة (مسيرة يوم) كي يعلمه الخبر (٦٣) .

بعد استكمال الاهبة يتوجه الجيش نحو المعركة ولدينا وصف لشكل السير في ايام سعد بن أبي وقاص في فتح العراق يرد فيه انه « في السير كان امراء

التعبئة (أي قادة الاقسام الاساسية) يلون الامير والذين يلون امراء الاعشار والذين يلون امراء الاعشار اصحاب الرايات والقواد ورؤوس القبائل . وقد تعددت اشكال المعارك التي خاضها العرب في هذه الفترة بين معركة في ارض مكشوفة ، قد تكون بين جيشين متكافئين نسبياً أو بين فئة قليلة وجيش عرمرم وقد تكون حرب حصار للمدن والحصون .

الحرب في الارض المكشوفة :

عندما يكون العرب على تعبئتهم استعداداً للحرب يعلن القائد الهجوم بالتكبير أو بهز اللواء ، فالمثنى بن حارثة حدد اشارة الهجوم بالقول « اني مكبّر ثلاثا فتهيأوا ثم احملوا مع الرابعة . وكذلك جعل سعد بن أبي وقاص التكبيرة الرابعة علامة الهجوم كما يذكر لنا سيف في الطبري « لا تحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر فاذا صليتم الظهر فاني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا .. ثم اذا سمعتم الثانية فكبروا ولتستتم عدتكم ثم اذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا فاذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم ، وقولوا : لا حول ولا قوة الا بالله » (٦٤) .

اما النعمان في موقعة نهاوند فقد جعل الاشارة هز اللواء وقد اخبر جنده « اني هاز لوائي ثلاث مرات ، فأما اول هزة فليقض الرجل حاجته وليتوضأ ، واما الثانية فلينظر الرجل الى شسعه وليلزم سلاحه فاذا هززت الثالثة فاحملوا ولا يلوين احد على احد » (٦٥) .

وقبل التجديد الذي أدخله مروان بن محمد كانوا يتقدمون للحرب صفوفاً اختلف عددها من معركة لاخرى ومن زمن لآخر . ففي يوم القادسية عندما كان الفرس ثلاثة عشر صفاً كان المسلمون في ثلاثة صفوف ، بينما كانت صفوف ابن الاشعث في مواجهته للحجاج سنة ٨٢ هـ سبعة . كما كانت الاسلحة تتباين بتتابع الصفوف ففي اليوم الاخير من معركة القادسية كان الصف الاول من الرجالة اصحاب الرماح والسيوف وصف فيه المرامية وصف فيه الخيول تكنفهم رجالة وكذلك الميمنة وكذلك الميسرة (٦٦) . وفي موقعة صفين نجد الصفوف تتباين بتباين اقسام الجيش بين الميمنة والميسرة فقد كان كل من جيش معاوية وجيش علي سبعة صفوف ؛ صفين في الميمنة وصفين في الميسرة وثلاثة صفوف في القلب (٦٧) .

كانت هذه الطريقة تتبع في مواجهة جيوش مكافئة ، لكن الوضع يختلف عندما تواجه جماعة صغيرة أو جيش قليل جيشاً كبيراً ، ولدينا على هذا مثالان

احدهما على الصعيد النظري والاخر على الصعيد العملي . فقد اشار زفر بن الحارث الكلابي على التوابين المتوجهين نحو الجزيرة لمحاربة الامويين سنة ٦٥هـ بأن يحاربوهم بطريقة معينة يصفها أبو مخنف على لسانه وبأقوال ينسبها اليه « فان بدرتموهم الى عين الوردة فلا تقاتلوهم في فضاء وترامونهم وتطاعنوهم فانه ليس لكم مثل عددهم ، فان استهدفتم لهم لم يلبثوكم أن يصرعوكم ، ولا تصفّوا لهم حين تلقونهم ، فاني لا ارى معكم رجالة ولا اراكم كلكم الا فرساناً ، والقوم لاقوكم بالرجال والفرسان ، فالفرسان تحمي رجالها والرجال تحمي فرسانها وانتم ليس لكم رجال تحمي فرسانكم فالقوهم في الكتائب والمقانب ثم بثوها بين ميمنتهم وميسرتهم ، واجعلوا مع كل كتيبة كتيبة الى جانبها فان حمل على احدى الكتيبتين ترجلت الاخرى فنفست عنها الخيل والرجال ، ومتى ما شاءت كتيبة ارتفعت ومتى ما شاءت كتيبة انحطت ولو كنتم في صف واحد فزحفت اليكم الرجال فدفعتم عن الصف انتقض وكانت الهزيمة » (٦٨) .

وقد طبقت جماعات الخوارج المؤلفة من اعداد صغيرة من الخيالة هـذا الاسلوب في الحرب سواء في حالة الهجوم او الدفاع ؛ ففي المعركة التي جرت بين جيش للحجاج يقوده الجزل وهو عثمان بن سعيد ويتألف من أربعة آلاف رجل عام ٧٦ هـ ضد شبيب الخارجي الذي بلغت عدة رجاله مائة وستين ، صار هذا الاخير يتهرب حتى نزل الجيش في موقع ، وعندها قسم رجاله الى اربع كتائب تتألف كل منها من اربعين رجلاً انقضوا على الجيش من الجهـات الاربع .

وهناك من الامثلة ما يدل على ان الجماعات الصغيرة كان لدى بعضهـا تصور عن الشكل العام الذي يجب ان تأخذه الحرب مع جماعات اكبر ، فقد نصح الزعيم القيسي عمير بن الحباب ابن الاشتر قائد المختار بن أبي عبيـد سنة ٦٧ هـ بالا يحارب الامويين حرب مطاولة بقوله « ان طالوك وماطلوك فهو خير لهم ، هم كثير اضعافكم ، وليس يطيق القليل الكثير في المطاولة » ومن هنا يفهم ان طريقة الغارات السريعة التي كان يقوم بها الخوارج وغيرهم كانت مبنية على هذا التصور (٦٩) .

اما في حالات الدفاع فتحاول الجماعات الصغيرة ان تحيط نفسها بحواجز طبيعية أو صنعية لكي تجعل مجال المواجهة محدوداً وتحمي نفسها من التطويق. وهكذا قام الحسين بن علي وهو في جماعة صغيرة لا تتجاوز اثنين وثلاثين فارساً واربعين راجلاً في مواجهة الجيش الذي انفذه ضده عبيد الله بن زياد الى جعل

البيوت حيث النسوة خلفه ، ومن ورائها جعل اصحابه يأتون بقصب وحطب الى مكان وراءهم منخفض كأنه ساقية فحفروه في ساعة من الليل وجعلوه كالخندق ثم القوا فيه الحطب والقصب وقالوا : اذا عدوا علينا فقاتلونا القينا فيه النار كيلا نؤتى من ورائنا وقاتلنا القوم من وجه واحد » (٧٠) . وبعده بحوالي ثلاثين سنة كان طارق بن زياد في الاندلس يواجه وضعاً مشابهاً ، وان لم يكن على نفس الدرجة ، في مجابهة عدو متفوق عليه في العدد (١٢ر٠٠٠ مقابل ٤٠ر٠٠٠) وكان التفوق في عدد الخيول اكبر بكثير فلجأ لاختيار ارض مناسبة كي يستفيد من عناصرها في تجاوز اثر تفوق خصمه عليه ، وكان اختياره لموقع وادي لكه حيث حمى احد جناحيه بمرتفعات ريتين وحمى الجناح الاخر بالبحيرة مما وفر عليه تخصيص قوى في المجنبتين لحماية جناحيه ، اضف الى ذلك ان الميدان كله ضيق وفي منطقة مستنقعية الامر الذي يحد كثيراً من عمل الخيول التي يفتقر جيشه اليها وتكثر اعدادها لدى اعدائه .

حرب الاماكن الحصينة :

لم يكن الفاتحون الاولون ذوي خبرة او تجربة في محاربة الحصون والمدن المسورة ، كما لم يكونوا أهل صناعة متقدمة تساعد على صنعها ، وما ساد حروبهم في السابق اسلوب الكر والفر في الغالب . وهكذا افتقروا في معاركهم الاولى الى الآلة الحربية فحاولوا التعويض عنها باللجوء لاستخدام بعض ادواتهم من بيئتهم الاولى ، اضافة لاسلحتهم الفردية مع الحيلة لتجاوز العقبات التي اعترضتهم في هذا المجال . ولعل الاستثناء الوحيد لذلك ما يروى عن الرسول (ص) من استخدام آلات الحرب اثناء حصاره للطائف سنة ٨ هـ . لكن الرواية التي ينقلها ابن هشام في هذا الصدد تبدو مضطربة تتناقض فيها التفاصيل مع الخبر العام . اذ يرد فيها « قال ابن هشام ورماهم رسول الله (ص) بالمنجنيق. رمى أهل الطائف . قال ابن اسحاق حتى اذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف ، دخل نفر من اصحاب رسول الله (ص) تحت دبابة ، ثم زحفوا بها الى جدار الطائف ليخرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً ، فأمر رسول الله (ص) بقطع أعناب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون » (٧٢) .

لايبدو التفصيل هنا منسجما مع السياق لان المسلمين كانوا يشكون من رمي أهل الطائف لهم بالنبال عند تقدمهم نحو جدارها ويمكن اتقاؤه بالدبابة . وعلى كل حال فان استخدام اصحاب الرسول الكريم لهذه الآلات ضد الطائف لم يعط

اكله وفضل عليه قطع الاعناب كوسيلة اكثر جدوى لدفع الطائف للاستسلام . ومن جهة ثانية بقيت العملية منفردة لم يستخدمها الرسول الكريم لفتح أماكن حصينة أخرى كفتح حصون خيبر . كما انها لم تستخدم في قتال مسيلمة بل انهم رفعوا البراء بن مالك ليصعد الى أعلى الجدار ومنه نزل الى الباب لفتحه للمسلمين .

واستمر العرب المسلمون في عصر الخلفاء الراشدين ، وحتى خلال العصر الاموي في الشام والغرب يحاربون الحصون بالطريقة نفسها ؛ تسلق الجدران او الدخول من باب باتفاق مع احد البوابين او من مداخل سرية او قنوات المياه . وهكذا قام خالد بن الوليد في عملية فتح دمشق سنة ١٣ هـ باستخدام الوسائل التي اعتاد جنده على استعمالها في بيئتهم لتجاوز العائقين اللذين اعترضاه للفتح ؛ اولهما الخندق المائي وثانيهما الاسوار . حل المشكلة الاولى بقيام الجند بنفخ القرب وعبور الماء عليها وهو امر اعتادوه في وديان الجزيرة العربية ، ولارتقاء السور استغل يوماً ضعفت فيه الحراسة لانشغال الناس بمناسبة اجتماعية ، وربما زاد من غفلتهم ثقتهم بمناعة اسوارهم وقناعتهم بفقدان الآلات الحربية اللازمة لدى العرب لاختراقها او اعتلائها . وكان خالد قد اتخذ حبالاً كهيئة السلاليم واوهاقاً (الوهق حبل في طرفيه انشوطة) رميت هذه الحبال على الشرافات في أعلى السور في المكان المحدد منه ، ولما علق منها وهقان تسلق القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي ، ثم لم يدعا احبولة الا اثبتاها بالشرف فصعد عدد من المسلمين كان كافياً للانحدار الى الداخل وقتل حراس الباب وفتحه للمسلمين (٧٣) .

وفي سنة ٥٩ هـ وبعد فتح شمشاط في الثغور الشمالية توقف المسلمون عند حصن كمخ بقيادة صفوان بن معطل السلمي ومعه عمير بن الحباب فعلا عمير السور وجالد حتى كشف الروم وصعد المسلمون ، وبذلك كان يفخر عمير ويفخر بنو قومه . وفي فتح مصر تمكن المسلمون من اقتحام حصن بابليون بالطريقة نفسها ، اذ صعد الزبير سلماً الى اعلى الحصن وكبر فتبعه اناس وفتحوا باب الحصن (٧٤) . واخيراً نجد ان العرب المسلمين ظلوا يتخذون وسائل مشابهة حتى وقت متأخر وفي اقصى ميادين الفتوح في الغرب ، حيث قام المولى مغيث عند فتح قرطبة بانفاذ رجل عبر ثغرة تعرف عليها من راعي غنم الى اعلى السور ، ثم اعطاه مغيث عمامته فتسلق عليها الرجال ، ويبدو ضعف امكانيات العرب في أدوات الحصار من ملاحظة ما تم بعد ذلك ، اذ تحصن من استطاع الهرب من الحامية في كنيسة لهم فبقي العرب على حصارهم ثلاثة شهور حتى استسلموا .

وفي حالات اخرى كان العرب المسلمون يدخلون من الابواب بشراء احد البوابين كما حصل في الاسكندرية حيث أمنوا لابن بسامة البواب تحقيق رغباته (٧٦) . أو يدخلون من مسارب أرضية للمدينة يدلهم عليها من يشترون خدماته كما فعلوا في قيسارية بفلسطين ، التي حاول العرب عبثاً دخولها لمدة سبع سنين ، الامر الذي دفع بعض الرواة لاختلاق روايات تبرر هذا العجز ؛ فقالوا ان عدد المرتزقة المدافعين عنها يبلغون سبعمائة الف مما سبب عجز عمرو بن العاص وابنه عن فتحها ، الذي تم لمعاوية عندما اتى يوسف اليهودي لمعسكره ليلاً ودلهم على طريق في سرب فيه الماء الى حقو الرجل مقابل تأمينه مع أهله فأنفذ معاوية إناساً لذلك قاموا بفتح الابواب (٧٧) .

ومن الطرق التي استخدمها العرب المسلمون لدخول المدن دون ادوات حصار قطع الموارد الغذائية عنها من غذاء أو ماء . استخدموا الوسيلة عندما هاجموا بقيادة عياض مدينة الرها في شمال بلاد الشام في أوان الحصاد ، وعندما أمطر المدافعون عنها المهاجمين بالسهام والحجارة اضطر القائد للتراجع الى مكان بعيد عن مرماها مكتفيا بوضع روابط عليها ، ووجه سراياه الى القرى المحيطة فجمعوا منها الاطعمة والزروع فدب اليأس في قلوب المدافعين واستسلموا بعد خمسة أيام أو ستة فقط من بدء الحصار . وفي المغرب حيث كانت المدينة العظمى قرطاجنة قوية حصينة اضافة لكونها ميناء يتبع القوة البحرية المسيطرة على المتوسط آنذاك وهي بيزنطة ، الامر الذي يجعل فتحها على ايدي العرب بالغ الصعوبة لكن نقطة ضعفها تجاه المهاجمين تمثلت بالقناة التي تحمل الماء اليها من عين جوقار على مسافة خمسة أيام ويوزع فيها بواسطة منشآت متعددة اعتبرت آنذاك من الاعاجيب ، لكن امتدادها خارج المدينة الى هذه المسافات الطويلة يجعل قطع الماء عنها عملية سهلة ، وربما حصل ذلك بقيام القائد حسان ابن النعمان بكسر هذه القناة فتركها أهلها وهربوا في السفن (٧٨) .

أما في الشرق فكان الوضع مختلفا اذ استخدمت هنا آلات حرب الحصار ولعبت دورا فعالا لفت انظار الاخباريين فسجلوه واوضحوا دوره . ويمكن تعليل هذا الوضع بكون الحروب المتطاولة التي خاضها العرب في الجبهة الغربية كانت مع بيزنطة القوة الغالبة في البحر والتي تعتمد على قوتها البحرية في المقام الاول وللآماد الطويلة ، أما الحروب البرية فخاضوها على أمد قصير لم يوفقوا فيه . ولم يخض العرب في بر الغرب حروبا طويلة الامد الا مع القبائل المغربية التي كانت تماثلهم في طريقة الحياة البدوية والحياة خارج المدن المسورة . اما في الشرق فكانت فارس دولة برية وجرت معارك قاسية في الطريق الى المدن

وحولها وأثناء حصارها . جرى أول استخدام للمنجنيق أثناء حصار المدائن عاصمة الفرس سنة ١٦ هـ ، فقد اقاموا على يهرسير ، الجزء السفلي منها شهرين رماهم الفرس خلالها بالمجانيق وصاروا يدبون اليهم بالدبابات ، وهنا استغل العرب أو دفعتهم الحاجة الى استغلال من كان قد استسلم لهم قبل ذلك من دهاقين الفرس ، وكان أحدهم دهقان ساباط استسلم على الصلح وتأدية الجزاء للعرب وهم في طريقهم الى المدائن بعد انتصار القادسية ، فاستصنعه سعد عشرين منجنيقا نصبها علىأهل يهرسير(٧٩) . واستمر استخدام المنجنيق بعد ذلك في الشرق وفي جهات ارمينيا واذربيجان على نطاق أضيق ، وربما رمزت افكار اسطورية تالية الى ظهور واستخدام المنجنيق في الشرق بالزعم أن اول من استخدم المنجنيق في العالم هو ابرهة الاجذم (٨٠) ومهما يكن من أمر نرى المنجنيق يتطور وفعاليته تزداد ودوره يبرز أكثر فأكثر في موجة الفتوحات العربية الاسلامية أواخر القرن الاول الهجري . وخاصة في بلاد ما وراء النهر ، حيث كان قتيبة بن مسلم الباهلي يقود العمليات . ففي سنة ٩١ هـ حاصر هذا القائد ملك شومان على مقربة من بخارى ووضع على قلعته المجانيق التي اشتهر منها ما سماه الفحجاء ، وهي تسمية يدل معناها الحرفي كما هو في اللسان « امرأة فحجاء (٨١) متباعدة ما بين الساقين » على انه منجنيق أكبر من غيره . وتضيف الرواية ما يفيد بفعالية هذه المنجنيقات وخاصة الفحجاء منها ، اذ تقول « فرمى بأول حجر فاصاب الحائط ، ورمى بآخر فوقع في المدينة ثم تتابعت الحجارة فوقع حجر منها في مجلس الملك فأصاب رجلا فقتله ففتح القلعة عنوة (٨٢) . وفي حربه مع السند وفتح سمرقند بعد سنتين وضع قتيبة المنجنيقات عليها وأظهرت الرواية مدى فعاليتها بايراد نقاط عدة منها انها فتحت ثلمة في الاسوار تلتها ثلمة يظهر انها كانت كبيرة الى الحد الذي اضطر السند لطلب الموادعة والصلح ، ورد قتيبة بأنه لايصالحهم الا ورجاله على الثلمة ومجانيقه تخطر على رؤوسهم ومدينتهم .

اضافة لذلك استخدم قتيبة وسيلة اخرى من وسائل حروب الحصار وهي النقب سنة ٨٧ عند فتح بيكند الواقعة في نهاية مفازة تفصل بينها وبين بخارى بعد عصيانها ، فعندما بلغ ذلك قتيبة رجع اليهم وقد تحصنوا فقاتلهم شهرا ، ثم وضع العقلة في أصل المدينة (السور) فعلقوها بالخشب ، وهو يريد اذا فرغ من تعليقها ان يحرق الخشب فتهدم فسقط الحائط وهم يعلقونه فقتل أربعين من الفعلة .

كذلك برز امام العرب المسلمين في تقدمهم في الجبهة الشرقية عائق آخر عدا الاسوار وهو الحسك الذي يضعه الفرس على الطرق المؤدية الى مدنهم . حدث ذلك في وقعة جلولاء عندما نثر الفرس حسك الخشب فتعطل عمل الخيل ولم يستطيع العرب التقدم الا بعد ثمانين زحفاً . ثم طور الفرس عملهم فصاروا يضعون حسك الحديد الامر الذي لم يستطع العرب تجاوزه الا بالحيلة ، اذ تظاهروا بالتراجع كي يستدرجوا الفرس ويعرفوا منهم الممرات الخالية من الحسك ، وقد تم ذلك واستدرجت القوة الفارسية الى مسافة بعيدة بينما كانت قوة اسلامية كامنة تسير على الممر الخالي من الحسك نحو باب المدينة فتقف امامه حائلة بينه وبين القوة الفارسية التي ارتد عليها المتراجعون ولاذت أمامهم بالفرار للوصول الى مدينتها فهوجمت من الطرفين واضطر افرادها لدخول مناطق الحسك . وخلا الممر الخالي بذلك للمسلمين كي تتقدم جموعهم من المدينة (٨٣) .

النظام المالي للجيش : ـ

لم يكن المحاربون الاولون ينالون غير الغنائم أو بعض واردات الاراضي الزراعية ذات المردود المحدود نسبياً من اراضي الجزيرة العربية ، كما مر معنا سابقاً . وكان التوزيع ، بعد اخذ خمس الله والرسول من الغنائم ، بالسوية ، باستثناء حالة المؤلفة قلوبهم ، واستمر توزيع الوارد بجميع اشكاله بالسوية حتى أيام أبي بكر . ثم جاء عمر بن الخطاب واتسعت الفتوحات وتضخمت الواردات ، ولم تعد كما كانت في عهد أبي بكر تكفي للمعاش مما يوجب ان تكون متساوية لتساوي الحاجات الاساسية بين الناس ، بل اصحيت تفيض عنها . مما جعل عمر بن الخطاب بعد رفض تقسيم الاراضي بين المفتتحين لها بل جعلها ملكاً عاماً للمسلمين يعمل بها اصحابها ويدفعون عنها خراجاً هو بمثابة اجر لها يوزع على المسلمين حسب القاعدة المعروفة والمشهورة التي يتفاوت فيها عطاء الناس حسب القرابة من رسول الله والسابقة والبلاء في الاسلام . لكن هذا العطاء يناله الجند كمحاربين ويناله آخرون . أما ما اقتصر عليهم فمنها الانفال واصلها كما يقول ابو عبيد جماع الغنائم أو كل نيل يناله المسلمون من أموال أهل الحرب . وفي كلام العرب « كل احسان فعله فاعل تفضلاً من غير ان يجب ذلك عليه ، وكذلك الانفال . والمشهور منه هو نفل السلب وهو ما على القتيل من ثياب وسلاح بما فيه الفرس والدرع والرمح (٨٤) . اما قسمة الغنائم الاخرى فكانت على الاساس المعروف ، بأن للمقاتلة اربعة اخماس ما غنم عنوة ، وخمسا لما كسب دون ايجاف خيل ولا ركاب . وتجمع الغنائم عند نيلها لدى صاحب القبض وعملية احتجانه دون تسليمه تسمى الغلول وهي في الاصل كتمان الشخص لما

ائتمن على ايصاله للآخرين ، وهو المعنى الذي يفسرها به ابن اسحاق لها من الآية الكريمة « وما كان لنبي ان يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » أي ما كان لنبي ان يكتم الناس ما بعثه الله به اليهم عن رهبة من الناس ولا رغبة . ثم استخدمت بمعنى احتجان الرجل الغنائم لنفسه دون ادخالها في القبض وقد شدد الرسول الكريم على تحريمها ، ويؤكد ذلك صاحب اللسان في شرحه للكلمة بقوله « والاحاديث في الغلول كثيرة » . وكانت عملية الجمع وقسمته بعد ذلك على المحاربين بعد عزل الخمس بيد موظفين بعينهما القائد ففي المدائن سنة ١٦ هـ قسم سعد دور المدائن بين الناس فأوطنوها ، والذي ولي القبض عمرو بن عمرو المزني والذي ولي القسم سلمان بن ربيعة . ولكن الوظيفتين قد تجمعان لشخص واحد كما حصل بعد جلولاء فما غنم ولي قسمته سلمان بن ربيعة فكانت اليه يومئذ الاقباض والاقسام . اما مؤهلات هؤلاء الاشخاص فكانت اول الامر بسيطة على ما يظهر كما حدث عند فتح الايلة سنة ١٤ هـ ، ويورده الطبري بالقول « ولم يجدوا قاسماً يقسم بينهم فكان زياد قاسمهم ، وهو ابن اربع عشرة سنة له ذؤابة فأجروا عليه كل يوم درهمين » . لكن ضخامة الغنائم وصعوبة قسمتها فيما بعد جعلت من الضروري ان يختارلها عارف بالحساب كما فعل عمر عندما عين السائب بن الاقرع الذي تشير اليه الرواية بالقول انه كان كاتباً حاسباً .

لكن الشيء الذي بقي يمد الجند بالمردود الدائم كان العطاء الذي طور بالنسبة للجيش عند الفتوحات عندما شملت السابقة عدا عن السبق الى الاسلام البلاء في الفتوحات والسبق اليها . وهكذا نالت نساء النبي عشرة آلاف مما يعبر عن أهمية القرابة . اما حسب السابقة فقد قسم الناس على ما يظهر الى فئات كبرى وضمن كل فئة وجدت اصناف ، ويلاحظ وكأن هذه التقسيمات اعتمدت الاساس الثلاثي . فالفئة الاولى فئة السابقين الى الاسلام في الفترة التي سبقت الفتوحات العظمى قسمت الى ثلاثة اصناف ؛ أهل بدر ولهم خمسة آلاف (درهم سنوياً) ثم فرض لمن بعد بدر الى الحديبية الى ان اقلع ابو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ، في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولي الايام قبل القادسية . ويأتي بعد هؤلاء مباشرة الذين شهدوا الفتوحات ، الذين ينقسمون بدورهم الى ثلاثة اصناف ؛ هناك من حضر المعارك الكبرى التي كسرت شوكة العدو مثل القادسية واليرموك . وفرض له الفان ولاهل البلاء البارع منهم الفان وخمسمائة . ويأتي بعدهم صنف تال فرض له الف ، والصنف الثالث هم الذين قدموا بعد ذلك وفيهم ثلاثة أصناف أيضاً؛ الروادف المثنى وفرض لهم خمسمائة والروادف الثليث ثلثمائة والربيع مائتان وخمسون (٨٦) . وقد دعي عطاء الالفين

وخمسمائة شرف العطاء الذي حوله معاوية الى الفين (٨٧) . على ان هذه الفئات لم تكون طبقة مغلقة بل كان بالامكان انتقال جماعة كاملة من مرتبة لاخرى بسبب ضرورات معينة وقد تم ذلك منذ ايام عمر بن الخطاب كما يروي الطبري عن سيف القول بأنه « وكان اصحاب الالفين ممن شهد القادسية ثم أتى البصرة مع عتبة خمسة آلاف وكانوا بالكوفة ثلاثين الفاً ، فألحق عمر اعدادهم من أهل البصرة من أهل البلاء في الالفين حتى ساواهم بهم (٨٨) . ويلاحظ ان اعداد من ينالون هذا العطاء الكبير في العراق كبيراً ، بصرف النظر عن مدى ايماننا بصحة هذه الارقام التي يهمنا منها نسبة من ينالون العطاء الكبير بالنسبة لافراد الجيش الآخرين ، والتي من الطبيعي ان ترتفع في العراق لكونه من مواطن الجهاد الاولى . اما الشام التي كانت من مواطن الفتح الاولى ايضاً فان عدد من ينالون العطاء الكبير فيها غير معروف وان كانت بعض المؤشرات تدل على كونه كبيراً ، فعندما قتل الضحاك بن قيس في موقعة مرج راهط التي جرت بينه وبين مروان بن الحكم قتل « ومعه ثمانون كلهم يأخذ القطيفة لكل رجل منهم في العطاء الفان وقطيفة يعطونها مع عطائهم (٨٩) » ويبين ابن عبد الحكم ان نسبة من كان ينال شرف العطاء كان يبلغ العشر ، دون ان ندري اذا كان المقصود به مصر وحدها او على مستوى الدولة زمن معاوية اذ يقول « كان الديوان في زمان معاوية اربعين الفاً وكان منهم اربعة آلاف من مائتين مائتين (دينار) .

لكن التطور خلال العصر الاموي سار باتجاه تعداد اكبر في المراتب وتدرج اكثر في كمية العطاء ، كما يستنتج من رواية للبلاذري يظهر فيها عبد الملك بن مروان يتحدث مع اثنين عطاء احدهما ثلاثمائة والآخر سبعمائة ، كما تطور باتجاه الخضوع لرغبة الامير مع ما يتحكم بهذه الرغبة من دوافع ، يبقى من بينها بالطبع البلاء في الحروب ، لكن الولاء للبيت الاموي والاخلاص له كان دافعاً هاماً لزيادته فقد نقل معاوية حسب قول تيوفانس بيت مال الدولة ، من الكوفة الى دمشق وزاد في عطاء أهل الشام وانقص عطاء أهل العراق (٩٠) وتدعم الرواية العربية هذا القول ، اذ يروي الطبري في احداث سنة ٨٢ هـ عن أبي مخنف ان عبد الملك عرض على أهل العراق نزع الحجاج عنهم وان يجري عليهم اعطياتهم كما تجري على أهل الشام (٩١) . ومثل هذا الامر منطقي جدير بالتصديق لما عرف عن أهل الشام من ولاء للامويين ، ومع ذلك لم تكن كل قبائلهم على نفس الدرجة من الولاء بل ان بعضهم ربط مصيره بمصيرهم خلال حقبة طويلة من أيام حكمهم كقبيلة كلب اليمانية في فلسطين ، ومن الطبيعي الا يكون عطاء هؤلاء كعطاء سائر القبائل ويذكر لنا المسعودي ما يفيد بحدوث ذلك فعلاً اذ يقول « اشترط حسان بن مالك ،

وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام . على مروان ما كان له من الشروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية بن يزيد : منها أن يفرض لهم لألفي رجل ألفين ألفين (٩٢) . وانطلاقاً من هذا المبدأ من المنتظر ان يزيد البعض في كمية العطاء عند توليهم او عندما تزداد الحاجة للجند لاخماد ثورة او انقاذ الامير من ورطة وقد انتقل هذا التقريب بزيادة العطاء للثائرين على الدولة الذين يسيطرون على مناطق غنية كالزبيريين فقد كان مصعب يعطي أهل العراق عطاءين في كل سنة ؛ في الشتاء عطاء وفي الصيف عطاء فأحبه الناس حباً شديداً . لكن عودة السيادة للامويين حرمت أهل العراق من ذلك فقد ورد في خطبة للحجاج « ان الزيادة التي زادكم ابن الزبير في اعطياتكم زيادة فاسق منافق ولست اجيزها » رغم انهم وعدوا على ما يظهر من قبل عبد الملك عند الاجهاز على ابن الزبير بابقائها لهم . لذلك تصدى للحجاج ابن الجارود قائلاً « انها ليست بزيادة فاسق منافق ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبد الملك قد أثبتها لنا فكذبه وتوعده » (٩٢) .

لعب الخليفة بهذا دور المانح للعطاء حسب مشيئته لجلب الاتباع وكسب الولاء لكنه استخدمه أيضا كوسيلة ضغط لمنع التمرد ؛ ففي سنة ٦٠ هـ عندما تحرك اتباع الحسين بن علي في الكوفة لجأ عبيد الله بن زياد الى التهديد بالغاء عطاء كل الجماعة التي تضم اعداء للبيت الاموي ؛ وهكذا جاء في كتاب هذا الوالي « وايما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه الينا صلب على باب داره ، والغيت تلك العرافة من العطاء » .

ويظهر أنه كان على من ينالون العطاء ان يجهزوا أنفسهم بجهاز للحرب يتناسب مع المقدار الذي ينالونه . ففي زمن الحجاج كان يفرض في ثلاثمائة ففرض للحرنفش احد بني ثعلبة بن سلامان ؛ وكان يأخذ من فرض له بفرس جواد وسلاح شاك » . كما أن عمر بن عبد العزيز أعلن أنه « لايقبل من رجل له مائة دينار الا فرس عربي ودرع وسيف ورمح ونبل » (٩٤) .

لم يكن العطاء خاصا بالجند وان كانوا غالبية من يناله ، ويشاركهم وعلى نطاق اوسع آخرون في تقاضي ما يسمى بالرزق شهريا ؛ وهو شيء مخصص للغذاء يقدر بجريبين حبوبا شهريا للفرد وان كان الوزن الناتج عنهما قد تغير من وقت لآخر ، كما تمايزت أنواع الطعام المقدم بحسب واردات المنطقة ففي الشام دخل الزيت الى جانبه . فقد روى ابن عساكر أن عمر بن الخطاب لما وصل الى الجابية ، كان من جملة ما فعله أنه « دعا ابن قاطور صاحب الارض فقال : أخبرني ما يكفي الرجل من القوم في الشهر واليوم ؟ فأتى بالمدي والقسط

فقال : يكفيه هذان المديان في الشهر وقسط زيت وقسط خل فامر عمر بمديين قمحا فطحنا ثم عجنا ثم ادمهما بقسطي زيت ، ثم اجلس عليهما ثلاثين رجلا فكان كفاف شبعهم » (٩٥) . واضافة الى الارزاق كان يدفع للجند معونة وقت الغزوات ومن الامثلة عليها ان يزيد بن معاوية دفع الى جانب عطاء سنة كاملة مائة دينار لكل من ينخرط في صفوف الجيش المتوجه ضد الثائرين في المدينة .

أما عن مواعيد الدفع فيزودنا الطبري بخبر عنها من أيام عمر يستقيه من سيف الذي يقول : « وكتب عمر الى سعد بن مالك والى عتبة بن غزوان ان يتربعا بالناس في كل حين ربيع في اطيب ارضهم وامر لهم بمعاونتهم في الربيع من كل سنة وباعطائهم في المحرم من كل سنة وبفيئهم عند طلوع الشعرى في كل سنة وذلك عند ادراك الغلات » (٩٦) . ويجمع صالح العلي جملة اخبار عن عدد من الولاة والخلفاء الامويين تدل على أنهم كانوا يقدمون العطاء في المحرم لكن هذا لم يكن مطبقا من قبل الجميع كما يذكر الباحث نفسه . وبالتالي لايمكن القول بوجود قاعدة ثابتة ، فقد يعطى الجند اعطياتهم وارزاقهم عند القيام بالغزو تشجيعا لهم ، كما فعل عبد الملك بن مروان عندما عين عمر بن عبيد الله بن معمر لقتال ابي مديك الخارجي وسمح له بأن ينتدب من شاء من أهـــل القطرين (البصرة والكوفة) وانتدب له مـــن كـــل بلد عشرة آلاف فأخرج لهم ارزاقهم واعطياتهم فأعطوها » (٩٧) .

من ناحية اخرى نجد في اقصى الطرف الغربي تقديما للرزق على شكل مالي كالمعونة في الشرق بشكل منظم دقيق ينقله لنا المؤرخ ابن الخطيب المتأخر في الزمن كثيرا عن اوائل المؤرخين الاندلسيين ، لكننا لانستطيع الجزم بالزمن الذي وصل فيه الى هذه الدقة .

فقد كان العرب المسلمون هناك منقسمين الى فئتين ؛ الاولى هي الفاتحة التي استقرت فيما فتحته من اراض ودعي افرادها بالبلديين ، تمييزا لهم عن موجة ثانية قدمت من الشام في الغالب لقمع تمرد القبائل المغربية سنة ١٢٢ هـ ، ودعي افرادها بعد بقائهم في الاندلس بالشاميين ، وهم جند معدون للغزو . وكانت لكل فئة من الفئتين طريقته في الغزو ومدته ورزقه الخاص أثناء قيامه بالعملية . فقد كان الخليفة يعقد للشاميين لواءين لواء غازيا ولواء مقيما ، وكان رزق الغازي مائتي دينار ويبقى المقيم بلا رزق ثلاثة شهور ثم يدال بنظيره من أهله أو غيرهم ، ويرزق الافراد من الغزاة عند انقضاء غزوهم عشرة دنانير اذا كانوا من أقاربه بموجب الكشف الذي يقدمه صاحب اللواء ويعطى الناس على قوله

فقط تكرمة لهم . أما اذا كان الغازي من غير اقارب صاحب اللواء فيرزق خمسة دنانير . اما البلديون فيعقد لهم لواءان غاز ومقيم لمدة ستة شهور ، ولا يعطى من هؤلاء الا المعقود له مائة دينار ولا ديوان لهم للعطاء ، ويمكن تفسير ذلك بأن هؤلاء تمولوا من الاراضي المفتوحة التي نزلوا بها (٩٨) .

أما عن طريقة توزيع العطاء فالاخبار متوافرة لنا عنها في العراق ومصر حيث كان من المنتظر ان يتم على اساس العشيرة ووحدة العرق والوحدة العسكرية . لكن تفاوت العدد بين العشائر وعدم استقراره بسبب استمرار الهجرة جعل التوزيع كما لاحظ العلي يتم على اساس وحدة مالية هي العرافة التي يتألف عطاؤها من مائة ألف درهم كما يقول سيف « وعرفوهم على مائة ألف درهم ، فكانت كل عرافة من القادسية خاصة ثلاثة واربعين رجلاً وثلاثا واربعين امرأة وخمسين من العيال ... ، وكل عرافة من أهل الايام عشرين رجلا على ثلاثة آلاف وعشرين امراة ، وكل عيل ، على مئة الف درهم ، وكل عرافة من الرادفة الاولى ستين رجلا وستين امراة واربعين من العيال ممن كان رجالهم الحقوا على ألف وخمسمائة على مائة ألف درهم » (٩٩) . لكن الاوضاع لم تستقر على هذا الاساس ، اذ كانت اعداد المهاجرين تتزايد لكن كمية المال لكل عرافة وللعشائر فيها ظلت ثابتة ، مما جعل زياد بن ابيه يخير الناس بين أخذ نصف اعطياتهم وارزاقهم أو ان تكفيه كل عشيرة من فيها ، فمنهم من ضم عشيرته ومنهم من طابت نفسه بنصف عطائه وارزاقه وارزاق عياله (١٠٠) .

كان العريف مسؤول التوزيع ولم يلبث ان اصبح مسؤولا عن استنفار الجند الذين يدفع لهم الى الحرب اضافة لمسؤليته عن الامن . ويظهر ان البعض صار يستغل وضعه، فلا يميت الاموات ويتقاسم عطاءه مع أهله مما كان يدفع الولاة الى اعادة التدقيق في سجلات العطاء كما فعل زياد في البصرة ، وكما ظهر بشكل واضح بمصر في عهد معاوية وولاية عمرو بن العاص ، حيث نظمت وظيفة العريف الذي تصف الرواية دقته في عمله « وكان معاوية قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب اسماءهم ويقال نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله فيسميه فاذا فرغ من القيل اتى الديوان حتى يثبت ذلك » .

وكان لموالي بعض القبائل عرفاؤهم اذ ينقل ابن ماكولا عن ابن يونس القول بأن « عبد الله بن صالح مولى قريش يعرف بمولى بسامة حضر فتح مصر ،

وكان عريف موالي قريش عمر طويلا وكان في شرف العطاء » . اكمال ، ج ١ ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ . وان عامر جمل مولى عبد الله بن يزيد بن برذع الجملي ، كان عريف موالى مذحج ، اكمال ج٢ ، ١٢١ .

لكنه حدث على ما يظهر هنـــا ما حدث في أماكن أخرى مــن تطورات على اوضاع الناس مما جعل الولاة يعيدون التدوين عدة مرات « فأول تدوين كان بمصر على يد عمرو بن العاص ثم دون عبد العزيز ٦٥ ـ ٨٦ هـ ودون قرة بن شريك ٩٠ ـ ٩٦ هـ التدوين الثالث ثم دون بشر بن صفوان تدوينا رابعا (١٠١) . وبعده لم يكن هناك تدوين الا التعديل الذي حدث في زمن هشام بن عبد الملك عندما وفد ابن الحجاب على هشام فسأله ان ينقل من قبائل قيس ابياتا الى مصر فأذن له هشام في الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر (١٠٢).

القواعد العسكرية :

عندما دخل العرب فاتحين للمنطقة المحيطة بالجزيرة العربية نزلوا فيما جلا عنه أهله في بعض البلدان كالشام مجاورين للسكنى فيمن بقي من السكان باستثناء السواحل والثغور حيث كان الجلاء عاما في بعض المواقع . أما في المناطق الداخلية حيث كان العرب يتابعون الفتح فقد نزلوا في قواعد خاصة لم تلبث ان أعمرت أو مصرت . وقد اختيرت مواقعها رغم التباعد الكبير بينها بناء على مبدأ ينسب اتخاذه للخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب واكثر النصوص دلالة عليه ما يورده ابن عبد الحكم ويقول : « ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها هم أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها فكتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بيني وبين المسلمين ماء قال : نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل فكتب عمر الى عمرو اني لا أحب ان تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فتحول عمرو ابن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط » ويروي البلاذري رواية مشابهة فيها « أن عمر بن الخطاب كتب الى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمدائن كسرى والى عامله بالبصرة والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية ان لاتجعلوا بيني وبينكم ماء متى اردت ان اركب اليكم راحلتي حتى اقدم عليكم قدمت » .

كذلك يعزى لعمر بن الخطاب ايضا ضمن المبدأ المتبع لبناء القواعد مراعاة مايلائم صحة الجند فقد كتب عمر الى سعد حسب ما يورده الطبري عن سيف « انبئني ما الذي غير الوان العرب ولحومهم ؟ فكتب اليه : ان العرب خدّدهم

(اهزلهم) وغير ألوانهم وحومة المدائن ودجلة ، فكتب اليه : ان العرب لايوافقها الا ما وافق ابلها من البلدان ، فابعث سلمان رائدا وحذيفة - وكانا رائدي الجيش - فليرتادا منزلا بريا بحريا ... » .

بعد اختيار الموقع يبنى المسجد ومقر الامير في الوسط ثم تقسم البقية الى قطائع ويتولى العملية اناس يوكلهم الامير بذلك ويعينهم له فيقومون بانزال الناس في مواقعهم المحددة ، وهكذا كان على انزال البصرة ابو الجرباء عاصم بن الدلف ، احد بني غيلان بن مالك بن عمرو بن تميم . أما في الفسطاط فقد رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية الى موضع فسطاطه فانضمت القبائل بعضها الى بعض وتنافسوا في المواضع فولى عمرو على الخطط معاوية بن خديج التجيبي وشريك بن سمي الغطيفي وعمرو بن قحزم الخولاني وحبويل بن ناشرة المغافري وكانوا هم الذين انزلوا الناس وفصلوا بين القبائل » (١٠٦) كما تولى ذلك في الكوفة السائب بن الاقرع وابو الهياج الاسدي (١٠٧) .

وكانت المشكلة فيما يتعلق بالانزال هو مراعاة القبلية الضرورية لضمان حسن التجاور اضافة للضرورات الحربية بما ان القبيلة وحدة ، لكن الضرورات المالية في توزيع العطاء وعدم استقرار اعداد القبائل بسبب الوافدين كل ذلك ادى الى مراعاة مبادىء أخرى اضافة للقبلية ويظهر ذلك واضحا باستعراض العملية في القواعد الثلاث .

في الكوفة التي تعني الرملة المستديرة حيث قام مركز الامير والمسجد في الوسط وزعت الخطط او المناهج الرئيسية على القبائل وفي نهاياتها خطط اصغر انزلت فيها اعشار الايام والقوادس كما حفظت اماكن للمقيمين في الثغور كي ينزلوا بها عند موافاتهم . لكن الامر لم يستقر على هذه الحال لاستمرار الهجرة، مما أدى الى تغيير في أماكن النزول كما يقول سيف « فلما ردفتهم الروادف ، البدء والثناء وكثروا عليهم ، ضيق الناس المحال فمن كانت رادفته كثيرة شخص اليهم وترك محلته ومن كانت رادفته قليلة انزلوهم منازل من شخص الى رادفته لقلته اذ كانوا جيرانهم ، والا وسعوا على روادفهم وضيقوا على أنفسهم » وريثما تتم مثل هذه الـ[illegible] اعدوا مناخاً لكل رادف فكان كل من يجيء سواء فيه حتى يأتوا الهياج (المسؤول عن الانزال) فيقوم في امرهم حتى يقطع لهم حيث احبوا » (١٠٨) . لكل هذه الاسباب قسم الناس الى اعشار تراعي النسب القبلي ، لكن التوازن العددي بينها لم يلبث ان اختل فعدلهم سعد الى اسباع روعيت فيها قدر الامكان ضم السبع لقبائل متقاربة نسباً بدليل انه عندما سمح له بذلك « أرسل الى قوم من نساب العرب وذوي رأيهم وعقلائهم منهم سعيد بن نمرات ومشعلة بن

نعم فعدلوهم على الاسباع وبعد مضى قرابة ثلاثين عاماً اعيد التعديل الى الارباع ايام زياد بن ابيه ولكن ظل القرب في النسب مرعياً .

اما البصرة فينسب تمصيرها الى عتبة بن غزوان في تاريخ غير متفق عليه بين ١٤ و ١٦ هـ ، وقد بدأه باقامة معسكر من الخيام والفساطيط والقصب في مكان يسمى الخريبة ، ثم توسع الى جهة منطقة مجاورة تدعى الدهناء حيث حد فيها مكاناً للمسجد الجامع وتأسست بذلك نواة البصرة . ثم توسعت هذه النواة بفعل الهجرة على نطاق واسع اليها ، خاصة بعد تحويل موارد بعض مناطق الكوفة اليها ، وادى هذا بدوره الى ازدياد اعداد من يتناولون العطاء فيها ، اضافة لقيام بعض العرفاء بابقاء من توفي حياً على سجلاتهم وشعرت الدولة أيام زياد بن أبيه بوطأة الثقل فقام هذا الوالي بالتدقيق في السجلات وحذف اسماء المتوفين ، ثم نقل من مصر العراق الى خرسان خمسين الفاً مع عيالاتهم حسب قول البلاذري . الذي تدعمه أيضاً رواية للمدائني في الطبري وتحدد أن النصف كان من البصرة ، والى زياد هذا تنسب الرواية تقسيم الجند في البصرة الى اخماس كانت اساس تعبئتهم للحرب كما يظهر في موقعة المربد . ويلاحظ في هذه الاخماس أيضاً مراعاة القبلية الى حدود معينة ، حتى ان خمس العالية منها كان خليطا الى حد تعيير الخصوم له ونعت اهله بالقول « ان اهل العالية كأبل الصديق جمعت من كل اوب . كما ان عديدا من العشائر كانت في خمسها بعيدة عن اهلها ويتردد في الاخبار ذكر للعديد من الاشخاص الذين يقولون عن افراد منهم انه من قبيلة كذا لكن عداده (أي الخمس الذي ينتمي اليه) في كذا .

كانت الفسطاط القاعدة الثالثة التي انشئت في هذه الفترة واسمها مشتق من مخيم عمرو بن العاص كما تقول الرواية العربية ، الا ان كاتب مقالة « الفسطاط » في الموسوعة الاسلامية يورد ان البعض يعتقد بأنها تعريب للكلمة اليونانية الموجودة على البرديات مزدوجة اللغة والتي تعني المخيم او المعسكر . وقد بنيت على ضفة النيل الشرقية الى جانب حصن بابليون المشهور في عمليات الفتح الاسلامي لمصر . هنا نزل الجند الفاتحون ضمن خطط موزعة على القبائل. ولم يرد في الروايات ما يفيد تنظيمها في اخماس او ارباع بل الغالب ان لكل قبيلة خطة ولها ديوانها المالي ، لكن بعض القبائل ممن لم يكن عددها كافياً لينفرد بدعوة من الديوان وكرهت ان تدعى باسم غير اسم قبيلتها وجدت حلا موفقاً لدى عمرو بن العاص بجمعها تحت اسم لا يمت بصلة لاسم احد منها وهو الراية التي « لم ينسبها لاحد وقال يكون موقفكم تحتها فكانت لهم كالنسب الجامع وكان ديوانهم عليها . وكما دعت الضرورة المالية لهذا الجمع بين قبائل كذلك

دعت ضرورات الحرب لجمع قبائل أخرى في خطة اعطيت أيضاً اسماً جامعاً وليس اسم قبيلة وهي خطة اللفيف رغم ان لها عدة دواوين لكل قبيلة ديوان » (١٠٩) .

لم تتمصر هذه القواعد وتعمر دفعة واحدة وانما تم ذلك بالتدرج من مدينة من الخيام الى مدينة ذات عمران ، فمدينة الكوفة حسب رواية ياقوت عن ابن عباس « أخصاصاً من قصب اذا غزوا قلعوها وتصدقوا بها فاذا عادوا بنوها فكانوا يغزون ونساؤهم معهم » ، وحتى هذا البناء الموقت استأذنوا فيه عمر الذي تردد وقال : العسكر اجد لحربكم واذكى لكم وما احب أن اخالفكم . وعندما حصل حريق في القصب سمح لهم عمر بالبناء باللبن . كذلك كانت هذه القواعد تتطور باتجاه اخر هو التوسع تبدأ صغيرة وتكبر بالتدريج كما حصل في البصرة اذ انهم كانوا يتوسعون بالتدريج ومع توسعهم يمدون النهر الذي يستقون منه .

من ناحية أخرى لم تكن هذه القواعد على الحدود وانما كان لها ثغور بعيدة على حدود الاعداء تتخذ كمحارس ونقاط انطلاق نحو ارض العدو . وقد كان للكوفة عند تمصيرها اربعة ثغور حسب قول سيف هي حلوان ، وماسبذان (وراء جلولاء) وقرقيسياء والموصل . وعند عودتهم من الغزو كانوا يخلفون فيها حاميات تصل الى الآلاف ، كما هو حال أهل البصرة « الذين كانوا يغزون من لم يصالح من أهل خراسان ، فاذا رجعوا خلفوا اربعة آلاف للعقبة » (١١١) .

استمرت الاحوال على هذا المنوال قرابة ثلاثين عاماً ، اذ اقيمت القواعد الثلاث في اواخر العقد الثاني من القرن الاول الهجري ، وخلالها كانت فتوحات العرب المسلمين تتوسع وغزواتهم تتعمق ، مما جعل القواعد بعيدة جداً عن ميدان العمليات في المشرق والمغرب على حد سواء . وبعد انقضائها في حوالي سنة خمسين للهجرة ، قام العرب المسلمون باقامة قواعد متقدمة ، عزت الروايات انشاءها لمبادرات فردية من القواد ، لكن التلازم الزمني في اقامتها وتوطين العرب المسلمين بها يدعو للاعتقاد بأن العملية كانت تنفيذاً لسياسة عامة للدولة . ففي الشرق يورد البلاذري أن زياد بن ابي سفيان عين على البصرة سنة ٤٥ هـ وقام بدوره بتعيين امير بن احمر المتوفى سنة ٥٠ هـ وكان اول من اسكن العرب مرو وفي السنة التالية ولى زياد الربيع بن زياد الحارثي سنة ٥١ هـ خراسان ومعه حول الخمسين الفاً من أهل المصرين (الكوفة والبصرة) كما ذكرنا سابقاً . اما في المغرب فكانت الغزوات تنطلق من الفسطاط وتخوض معارك

تنتصر في العديد منها لتحرز الجزية وتتقبل استسلام البعض . لكنها ما ان تعود حتى ينتقض من استسلم وتتوقف الجزية . مما يضطرهم للبدء من جديد. وفي نفس السنة التي وطن فيها العرب بمرو . أي سنة ٥٠ هـ . شرع عقبة في بناء مدينة القيروان . كما يقول ابن عذاري . واجابه العرب الى ذلك . وقد سار في عملية البناء واختيار الموقع وفق المبدأ المنسوب لعمر بن الخطاب في بناء القواعد الاولى . كما يستفاد مما يرويه ابن عذاري حول هذا الموضوع بقوله على لسان عقبة وجنده « فأرى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للاسلام الى آخر الدهر فاتفق الناس على ذلك وان يكون أهلها مرابطين» وقالوا : « نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط . فقال عقبة : اني اخاف ان يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها . ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون . فلما اتفق رأيهم على ذلك قال : قربوها من السبخة فان دوابكم الابل وهي التي تحمل اثقالكم » (١١٢) .

من هذه القواعد صارت الغزوات تنطلق شرقا وغربا وتعبر الحواجز المائية ، ففي الشرق مثلا . كانت تخرج من مرو الى آمل التي يقول عنها ياقوت الحموي انها مدينة مشهورة في غربي جيحون على طريق القاصد الى بخارى من مرو . وعند قسم من هذه المدينة يدعى آمل الشط كان العرب يعبرون جيحون الى البلاد التي عرفها العرب باسم بلاد ما وراء النهر كما فعل قتيبة في عبوره سنة ٨٧ هـ . وكانت عمليات مشابهة تجرى في الوقت نفسه في الغرب حيث وصلوا لاقصى المغرب واستقروا في قاعدة طنجة حيث اقام امير المغرب موسى ابن نصير مولاه طارقاً كحاكم لطنجة سنة ٨٥ هـ ، ومن هناك انطلق هذا الحاكم لفتح شبه جزيرة ايبيريا الاندلس ولحق به سيده حتى اتما الفتح .

الثغور البرية والبحرية :

لم تكن ثغور القواعد البرية في الشرق ثابتة على الاغلب اما في الغرب فقد كان الوضع مختلفاً اذ ان التقدم العربي الاسلامي وراء طوروس لم يتعد الهجمات ولو انها في بعض الاحيان وصلت لمحاصرة القسطنطينية ذاتها . اضف الى ذلك ان البيزنطيين ظلوا عموماً خلال القرن الاول الهجري سادة المتوسط يوزعون غاراته على شواطئ كل البلدان التي فتحها العرب المسلمون بدءاً بسواحل الشام مرورا بمصر وانتهاء بشواطئ المغرب . وكان على العرب في مواجهة هذا الامر ان يعمرو هذه المناطق لان أهلها من الروم البيزنطيين جلوا عنها ، كما تؤكد لنا الاخبار الواردة عنها كلها . فطرابلس التي فتحت أيام ولاية معاوية على

الشام ، كتب المحاصرون فيها الى ملك الروم يسألون : ان يبعث اليهم بمراكب يهربون فيها الى ما قبله فوجه اليهم بمراكب كثيرة فركبوها ليلاً وهربوا . وحصل الامر نفسه في الاسكندرية وقرطاجنة على الشاطىء الافريقي . كذلك حصل في الحدود البرية مع بيزنطة ، اذ اخليت المنطقة اما بهرب اهلها أو بحمل هرقل لهم عند انسحابه ، كما خرب العمران فيها وهدمت الحصون حتى يحرم الروم العرب المسلمين من مآوي وموارد اقتصادية (١١٣) .

تجاه هذا الوضع قام العرب وخاصة على الشواطىء باتباع سياسة معينة اول الامر « انهم كلما فتحوا مدينة ظاهرة او عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها اليه من المسلمين فان حدث في شيء منها من قبل العدو حدث سربوا اليها الامداد من الداخل » ويلاحظ أن قواعدهم الأساسية كانت في الداخل حيث الاجناد في الشام وحواضرها؛ جند فلسطين وحاضرته لد ثم الرملة، وجند الاردن وحاضرته طبرية ثم جند دمشق وحمص التي فصل عنها فيما بعد في المنطقة الشمالية أيام معاوية او أيام ابنه يزيد قنسرين كما يقول البلاذري ، ولو ان خبر الطبري الذي يعزو العمل لمعاوية اكثر تفصيلاً وتحديداً اذ يقول عن قنسرين « كانت رستاقاً من رساتيق حمص حتى مصرها معاوية وجندها بمن ترك الكوفة والبصرة في ذلك الزمان وأخذ لهم معاوية بنصيبهم من فتوح العراق واذربيجان والموصل والباب » . ويظهر أن ميدان عمليات هؤلاء الجند في الفتوح ضد اعداء المسلمين كان محدوداً لا يتعدى الهجمات في فترات متباعدة نسبياً على بيزنطة ، لذلك كانوا اداة الحكومة المركزية في الازمات كتعثر فتح أو قيام تمرد خطير كذلك الذي قام به ابن الاشعث على الحجاج ، أو تمرد القبائل المغربية في المغرب والاندلس . ونتج عن هذا الوضع الاخير انتقال نظام الاجناد الى الاندلس ذلك ان هشام بن عبد الملك عندما حدثت الثورة المغربية وقتل فيها أشراف العرب ارسل حملة من اجناد الشام من كل جند ستة الاف ومن أهل قنسرين ثلاثة آلاف فتم له سبعة وعشرون الفاً حسب رواية صاحب الاخبار المجموعة التي يضيف لها ثلاثة آلاف من مصر ، بينما يجعل ابن عذاري بعث الشام اثني عشر الفاً وانضم اليه اناس آخرون في الطريق حتى واجه الثائرين بثلاثين الفاً (١١٤) . والمهم في الامر بالنسبة لموضوعنا ان قسماً من هذا الجيش الذي فشل في شمال افريقيا توطن على ارض الاندلس برزق خاص هو ثلث أموال أهل الذمة ثم انزلوا على الكور ؛ نزل جند مصر في كورتي اكشونية وباجة وجند حمص في كورتي ليلة واشبيلية وجند فلسطين في كورتي شذونة والجزيرة وجند الاردن في كوره ريه . وجند دمشق في كورة البيرة وجند قنسرين في كورة جيان

واصبحت هذه الكور تسمى بالكور المجندة (١١٥) وصار اسم الجند النازل ببعضها علماً لها او مرادفاً لاسمها الاول كتسمية اشبيلية بحمص وغرناطة التي اضحت قاعدة البيرة دمشق .

اضافة لهذه المهمات التي كان يقوم بها الجند كانوا ايضاً عدة للدفاع عن السواحل منهم ترسل الجنود الى الساحل في اوقات الهجوم كمدد أو في الفترة التي يكون فيها البحر ملائما للابحار فيه ويتوقع مجيء الغزوات . وقد تطورت طريقة الدفاع والوسائل المتخذة لذلك ويورد لنا البلاذري صورة للوسائل الاولى عند الفتح نقلاً عن احد الشاميين بقوله « وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها اليه من المسلمين فان حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا اليها الامداد ، فلما استخلف عثمان رضي الله عنه كتب الى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزله اياها » ويظهر النظام في هذا الشكل الاول واضحاً في كيفية الرباط بالاماكن الساحلية التي ظلت قائمة كالاسكندرية حيث بقي فيها خلق من الروم لان المدينة كبيرة ولم تتسع السفن المائة الكبار التي كانت في مينائها عند سقوطها بيد العرب المسلمين لاكثر من ثلاثين الفاً فبقي فيها مئتا الف من الرجال حسب رواية ابن عبد الحكم . وقد اهتم عمر بن الخطاب بالدفاع عنها فأمر الولاة بتكشف رابطها وعدم الغفلة عنها ، كما كان يرسل من أهل المدينة رابطة لها . وجاء بعده عثمان بن عفان ليسير على السياسة نفسها ويأمر اميرها عبد الله بن سعد بن أبي سرح بتخصيص رابطة للاسكندرية وتحديد أمد اقامتها فيها بستة شهور من العام .

وفي عهد معاوية وولاية عمرو بن العاص الثانية تعدى تنظيم الدفاع الاسكندرية الى السواحل ، اذ يورد الكندي وابن الحكم القول بأن « عمرو بن العاص قطع من اصحابه لرباط الاسكندرية ربع الناس صائفة يقيمون ستة أشهر ثم تعقبهم شاتية ستة أشهر ، وخصص ربعاً للسواحل ، والنصف يقيمون معه» واستمر الاهتمام بالاسكندرية بعد وفاته ، فتجلى بتعيين حاكم خاص للمدينة مع حامية دائمة ؛ وهكذا عين عتبة بن ابي سفيان على مصر سنة ٤٣ هـ ، وعقد هذا بدوره لعلقمة على الاسكندرية مع اثني عشر الفاً من أهل الديوان يكونون فيها رابطة ، لكن أمير الاسكندرية الجديد لم يلبث ان كتب شاكياً قلة من معه من الجند وانه يتخون على نفسه وعليهم فخرج عتبة الى الاسكندرية مرابطاً وابتنى فيها دار الامارة . ويظهر ان الخليفة احيط علماً بالشكوى أيضاً فأخبر واليه بأنه يمكن الاعتماد كاحتياطي عند الحاجة على جند فلسطين في قاعدته الرملة حيث يوجد اربعة آلاف ممسكين بأعنة خيولهم ، واضافة لذلك امدهم

بأربعة آلاف . شمل التنظيم قضية نزول الجند في المدينة ، اذ كانوا قبلا ينزلون على البيوت الخالية حسب السبق ، ثم يتركونها عند قفولهم ، مما جعل عمراً يخشى عليها من الخراب فخص كل انسان بالمنزل الذي سبق اليه فيصبح له ولبني ابيه ، وفرض الترميم على رومها . وبهذا ظهر نوع من الاقطاع مختلف شرعاً عن الملكية ، اذ انه حق انتفاع فقط كما يقول الفقية يزيد بن أبي حبيب من انه لا يحل توريثها ولا بيعها ولاكرائها . اضف الى ذلك ان شؤون البحر اصبحت خطة خاصة عين لها « جنادة بن امية الازدي من الصحابة الذي شهد الفتح ثم ولي حطة البحر لمعاوية ، وفي سنة ثمان وخمسين عين لها الاكدر بن حمام احد فرسان لخم بمصر » (١١٧) .

اما على الشواطىء الشامية ، حيث اضحى قسم من موانئها مخرباً والآخر خاوياً ، فقد نظم امر الدفاع على اساس اعادة تعمير ما تخرب واعماره مع اعمار الخاوي بالجند وتجهيزه بوسائل مناسبة للدفاع وطلب الامداد . وقد بدىء بذلك منذ أيام ولاية معاوية على الشام ، مع اختلاف في الروايات حول الخليفة الذي اذن له في عمل ذلك ؛ اذ يعزوه البعض الى عمر ويرجعه البعض الآخر الى عثمان وهكذا ورد لـه الاذن من الخليفة بعدما وصف لـه حال السواحل « في مرمة حصونها واقامة الحرس على مناظرها أي لاكتشاف السفن القادمة واتخاذ المواقيد لها ، وهي التي تشعل النار فيها ليلاً ويرسل الدخان منها نهاراً وذلك لطلب الامداد من الداخل . وهذا يعني انه ظهر نظام اقامة مرابطين على الساحل أو حاميات مع توفير وسائل عند الضرورة لطلب المدد من الداخل واضافة لذلك كانت ترسل ، حين ملاءمة البحر للابحار ، جماعة اضافية كما هو الحال في طرابلس اذ كان معاوية كما يقول البلاذري « يوجه في كل عام الى طرابلس جماعة كثيفة من الجند يشحنها بها ويوليها عاملا فاذا انغلق البحر قفل وبقي العامل في جماعة منهم يسيرة » . اما العمران والترميم فقد تم في مدن وحصون عدة على الساحل الشامي فعندما فتح المسلمون الشاطىء فتحوا مدينة تعرف ببلدة على فرسخين من جبلة عنوة ثم انها خربت وجلا عنها أهلها فأنشأ معاوية بن أبي سفيان جبلة وشحنها . كما رمم عكا وصور وحصّن انطرطوس وعرقة وبيروت وجبيل وصيدا وظلت عملية البناء والترميم قائمة طيلة العصر الاموي وخاصة للمواقع والمدن التي يهدمها الروم في غاراتهم أيام ضعف العرب المسلمين بالفتن الداخلية .

ومن الامثلة عليها قيسارية وعسقلان اللتان اعاد عبد الملك بن مروان بناءهما . كما اعمرت هذه المدن بالناس خاصة بعد تشجيعهم بالاقطاع فيها

فقد نقل معاوية قوما من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الاردن (صور وعكا) سنة اثنين واربعين . ونقل من اساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى انطاكية حوالي السنة نفسها . وينقل البلاذري أيضا بسند طويل يعود الى معمرين لمنطقة الشاطىء قولهم « نزلنا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم ثم نزع الينا أهل بلدان شتى فنزلوها معنا وكذلك جميع سواحل الشام » (١١٩) .

وسار نظام الدفاع عن السواحل خطوة اوسع الى الامام عندما انتقل العرب المسلمون من تحصين السواحل الى المباشرة في انشاء الاسطول . ولم يكتفوا في هذا المجال بدور الصناعة التي ورثوها عن ايام البيزنطيين في مصر وانما اقاموا دار صناعة بعكا على شاطىء جند الاردن سنة ٤٩ هـ في عهد معاوية ثم نقلها المردانيون الى صور . وفي المغرب ، وبعد ذلك بثلاث وثلاثين سنة ، أنشأ العرب المسلمون في افريقيا اثناء ولاية حسان بن النعمان قاعدة تونس البحرية بدلا من قرطاجنة البيزنطية التي خربت ،، وفي موقع قريب منها الا انه اكثر ملاءمة لكونها غير مفتوحة على البحر مباشرة مثلها بل وراء بحيرة ، وانشأ فيها دار صناعة امده الخليفة تحقيقا لهذا الغرض بألف قبطي حملوا من مصر مع عائلاتهم (١٢٠) .

ويمكن الاعتقاد بأن الاسطول العربي الاسلامي أضحى كبير العدد خلال خلال هذه الفترة بناء على بعض المؤشرات منها ما يقوله ابن عبد الحكم والكندي بأن مراكب العرب المسلمين في معركة ذات الصواري سنة ٣٤ هـ كانت مائتي مركب ونيف في هذه الفترة المبكرة وقبل انشاء دور الصناعة في الشام وافريقيا . ومؤشر آخر يمكن الاعتماد عليه هو أن والي مصر حفص بن الوليد قد فرض أو ادخل في الديوان لحساب الخليفة يزيد الثالث ثلاثين الفا من المقامصة والموالي (١٢١) وهم من العاملين في البحر الذين لم ينالوا قبلا شرف التسجيل في الديوان . ومن المعروف ان كلمة المقامصة هي التحريف العربي للمحارب عند اليونان « ماشيموس » كما ان المولى كانت مستخدمة كمرادف للنوتي التي استخدمتها العرب ايضا .

أما في المجال البري فكانت هضبة الاناضول ميدان المعارك سواء في غارات العرب المتكررة أو خلال محاولاتهم لفتح القسطنطينية . ويظهر أن الروم البيزنطيين منذ انسحاب هرقل قد اخلوا المنطقة الى ما وراء طوروس وضربوا ما فيها من عمران ودمروا ماتحتوي عليه من موارد ، وخاصة طريق الممرات

بين انطاكية وطرسوس . وربما فعلوا ذلك لحرمان العرب المسلمين من اتخاذ مآوي لهم والانتفاع بموارد المنطقة . وبالتالي بقيت حدود المسلمين خرابا في هذه الجهة من انطاكية وما حولها الى ما يوازيها حتى الجزيرة ، أي كل المنطقة التي سماها الرشيد عواصم ، واضطر قادة الشواتي والصوائف اذا دخلوا بلاد الروم أن يخلفوا وراءهم جندا كثيفا الى خروجهم وذلك خوفا من هجمات عليهم من الخلف وضرب المتخلفين والمنقطعين منهم .

وفي عهد معاوية بدأ شك هـذه المناطق بالحصون لتكون بمثابة مسالح ومحارس ونقاط انطلاق للمهاجمين من جهة وحماية لخطوطهم الخلفية من جهة اخرى . وتركز اكثر العمـل بالتالي على البناء في منطقة مدخلي بـلاد الروم البيزنطيين ، من جهة الساحل الشامي والممرات الجبلية الى جهات ساحـل الاناضول الجنوبي ، بين انطاكية وطرسوس ، ثم من ناحية الفرات ، ولم تلبث المنطقة الاولى ان دعيت بالثغور الشامية ودعيت الثانية بالثغور الجزرية . تشبه المنطقة الاولى مثلثا رؤوسه في انطاكية ونهرجيجان وطرسوس . فعلى الساحل بجوار انطاكية بنيت سلوقية وعلى بعد اربعة فراسخ مـن انطاكية بني حصن بغراس وفي الممرات الجبلية بني حصنا قطرغاس وموره وبني على نهر جيجان على اساسه القديم حصن المصيصة الكبير سنة ٨٤ هـ وتجاوزه العرب المسلمون ليبنوا في عهد مروان بن محمد شرق جيجان حصن الخصوص . وفي المنطقة الثانية ، منطقة ثغور الجزيرة بنيت شمشاط وملطية . ثم توغلـوا اكثر نحو الداخل فبنوا حصن طراندة على مسيرة ثلاثة أيام من ملطية .

اقيمت هذه الحصون باعتبارها محارس حاميات من الرجال ، فقد اقام هشام في حصن مورة اربعين رجلا من جماعة الجراجمة وفي بغراس خمسين ، بينما أسكن عبد الله بن عبد الملك في حصن المصيصة جماعة كبيرة من الجند بلغ عدد المختارين منهم من ذوي البأس والشدة ثلاثمائة رجل ، ثم جاء مروان ابن محمد فانزل الخصوص فرسا وصقالية وانباطا نصارى مما يوحي بكثرة العدد ايضا . ومما يلاحظ في توزيع الجند على الحصون ان عدد الجند في حصون الطريق قليل بينما يتضخم في الحصون الواقعة في منطقة التماس مع العدو .

عدا عن الهجمات الكبرى الموجهة ضد القسطنطينية كان العرب يقومون بغارات دورية سنوية تقريبا على البيزنطيين سميت بالصوائف والشواتي ويسمي البلاذري القوة المهاجمة احيانا باسم الطوالع التي تأتي من القاعـدة الرئيسية المجاورة للحدود ، وذلك من معرض حديثه عن المصيصة ، حيث يذكر ايضا ان

عدد « من كان يطلع اليها الف وخمسمائة الى ألفين » . بينما يسجل لنا ابن عساكر وهو متأخر رواية منقولة عن احد المشاركين فيها زمن معاوية يصف طريقتهم في الغارات ويقول انهم ينقسمون الى فرق عندما ينزلون في اراضي البيزنطيين تنقسم للحراسة والدفاع وقسم للاغارة مع تأمين الاتصال بين الجميع (١٢٢) . ويقدم لنا الكاتب قدامة بن جعفر الزمن الذي تقوم به هذه الغارات التي تسمى بالشواتي والصوائف فيجعل الصوائف حملتين والشواتي حملة واحدة . تقوم حملة الصوائف الاولى في اواسط مايو العجمي او مايس عندما تكون الخيول قد سمنت ولمدة ثلاثين يوما تتابع فيها الرعي في الارض البيزنطية وبعدها يرتاح المسلمون شهرا ليتابعوا الغزو بعد ذلك لمدة شهر آخر . وبهذا يكون المجموع ستين يوما . أما حملة الشواتي الوحيدة فتبدأ أواخر شباط الى اوائل آذار (١٢٣) ، أي لاتستمر اكثر من عشرين يوما . لكن الاخبار التاريخية التي يوردها البلاذري لاتؤيد هذه القواعد النظرية فعند الحديث عن ملطية من الثغور الجزرية يقول : « وكانت تأتيها طالعة من جند الجزيرة في الصيف فيقومون بها الى أن ينزل الشتاء وتسقط الثلوج » وعند حديثه عن المصيصة في الثغور الشامية يقول : « وكانت الطوالع من انطاكية تطلع عليها في كل عام فتشتو بها ثم تنصرف ... » وهذا يعني ان العملية حسب وصف البلاذري تكاد تنطبق على الفصول . كما انه يفهم من اقوال البلاذري شيء آخر وهو ان كل ثغر مختص بفصل للغزو فالصوائف تتوجه الى ثغور الجزيرة والشواتي الى ثغور الشام ، ويؤكد هذا المعنى في مكان آخر عندما يشير الى ملطية « بأنها كانت طريق الصوائف » . ربما تكون دلالات البلاذري مقصودة وصحيحة ويمكن تبريرها بقسوة الشتاء في أعالي الفرات داخل الاناضول أي في منطقة الثغور الجزرية ، وكونه محتملا اكثر في الثغور الشامية القريبة من البحر نسبيا .

لعل آخر ما يمكن الحديث عنه فيما يتعلق بنظام الثغور قضية ترغيب الناس بسكناها وربطهم بالارض بها ، فقد لجأ الامويون الى منح الاقطاعات في بعضها وفي بعضها الآخر يحيلون واردها ينفق على القائمين بها ولو كان ملكا خاصا مثل بغراس التي كانت ملكا لمسلمة بن عبد الملك ووقفها على سبيل البر (١٢٥) ، وفي أماكن اخرى كسلوقية حصن انطاكية على البحر (اعطيت الارض مقابل مبالغ بسيطة) اذ صير الفلثر (وحدة للمساحة تقابل الفدان أو الجريب) بدينار ومدي قمح . وعندما فتحت الاندلس في وقت متأخر من هذا العصر حدث ما يدل على أن مفهوم تقديم أو اقطاع الارض في الثغور للناس أمرا مقبولا ومعتادا ومفهوما سائدا . اذ سقطت أراضيها عنوة في الغالب فلم تخمس كما فعل

الرسول الكريم فيما فتح ، كما لم تقر لجميع المسلمين كما فعل عمر . يضاف الى ذلك أن هناك أراضي خالية هرب منها اصحابها من النبلاء ورجال الكنيسة الكبار ، أو قتلوا ، وهي تشكل نسبة واسعة من الارض ، كما أن بعض الاراضي سقطت صلحا . ومع كل ذلك عامل موسى بن نصير ولمصلحة المحاربين جميع الاراضي معاملة الغنيمة وحاول أخذ الخمس فأخذه من السبي والاموال لكنه لم يكمله من الاراضي ، واقرهم الوليد على ما بأيديهم باعتبارها ثغرا . وعند تولي عمر بن عبد العزيز أرسل السمح بن مالك الخولاني ليقوم بتمييز ارض العنوة عن أرض الصلح ليصح التخميس فلجأ المالكون الى تعلتهم المعروفة وهي الرغبة في ترك أراضي الاندلس والعودة للمشرق فاقرهم عمر على ما بأيديهم وعلى ما سجله لهم الوليد وموسى بن نصير وامر واليه بأن يقر القرى بأيدي أربابها (١٢٦) .

نظرة عامة واستنتاج

باستعراض ما مر يتبين لنا أن قضية التنظيم العسكري في الحضارة العربية الاسلامية مثلها مثل سائر قضايا هذه الحضارة تحتوي على عناصر أربعة ، عربي جاهلي واسلامي، واقتباس عن الآخرين مع ابتكار ذاتي مستجيب ومنسجم مع تطور الظروف الموضوعية التي كان العرب يمرون بها . وهكذا رأينا القبيلة او العشيرة وحدة المجتمع الجاهلي تستمر في البقاء وبقوة متفاوتة حسب الزمان والموقع ، اذ تظهر على شكل وحدة عسكرية أو مالية وحتى سكنية في بعض الاحيان . وعندما تدمج لغايات عسكرية أو مالية في تنظيمات أكبر لا تذوب وانما تبقى عنصراً مكونا وبارزا في هذه التنظيمات . كما أن العادات القبلية بقيت ظاهرة على مستوى بعض العادات كعادة الانتماء عند احتدام المعركة أو التقدم للاشتباك قبلها كقولهم انا الفتى الشيامي وانا الفلام الشاكري . يأتي العنصر الاسلامي ليعطي للنظام العسكري الغاية المثالية أو الانسانية لعمله ، فالحرب ليست غاية وانما السلام هو الهدف وهو القاعدة الثابتة التي لا يجب تجاوزها أو الخروج عنها الا لهدف مثالي نبيل ، وهل هناك اسمى من تأمين حرية نشر رسالة الاسلام وتبليغ أمر الله ؟ وفي الوقت نفسه حوى الاسلام تشريعا تضمن في جملة ما تضمنه تنظيما كاملا للعملية بدءاً من القتال وانتهاء بتوزيع الغنائم . أما الاقتباس فيظهر واضحا جليا ومباشرا في صناعة آلات حرب الحصار ، وسار مع الاقتباس جنبا الى جنب التطور الذاتي والابتكار على شكل استجابة ناجحة لمتطلبات التطور في الظروف الموضوعية كما حدث عندما تطور الجيش تطورا كميا كبيرا ، من

جيش جماعة الى جيش ما يشبه القبيلة ثم الى مجموعات جيوش القبائل بكل ما توفره من اعداد لكن التطور الكيفي بقي متخلفا حتى أصبح خطرا مهددا عند مواجهة جيوش الامبراطوريتين الكبيرتين فارس والروم البيزنطيين ، وتم حينذاك العمل المنسوب لخالد والذي كون من مجموعة الجيوش جيشا واحدا وقدم بالتالي مثلا على التطوير والابتكار المتلائم مع التغير في الظروف الموضوعية .

من ناحية ثانية يبدو التطور في مظاهر التنظيم العسكري سريعا بالقياس الى الوتائر البطيئة للتطور في مجالات الحياة المختلفة لتلك العصور ، وذلك فيما لو قارنا بين البداية والاوج وبينهما مدة لاتتجاوز الخمسين سنة في كثير من الاحيان ، سواء على صعيد العدد أو على صعيد الآلات والعدد ، ويكفي لبيان الفارق على الصعيد الاول تذكر القفزة الواسعة في العدد بين محاربين لا يتجاوزون العشرات الى جيش كبير يعد بمئات الالوف . وعلى الصعيد الثاني صعيد الالة الحربية والعدد يكفي استعادة صورة أولئك الرجال الذين كانوا يجهدون خلال حروب الردة أمام حائط حديقة الموت كي يرفعوا بعضهم على اكتاف بعض ليصل آخرهم بعد محاولات عدة فاشلة الى أعلاه ويقفز منه ليفتح الباب لرفاقه ، ومقارنة هذه الصورة مع صورة جيش قتيبة بن مسلم الباهلي وهو يدك بمنجيقاته عن بعد سور مدينة ليفتح فيها ثغرة تلو ثغرة وعندما يطلب منه حكام المدينة استمهالهم ليلة واحدة كي يستسلموا او يوقف الضرب يجيبهم بما يشتم عنه الزهو والفخر والثقة بفعالية اسلحته بأنه لايقبل الا بوقوف جنده على الثغرة وأن تبقى منجنيقاته تخطر فوق رؤوسهم .

اضافة لهذا التطور والتنظيم في التفاصيل نلمح تنظيما على المستوى العام والشامل . فهناك ، على سبيل المثال ، قواعد للجيش تنطلق منها الفتوحات وعندما تبتعد عنها الحدود كثيرا تقدم القواعد الى الامام في الشرق والغرب بآن واحد . وتميز الحدود عن بقية اراضي الدولة وتسود بالنسبة لها اعتبارات واحدة في كل الامكنة كاعطاء المحاربين عليها والمقيمين فيها تسهيلات في ملكية الارض أو الانتفاع ، من حدود الشام مع الروم البيزنطيين الى الاندلس ثغر العرب المسلمين وحدودهم مع الجلالقة والفرنجة . وعلى حدود البحر ايضا يسود نظام موحد للدفاع عن الشواطىء وتقام المنشآت لصنع القطع البحرية في كل شاطىء عندما تتوفر الوسائل اللازمة لذلك وبالتعاون بين أجزاء الدولة الواحدة .

واخيرا توفر مفردات الوقائع التي اوردناها امكانية تبين شيء من سوء التقييم لهذه الفترة والتقليل من قيمة واهمية التطورات التي حدثت فيها سواء

على مستوى التفاصيل أو على مستوى التنظيم العام . وذلك ضمن ابحاث ومقالات حديثة منشورة في دوريات أو في الموسوعة الاسلامية الثانية . كتقدير لبعض بأن عدد أفراد الجيش في أوج فترة التوسع لم يتجاوز المائة ألف رغم ان اكثر التقديرات اقلالا سواء في روايات المؤرخين أو فيما تعكسه الاحداث تقفز بهذا الرقم الى الضعف . وفي مجال الحديث عن استخدام العرب للآلات الحربية في حروب الحصار يؤخر البعض استخدامها الى زمن الحروب الصليبية عندما تأثر العرب بالصليبيين . وفي مجال التقييم العام يقدم باحث آخر حكماً عاما يقول بأن الجيش المنظم بالمعنى الدقيق للكلمة لم يظهر الا في العصر العباسي. مما يطرح تساؤلات عدة . منها اذ لم يكن كل ماتم في الفترة مجال البحث نظاما وتنظيما فما معنى النظام والتنظيم ؟ ثم هل حدث انقطاع في تاريخ العرب كأمة عند انتقال الحكم من الامويين الى العباسيين ؟ واذا كان الامر كذلك كيف ظهر النظام والتنظيم وخلق فجأة . واذ لم يكن الامر كذلك أليس من الاصح القول ان التنظيم العسكري خطا في ظل العباسيين خطوات الى الامام بعد ما سار شوطا على هذا الطريق قبلهم .

---

(١) ابن سيدة ، المخصص ، ج٦ ، ص ٢٠٤ . ابن حبيب ، المحبر ، ص ١٣٢ — ١٣٣ . ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٢) سورة الحج ، آية ٣٩ — ٤٠ .

(٣) سورة البقرة ، آية ١٩٠ .

(٤) دروزة ، الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث ، دمشق ١٩٧٥ ، ص ٥٨ — ٦٠ .

(٥) ابن رشد ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ط بيروت ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ . التاج ج ٤ ، ص ٣٠٥ .

(٦) بداية المجتهد ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٧) المصدر السابق ص ٢٤٤ .

(٨) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

(٩) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، الطبعة الثالثة ، مصر ١٩٧٣ ، ص ٥٢ — ٥٣ .

(١٠) البلاذري ، فتوح ، ص ٧٥ — ٧٦ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

(١٢) ابن هشام ، السيرة ، الطبعة الثانية ، مصر ١٩٥٥ ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

(١٣) بداية المجتهد ، ص ٢٤٣ .

(١٤) الطبري ، ج ٣ ، ص ١١ .

(١٥) ياقوت الحموي ، المعجم ، مادة : نهر الاساورة .

(١٦) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٦٦ — ٣٦٩ .

(١٧) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٩٨ . رغم ان المقريزي من رجال القرن التاسع ومتأخر عن الاحداث لكنه يستقي هذه المعلومات من متقدمين كالقضاعي والكندي المتوفى على ما يروى حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ، وقد اشتهر بمعرفته بأحوال مصر وله كتب كثيرة عنها منها كتاب عن الخطط . وانظر كذلك ، ابن ماكولا ، الاكمال ، ج ٤ ص ٣٨٦ .

(١٨) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٠٩ ، ٢١١ .

(١٩) الطبري ، ج ٤ ، ص ١٥٥ .

(٢٠) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥٧ .

(٢١) رواية المدائني في المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٧٤ .

(٢٢) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٧٥ .

(٢٣) ابن عذاري ، البيان المغرب ، طبعة بروفنسال ، ج ١ ، ص ٣٧ – ٣٨ . ابن خلدون ، العبر ، طبعة بولاق المصورة ، ج ٧ ، ص ٩١ . المالكي ، رياض النفوس ، ص ٣٣ – ٣٤ .

(٢٤) ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٤٢ – ٤٣ .

(٢٥) رواية ابن حيان في النفح ، ج ٢ ، ص ٣٦ . الاخبار المجموعة ، ص ١٠٩ .

(٢٦) الترشخي ، تاريخ بخارى ، طبعة دار المعارف ، ص ٦٢ .

(٢٧) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ط ٣ ، ١٩٦٣ ، ص ٨٥ .

(٢٨) الترشخي ، ص ٦٥ .

(٢٩) ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

(٣٠) البلاذري ، فتوح ص ٣٩ – ٤٢ .

(٣١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٠٢ .

(٣٢) الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٠٦ .

(٣٣) ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، سلسلة تراثنا ، ص ٢١٢ – ٢١٣ .

(٣٤) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٣ .

(٣٥) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٩٩ .

(٣٦) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٠٤ .

(٣٧) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ .

(٣٨) ابن منظور ، لسان العرب المحيط ، مادة « جعالة » .

(٣٩) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٣٤ .

(٤٠) في المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣٥ .

(٤١) رواية المدائني في الطبري ، ج ٦ ، ص ٣١٤ .

(٤٢) ابن عبد الملك ، الذيل والتكملة ، ج٥ ، ط ١ ، ص ٢١٤ .

(٤٣) الاخبار المجموعة ، ص ٣٢ – ٣٣ .

(٤٤) ابن خياط ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ – ٣٨٣ .

(٤٥) ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤٠٣ – ٤٠٤ .

(٤٦) في الطبري ، ج ٣ ، ٢٩٣ .

(٤٧) ابن منظور ، اللسان ، مادة « سند » ومادة « كردس » .

(٤٨) المسعودي ، مروج الذهب .
(٤٩) ابن الكلبي ، انساب الخيل .
(٥٠) في الطبري ، ج ٤ ، ص ٥١ – ٥٢ .
(٥١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٤١
(٥٢) رواية ابي مخنف في الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٠٣ .
(٥٣) ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ١٧١ – ١٧٢ .
(٥٤) رواية المدائني في الطبري ، ج ٧ ، ص ٧٣ .
(٥٥) الطرطوشي ، سراج الملوك ، ص ١٥٥ .
(٥٦) رواية سيف في الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٤٤ – ٤٤٥ . البلاذري ، انساب ، ج ٥ ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .
(٥٧) أخبار مجموعة ، ص ٣١ – ٣٢ .
(٥٨) رواية المدائني في الطبري ، ج ٧ ، ص ٧٩ ، ٧١ – ٧٢ .
(٥٩) رواية ابي مخنف في الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٢٨ .
(٦٠) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٩٧ .
(٦١) البلاذري ، فتوح ، ١٧١ – ١٧٢ .
(٦٢) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .
(٦٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٠٣ ، ج ٧ ، ص ٨٢ .
(٦٤) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٦٥ و ص ٥٣٥ .
(٦٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ .
(٦٦) الطبري ، ج ٦ ، ص ٨٢ و ج ٣ ، ص ٥٥٩ .
(٦٧) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٧٣ .
(٦٨) رواية ابي مخنف في الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٩٥ . المسعودي ، انساب ، ج ٥ ص ٢١٠ .
(٦٩) المسعودي ، انساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٢٤٧ . الطبري ، ج ٦ ، ص ٨٦ – ٨٧ .
(٧٠) رواية ابن مخنف ، طبري ، ج ٥ ، ص ٤٢٢ .
(٧١) أحمد بدر ، دراسات في تاريخ الاندلس ، ص ١٦ – ١٧ .
(٧٢) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٨٣ .
(٧٣) رواية سيف فى الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ .
(٧٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٦٣ .
(٧٥) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٩ – ١٠ والمقري ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٤٥ – ٢٤٧ .
(٧٦) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٠ .
(٧٧) البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٧ .
(٧٨) الادريسى ، طبعة دوزي ، ص ١١٢ ، الحميري ، الروض المعطار ، ٤٦٢ – ٤٦٤ .
(٧٩) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ص ٦ .
(٨٠) الاعلاق النفيسة .

(٨١) ابن منظور ، لسان العرب المحيط ، مادة فحج .

(٨٢) رواية المدائني في الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٦٣ .

(٨٣) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٢٤ – ٢٦ .

(٨٤) ابو عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق محمد خليل هراس ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٢٥–٤٣٨

(٨٥) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

(٨٦) الطبري ، ج ٣ ، ص ٦١٣ – ٦١٩ . ابو عبيد ، الاموال ، ص ٣١٩ – ٣٢٥ .

(٨٧) العلي ، التنظيمات ... ، ص ١٥٢ .

(٨٨) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٧٥ .

(٨٩) البلاذري ، انساب ، ج ٥ ، ص ١٣٦ .

(٩٠) تيوفانيس عن ولهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص ١٢٦ .

(٩١) رواية ابي مخنف في الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٤٧ .

(٩٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٨٦ .

(٩٣) البلاذري ، ج ٥ ، ص ٢٨٠ . الطبري ، ج ٥ ، ص ٢١١ .

(٩٤) العلي ، التنظيمات ... .

(٩٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، تحقيق المنجد ، ج ١ ، ص ٥٥٦ .

(٩٦) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٣ .

(٩٧) الطبري ، ج ٥ ، ص ١٩٣ .

(٩٨) ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق عنان ، ج١ ، ص ١١٠ – ١١١ .

(٩٩) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٩ .

(١٠٠) العلي ، التنظيمات .... ، ص ١٦٥ .

(١٠١) المقريزي ، خطط ، ص ٩٤ .

(١٠٢) الكندي الولاة ... ، ص ٧٦ .

(١٠٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٩١ .

(١٠٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٩١ . المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

(١٠٥) رواية سيف في الطبري ، ج ٤ ، ص ٤١ .

(١٠٦) المقريزي ، خطط ، ص ٢٩٧ .

(١٠٧) ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٦٣ .

(١٠٨) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٥ – ٤٦ .

(١٠٩) المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٢٩٦ – ٢٩٨ .

(١١٠) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة كوفة .

(١١١) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٩ – ٥٠ و ٣١٦ .

(١١٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩ .

(١١٣) البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٤ – ١٣٥ و ١٤٨ – ١٤٩ .

(١١٤) اخبار مجموعة ، ص ٣٠ – ٣١ . ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٥٤ .

(١١٥) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ٦١ ــ ٦٢ .

(١١٦) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٨٢ .

(١١٧) المصدر السابق ، ص ١٩٢ . الكندي ، الولاة وكتاب القضاة ص ٣٥ ــ ٣٦ . ابن ماكولا الاكمال ، ج ٢ ، ص ١١٥ و ص ٥٣٠ .

(١١٨) البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٣ ــ ١٣٤ .

(١١٩) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(١٢٠) ابن ابي دينار ، المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ،

(١٢١) الكندي ، الولاة وكتاب القضاة ، ص ٨٤ .

(١٢٢) ابن عساكر ، التهذيب ، ج ٦ ، ص ١٢١ و ١٢٨ .

(١٢٣) قدامة بن جعفر ، ص ٢٥٩ .

(١٢٤) البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٩ و ١٨٩ .

(١٢٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة بغراس .

(١٢٦) رواية الرازي في « الرسالة الشريفية » المطبوعة كملحق لكتاب ابن القوطية افتتاح الاندلس ، ص ٢٠٤ ــ ٢١١ .

* * *

مؤتمرات تاريخية

المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية

والمهمات المطروحة على عاتق المؤرخين العرب

د. مسعود ضاهر

الجامعة اللبنانية

تعقد الجمعية الدولية للعلوم التاريخية مؤتمرها مرة كل خمس سنوات يضم مؤرخين من كافة أرجاء العالم على اختلاف انتماءاتهم العرقية والايديولوجية . وهي مناسبة هامة يتبادل فيها المؤرخون الابحاث والاراء ويتناقشون في جو من الديموقراطية والحوار المثمر حول موضوعات نقدم الى اللجنة خلال السنوات الخمس التي تسبق تحضير المؤتمر وتتم طباعتها وتوزيعها على المشاركين مباشرة قبل انعقاد المؤتمر .

عقد المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية هذا العام في عاصمة جمهورية رومانيا الاشتراكية ، بوخارست ، في الفترة الممتدة ما بين ١٠ و ١٧ آب ١٩٨٠ وبحضور أكثر من ألفين وخمسماية مؤرخ وباحث في العلوم التاريخية (بلغ عدد الاعضاء المسجلين رسميا في لوائح المؤتمر ٢٦٩١ عضواً) وفدوا من أرجاء العالم كافة .

افتتح الرئيس الروماني نيقولاي شاوشيسكو هذا المؤتمر الضخم الذي لم تشهد مثيلا له مؤتمرات المؤرخين السابقة . وذلك في قاعة قصر المؤتمرات الكبرى في العاصمة الرومانية . وقد شدد شاوشيسكو في خطابه على الاهمية التاريخية لانعقاد المؤتمر في رحاب بلاده وتمنى على المشاركين تقديم المساهمات العلمية لتعميق الدراسات التاريخية ونشر معرفة أفضل حول المشاكل التي تعاني منها مجتمعات اليوم . ودعا الى تبادل وثيق بين الحضارات البشرية بمعزل عن الانتماء العرقي للقوى المشاركة في صنع تلك الحضارات . وشدد على ضرورة احترام الخصوصيات التاريخية لكل شعب فميزت تطوره وقادته الى بناء دولة قومية معترف بها عالمياً .

وختم الرئيس الروماني كلمته بالقول : « نعيش الآن مرحلة التبدلات الثورية العميقة على كافة المستويات الوطنية والقومية والاجتماعية . كما نعيش

أيضاً تبدلات نوعية على مستوى ميزان القوى العالمي . فهذه المرحلة التاريخية التي نعيشها اليوم تفسح المجال أمام جميع الشعوب للتعبير عن وجودها الحر وسيادتها الكاملة على أراضيها ، وامتلاك مصيرها بيدها مع المساهمة النشيطة في بناء السلم والاستقرار في العالم . وكلنا ثقة ان تكاتف الشعوب ، بقيـادة قواها الاكثر طليعية ، قادر على ترسيخ السلم والاستقرار في العالم وبناء مجتمع جديد تنتفي فيه الحروب ويضمن للشبيبة العالمية أجواء أفضل من العدالة الاجتماعية والحرية .

والقيت في حفل الافتتاح كلمات ممثـل الاونيسكو ، ورئيس الجمعيـة الدولية للعـلوم التاريخية ، ورئيس الجمعية الرومانيـة للعلوم التاريخية . فشددوا في كلماتهم على أهمية انعقاد المؤتمر الذي ضم هذا الحشد الضخم من المشاركين وأفسح لهم مجال الاطلاع على انتاج بعضهم البعض ومناقشة أهم القضايا الاجتماعية والسياسية والاثرية ، ودراسة تطور حركات التحرر في العالم ، والمشكلات الرئيسية التي تعترض طريق السلم والاستقرار في العالم . واعتبر البعض ان المؤتمر هو بمثابة « عائلة كبيرة للمؤرخين » ينتج عنها تبادل الافكار والمؤلفات . كما اقترح بعض الخطباء استمرار السعي الدؤوب للجان التاريخية العالمية من أجل الوصول الى فهم أفضل لمشاكل المجتمعات المعاصرة ، بحيث يصبح المؤرخون رسل معرفة وتبادل خبرات في مجال التقارب بين الشعوب والدول بمعزل عن الانظمة السياسية التي تسودها .

لجـان المؤتمر :

توزعت أعمال المؤتمر على مدى أسبوع كامل في اطار اللجان الاساسية التاليـة :

ـــ اللجنة الدولية للدراسات البيزنطية .
ـــ اللجنة الدولية للدراسات السلافية .
ـــ مناهج وطرق دراسة تطور مجتمعات اوربا الوسطى منذ عام ١٩٤٥
ـــ اللجنة الدولية لدراسات عصر النهضة .
ـــ اللجنة الدولية لعلم المسكوكات .
ـــ اللجنة الدولية للتاريخ الاقتصادي .
ـــ اللجنة الدولية للعلاقات بين الشرق والغرب منذ العصور الوسطى .
ـــ اللجنة الدولية لتاريخ الحقوق والشرائع .
ـــ اللجنة الدولية لتاريخ الحركات الاجتماعية .
ـــ اللجنة الدولية للدراسات المتعلقة بجنوب شرق اوروبا .

ـــ اللجنة الدولية للتاريخ البحري .
ـــ اللجنة الدولية لتاريخ الحرب العالمية الثانية .
ـــ اللجنة الدولية لتاريخ المؤسسات الدولية .
ـــ اللجنة الدولية للدراسات العسكرية المقارنة .
ـــ لجنة المؤرخين الافارقة .
ـــ اللجنة الدولية لتاريخ المدن .
ـــ اللجنة الدولية لتاريخ الجامعات .
ـــ لجنة اتحاد المؤرخين العرب .
ـــ اللجنة الدولية لعلم المكتبات .
ـــ اللجنة الدولية للدراسات التاريخية المقارنة .
ـــ اللجنة الدولية للدراسات السكانية التاريخية .
ـــ اللجنة الدولية لدراسة العلاقات الدبلوماسية .
ـــ اللجنة الدولية لتاريخ الثورة الفرنسية .
ـــ اللجنة الدولية للصحافة .
ـــ اللجنة الدولية لدراسة الوثائق التاريخية .
ـــ اللجنة الادبية لدراسة التاريخ المعاصر .
ـــ لجنة المؤرخين الاوروبو ـ امريكيين لاتينيين .
ـــ لجنة الدراسات التاريخية حول ثورات ١٨٣٠ الاوروبية .
ـــ اللجنة الخاصة بجمع الوثائق العالمية والمتعلقة بتاريخ الولايات المتحدة الاميركية .
ـــ اللجنة المهتمة بكيفية تطبيق الرياضيات في الدراسات التاريخية .
ـــ اللجنة الدولية للاثار القديمة .
ـــ اللجنة الدولية للتاريخ الحديث .
ـــ اللجنة الدولية للتاريخ المعاصر .

وبالاضافة الى هذه اللجان الاساسية ، عقدت في اطار المؤتمر اجتماعات خاصة للجان محلية او ذات علاقات ثنائية بين مؤرخين من بلدان مختلفة بهدف تعميق العلاقة الثنائية وتبادل الخبرات والوثائق في مجالات متنوعة .

وقد تم توزيع الاعضاء المؤتمرين في رحاب جامعتي بوخارست الاولى والثانية ، وفي قاعة المؤتمرات الكبرى ، وفي المسرح الروماني الكبير وفي المتحف العسكري ومتاحف العاصمة الرومانية .

التقارير التي قدمت للمؤتمر :

طبعت التقارير المقدمة الى المؤتمر قبل آذار ١٩٨٠ بمساعدة مالية من الاونيسكو ووزعت على المؤرخين في ثلاثة مجلدات منـذ اليوم الاول لانعقـاد المؤتمر . أما الابحاث التي وردت الى امانة السر بعد ذلك التاريخ فقد اشير فقط الى الباحث وعنوان البحث استناداً الى النظام المعمول به في الجمعية الدولية للعلوم التاريخية . وجاءت التقارير مطبوعة باحدى اللغات الرسمية الخمس المعتمدة في المؤتمر وهي : الفرنسية والانكليزية والروسية والالمانية والاسبانية . كذلك وعدت أمانة السر بنشر المناقشات في مجلد رابـع يرسل الى عناويـن المشاركين ويتضمن تقارير اللجان والمناقشات الخطية المقدمة الى امانة سر اللجان أو أمانة سر المؤتمر طيلة فترة انعقاد المؤتمر .

بلغت صفحات المجلد الاول أكثر من سبعماية صفحة دارت عناوينها ضمن محورين فقط :

أولا ــ احداث تاريخية بارزة .

ثانيا ــ موضوعات منهجيـة .

أهم التقارير التي عالجت أحداثاً تاريخية بارزة تركزت حول الموضوعات التالية :

ــ **أوروبا الشرقية كمركز لتلاقي الحضارات العالمية** . قـدم الابحاث مؤرخون من بلغاريا ، الولايات المتحدة الاميركية ، فنلندا ، والاتحاد السوفياتي .

ــ **مشكلات السلم عبر التاريخ** . قدم الابحـاث مؤرخون مـن فرنسـا واليابان .

ــ الدول المتحدة والدول المتعددة القوميات . ركز المؤرخون أبحاثهم حول موضوع « **الدولة الاتحادية ومبادىء الوحدة عبر التاريخ** » وقدمت نماذج من تاريخ اسبانيا ، فرنسا ، المانيا الاتحادية ، المانيا الديموقراطية ، اليابان ، والاتحاد السوفياتي .

ــ **مشكلات المرأة في المجتمعات القديمة والحديثة** . تناولت الابحـاث نماذج من مشكلات المرأة السوفياتية والاميركية والفرنسية .

المحور الثاني تناول دراسات في موضوعات منهجية أهمها :

ــ **حول لغـة المؤرخ** : وقدمت أبحاث من المانيـا الغربية ، ايطاليا ، المانيا الديموقراطية ، بريطانيا ، بولونيا ، رومانيا .

— **حول موقع واهمية تدريس التاريخ في المدارس الثانوية والجامعات الحديثة** : قدمت فيها ابحاث من الاتحاد السوفياتي وبلجيكا وكندا وفنزويلا وايطاليا واليابان ومنغوليا ورومانيا ويوغوسلافيا .

— **حول مبادىء وطرائق التاريخ الشفوي غير المكتوب** : قدمت فيها أبحاث من السنغال ونيجيريا واسبانيا وبريطانيا وهنغاريا والنروج والولايات المتحدة الاميركية .

— **حول مبادىء وطرائق علم السكان وعلم البيئة وكيفية الاستفادة منها في الدراسات التاريخية الشمولية** : قدمت فيها أبحاث من بلجيكا وفرنسا وايطاليا وهولندا ورومانيا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا .

يلاحظ ان مناقشات لجان المنهجية كانت تضم اعداداً كبيرة من المشاركين بالمؤتمر . وكانت الكلمات التي تلقى تترجم مباشرة الى اللغات الرسمية الخمس المعتمدة في أعمال المؤتمر . وحافظت اللجان المنهجية على نسبة حضور مرتفعة جداً طوال فترة انعقاد المؤتمر مما يدل على الاهمية القصوى التي يوليها المؤرخون للدراسات المنهجية وآفاق تطورها وكيفية الاستفادة من خبرات بعضهم البعض في مجال تعزيز الكتابة التاريخية العلمية .

وقد ابرز نقاش المؤتمرين مدى أهمية الوثائق الشفوية كمصادر أساسية لدراسة التاريخ المعاصر والاتصال بماضيها عبر ما اختزنته ذاكرة الناس من حكم وامثال وعادات وتقاليد وفولكلور وغيرها من المصادر التي يمكن تسجيلها وتحليلها والاستناد اليها في الكتابة التاريخية العلمية .

تقارير المجلد الثاني ناهزت الثمانماية صفحة ضمن عنوان رئيسي واحد : **أحداث تاريخية** واندرجت الابحاث ضمن المحاور التقليدية المعروفة : تاريخ قديم ، وسيط ، حديث ، ومعاصر .

١ ـ **في التاريخ القديم** : ركز الباحثون على نقطتين فقط :

أ ـ **حول علاقات الشرق والغرب** : وتضمن أبحاثا من اليابان والاتحاد السوفياتي وهنغاريا حول مفهوم الدولة في آسيا القديمة ، والعلاقات المتبادلة بين اليونان وشعوب البحر الاسود ، وروابط اوروبا الشمالية والشرقية بالامبراطورية البيزنطية .

ب ـ **حول الحضارات والمجتمعات القديمة** : قدمت فيها ابحاث من الدانمارك ورومانيا حول دور الرجل والمراة في أثينا ، والداشيون وحضارتهم .

٢ ـ **في تاريخ العصور الوسطى** : عولجت فيه ايضا نقطتان في اطار المؤتمر:

أ ـ **حول التبدلات الاجتماعية والاقتصادية في العصور الوسطى :** قدمت فيها أبحاث من تركيا وفرنسا وايطاليا تناولت الموضوعات التالية : التيارات الفكرية العقلانية في الشرق الاوسط في القرن الحادي عشر للميلاد ، بنى العائلة الغربية في العصور الوسطى ، مدخل لدراسة وثائق العصور الوسطى .

ب ـ **حول العلاقات التجارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى :** قدمت أبحاث من الدانمارك وفنلندا وقبرص تناولت الموضوعات الآتية : اوروبا وتجارة بحري الشمال والبلطيق ، بيزنطية والبلدان السكندينافية ، قبرص كمحطة هامة بين الشرق والغرب ابان الحروب الصليبية .

٣ ـ في التاريخ الحديث تم التركيز على ثلاثة موضوعات اساسية :

أ ـ **حول العلاقات بين الشعوب والقارات :** قدمت فيه ابحاث من قبرص ويوغوسلافيا وكندا . أهم موضوعاتها : التكون العرقي لشعوب السلطنة العثمانية عبر التاريخ ، وهو بحث بالغ الاهمية ، مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨ ، الرؤيا الفرنسية لاميركا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ـ دراسة وثائقية .

ب ـ **علاقة الفكر بالمجتمع في العصر الحديث :** قدمت فيه أبحاث من ايطاليا ورومانيا وتركيا وبولونيا . ابرز الموضوعات : المثقفون والسلطة في ايطاليا عصر التنوير في اوروبا الشرقية وآثاره السياسية ، المؤسسات الوقفية ودورها الاقتصادي والاجتماعي في السلطنة العثمانية ، ثورات ١٨٣٠ في اوروبا وآثارها الاصلاحية .

ج ـ **أثر العوامل الاقتصادية في التاريخ الحديث :** شارك فيها مؤرخون من السويد والولايات المتحدة الاميركية . اما ابرز الموضوعات المقدمة فهي :

الركائز الاقتصادية لتكون المجتمعات السلافية الحديثة ، ورد الفعل الصيني على اختراق التجارة الغربية للمجتمعات الآسيوية منذ اواسط القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين .

٤ ـ في التاريخ المعاصر تم التركيز على أربعة موضوعات رئيسية هي :

أ ـ **في العلاقات الدولية المعاصرة :** قدمت فيها أبحاث من اليابان والفاتيكان وكندا ، ابرز التقارير انهيار النظام الامبريالي العالمي ومشكلة السلم في آسيا

في القرن العشرين ، الدبلوماسية البابوية في شرقي أوروبا بين الحربين العالميتين، الاتحاد الانكليزي ١٩١٩ – ١٩٣٩ .

ب ـ **علاقة السياسة الداخلية بالتطور الاقتصادي :** قدمت فيها دراسات من ايطاليا والمانيا الغربية وفرنسا وهنغاريا والنروج . ابرز الموضوعات : النمو والتخلف في عالم القرن العشرين ، العلاقة بين المؤسسات والثورة الصناعية في فرنسا في القرن العشرين ، اقتصاد النروج بعد الحرب العالمية الثانية .

ج ـ **دراسات في تطور المجتمعات الحديثة :** قدمت فيها نماذج من الاتحاد السوفياتي وبولونيا ورومانيا وفنلندا . ابرز الموضوعات : الاصلاح الزراعي في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية ، الاثر الاجتماعي والثقافي للمؤسسات الرياضية .

د ـ **ادارة المصانع ونظام العمل في القرن العشرين :** قدمت فيها نماذج من ايطاليا ، فرنسا ، بريطانيا ، الولايات المتحدة الاميركية ، الاتحاد السوفياتي، يوغوسلافيا ، والنروج .

أهم التفارير : العمل والادارة في القرن العشرين في كل من الولايات المتحدة الاميركية والنروج وبريطانيا وايطاليا ويوغوسلافيا والاتحاد السوفياتي .

اما تقارير المجلد الثالث فقد ناهزت الاربعمائة صفحة تقدمت بها اللجان الدولية واللجان الوطنية او المحلية المشاركة بالمؤتمر .

أبرز الموضوعات التي تقدمت بها اللجان التاريخية الدولية هي التالية :

ـــ **اللجنة الدولية للدراسات البيزنطية** قدمت بحثا حول جزر بحر ايجه بعد معركة منزكرت (١) .

ـــ **اللجنة الدولية للتاريخ الاقتصادي** قدمت بحثاً حول : التخلف الاوروبي في مرآه العلاقة بين الشرق والغرب في القرن التاسع عشر .

ـــ **اللجنة الدولية لتاريخ الحقوق والمؤسسات :** قدمت ثلاثة ابحاث حول : الزواج في اوروبا الغربية في العصور الوسطى ، والزواج في العالم الاسلامي ـ وهو البحث العربي الوحيد في المؤتمر تقدم به باحث مصري غير معروف هو الشخنخيري ـ والزواج الافريقي المعاصر .

ـــ **اللجنة الدولية لتاريخ الحركات الاجتماعية عبر العصور .** قدمت أبحاثاً حول المؤسسات الصغيرة وتحولها الى مصانع كبرى منذ القرن الثامن عشر

حتى اليوم . وقدمت فيه نماذج من هذا التحول في القارات الخمس .

ــ **اللجنة الدولية للتاريخ البحري** قدمت بحثاً حـول التعريف بالوسط البحري والعاملين فيه .

ــ **اللجنة الدولية للحرب العالمية الثانية** ركزت بحثهـا حول موضوع الدعاية خلال الحرب العالمية الثانية . وهذه اللجنـة تعقد مؤتمرات سنويـة لدراسة وثائق الحرب العالمية الثانية .

ــ **اللجنة الدولية لتاريخ الدول الحديثة** قدمت بحثين حول : الدول المنفرده وعلاقاتها الثنائية والدولة الحديثة والمؤسسات البرلمانية وهو بحث بالغ الاهمية .

ــ **اللجنة الدولية لدراسة التاريخ العسكري المقارن** قدمت بحثاً حول التطور التاريخي لعلاقة الدولة بالجيش .

ــ **لجنة المؤرخين الافارقة** قدمت بحثاً حول استقلال السنغال .

اما ابرز الموضوعات التي تقدمت بها اللجان التاريخية الوطنية او المحلية فهي التالية :

ــ **اللجنة الدولية لدراسة التاريخ الديني المقارن** قدمت بحثاً بعنوان : اوروبا الشرقية ملتقى الحضارات الدينية .

ــ **للجنة الدولية لعلم السكان** قدمت بحثاً بعنوان مساهمة علم السكان في دراسة التاريخ الشمولي .

ــ **اللجنة الدولية لتاريخ الجامعات** قدمت بحثاً بعنوان تطور تقنيـة التعليم في الجامعات منذ تأسيسها حتى الحرب العالمية الاولى .

ــ **اللجنة الدولية للتاريخ الدبلوماسي** قدمت بحثاً بعنوان : من أجل قواعد عامة وشاملة لقضايا نشر الوثائق والسجلات المالية والادارية وسندات المساحة والمراسلات السياسية وغيرها .

ــ **اللجنة الدوليـة لتاريخ الثورة الفرنسية** قدم أمـين سرهـا المؤرخ الفرنسي المعروف البير سوبول بحثاً طويلاً وبالغ الاهمية بعنـوان « الملكيات العقارية وشروط تملك الارض في أوروبا زمن الحروب النابوليونية » وكانت مناقشة هذا البحث غنية جداً .

لقد استعرضنا هنا ابرز الموضوعات المسجلة في المجلدات الثلاثة مـع الاشارة الى ان عدداً وافراً من الابحاث وصل متأخراً واشير اليه فقط باسم

المؤلف وعنوان البحث دون ان يتسنى لنا الاطلاع عليه . كذلك هناك ابحاث صغيرة وتعليقات مقتضبة لم نشر اليها في هذا التعريف بموضوعات المؤتمر .

وقد توخينا من خلال هـذا العرض المستفيض حول موضوعات المؤتمر ابراز جملة من الوقائع التاريخية العلمية منها :

أ ــ أن اهتمامات المؤرخين المعاصرين في العالم كله لم تعد كالسابق مجرد رصد للظواهر السياسية ودراستها وتحليلها بـل باتت الدراسات التاريخية ذات المنحى السياسي موضوع اهتمام بنفر قليل جدا من المؤرخين . فالتطور الاجتماعي ، بشموليته السياسية والاقتصادية والثقافية والعمرانية والعسكرية والادارية وغيرها ، يشكل محور نشاط التأريخ العالمي في الربع الاخير مـن القرن العشرين .

ب ــ ان منهجية البحث وطرائق الكتابة التاريخية المعـاصرة شكلت مركز استقطاب غالبية المشاركين في المؤتمر بحيث كانت قاعة قصر المؤتمرات تغص يومياً بأعداد كبيرة منهم ويضطر بعضهم للوقوف فترة زمنية طويلة ليجد مكانا لجلوسه . وتتم ترجمة الكلمات مباشرة الى اللغات الخمس الرسمية المعتمدة في أعمال المؤتمر . وكانت المناقشات ذات طابع علمي في محاولات لتقديم تجارب المؤرخين من البلدان كافة وطرح مشكلات دراسة التطور التاريخي للمجتمعات التي ينتسبون اليها . كذلك برزت محاولات حثيثة للخروج بجامع مشترك حول حقائق العصر التي أفرزتها عملية الانتقال من المجتمعات ما قبل الرأسمالية الى نمط الانتاج الرأسمالي ومنه الى نمط الانتاج الاشتراكي في بعض البلدان . وهذه المحاولات التوحيدية لا تلغي فوارق التحليل على أساس منهجيات علمية متباينة بل تشدد على تلك الفوارق شرط ان يكون هدف التحليل ابراز دور الانسان في صنع تاريخه بنفسه والغاء كل ما يعوق عملية التطور الاجتماعي من عوامل موضوعية ناتجة عن صراع الانسان مع الطبيعة أو عن استغلال الانسان للانسان .

ج ــ أن الحواجز المصطنعة بين العلوم الانسانية غابت عن أعمال المؤتمر بحيث برز التاريخ الاجتماعي كعلم شمولي يضم كل العلوم الانسانية ويتجاوزها لابراز عملية التطور الاجتماعي بجميع جوانبها . فقد ضمت أبحاث المؤتمر نماذج من مختلف جوانب الحياة البشرية . فهناك أبحاث تصنف عادة في لائحة تاريخ الحضارات أو علم السياسة ، او علم الشرائع ، او مشكلات المراة ، او علم

الاجتماع ، او الرياضيات ، او علم السكان ، او علم دراسة البيئة ، او علم الجغرافيا البشرية ، او علم الاثار ، او علم المسكوكات ، او تاريخ الفكر والمذاهب، او علم الاقتصاد او تاريخ المدن او تاريخ المجتمعات الزراعية ... وغيرها الكثير.

وبهذه الشمولية الفنية جدا تبرز أهمية العبارة الشهيرة لكارل ماركس : « لم تعرف البشرية سوى علم واحد هو علم التاريخ » .

د ـ ان الاهتمام بالكتابة التاريخية المعاصرة يشكل أحد هواجس المؤرخين الاساسية . فلم تعد الكتابة التاريخية مجرد تسجيل وتحليل للاحداث بل تركز اهتمام المؤتمرين على الربط بين الكتابة التاريخية المعاصرة وبين تنشئة الاجيال الجديدة . وحظيت هذه الناحية بنقاش استمر يوما كاملا شارك فيه مؤرخون من مختلف بلدان العالم ، وقدمت فيه أبحاث ووثائق ودراسات نقدية لعدد وافر من الكتب التاريخية المقررة في المدارس الثانوية والجامعات في البلدان الراسمالية والاشتراكية على السواء . وكانت حصيلة تلك المناقشات ضرورة انقاذ الشبيبة من براثن النظريات العرقية والفاشية وادانة التوجهات الشوفينية والعنصرية والعسكرية عند الكثير من الانظمة المسيطرة وكان هناك اجماع على رفض مبدأ الحرب كوسيلة لحل المشكلات الدولية المعاصرة وضرورة تجنيب البشرية ويلات حرب عالمية جديدة وتنشئة الاجيال الجديدة على مبادىء حرية الشعوب في حق تقرير مصيرها دون ضغوط او تدخل خارجي .

هـ ـ بالرغم من وجود عدد وافر من الابحاث يشدد على ربط حاضر بعض الدول بماضيها « القومي » القديم (برز هـذا الاتجاه لدى المؤرخين الرومان الذين قدموا الكثير من الابحاث بمناسبة مرور الفين وخمسين سنة على ولادة الدولة الرومانية ايام الداشيين) فان الطابع الغالب للمؤتمر كان ينحو باتجاه رصد تطور المجتمعات المعاصرة على اساس نتائج المرحلة الراسمالية التي وحدت السوق العالمية وما اعقب هذه المرحلة من قيام النظام الاشتراكي أي ان الصراع الدائر منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم يتمحور ضمن عملية الانتقال من المجتمعات السابقة على الراسمالية ومنها الى الاشتراكية . لذا كانت جميع ابحاث المؤتمرين تشدد على هذه العملية كاحدى بديهيات حقائق العصر الذي نعيش فيه .

و ـ ملاحظة اخيرة في هذا المجال : ان تنوع الكتابـة التاريخية المعاصرة وشموليتها باتت يطرح بالحاح ضرورة تجاوز المؤرخ الفرد الى البحث التاريخي الجماعي. فليس بمقدور باحث فرد ان يلم بمحتويات هذا العدد الوافر جدا من الابحاث

والمناقشات . وانسجاما مع هذه النظرية الجماعية في الكتابة التاريخية الشمولية تقدمت بعض الدول ، الاشتراكية منها والرأسمالية على السواء ، بأبحاث مؤرخيها ضمن كتب معدة خصيصا للمشاركة بأعمال المؤتمر . وكانت بعض الكتب تحمل العنوان الموحد التالي مثلا : « بولونيا في المؤتمر الخامس عشر للعلوم التاريخية » . كذلك بلغاريا والاتحاد السوفياتي ، وفرنسا ، ورومانيا ، واسبانيا وغيرهم . وهذه الكتب تضم أبحاث مؤرخي هذه البلدان بين مؤتمرين ومطبوعة باللغات الخمس الرسمية المعتمدة في المؤتمر وهي تعطي صورة وافية عما وصل اليه التأريخ في تلك الدول . كما أصدرت بعض البلدان أعدادا وثائقية من المجلات التاريخية بهذه المناسبة .

توصيات المؤتمر :

بناء على توصية من اللجنة الدولية لمؤرخي اميركا اللاتينية تم اعتبار ١٩٨٠ عام سيمون دو بوليفار ، أحد قادة التحرر الوطني في اميركا اللاتينية ، وذلك بمناسبة الذكرى المئة والخمسين على وفاته . كذلك تمت توصية بضرورة احياء ذكراه عام ١٩٨٣ بمناسبة مرور مئتي سنة على ولادته . ورفع المؤرخون العرب المشاركون في المؤتمر الى امانة سره التوصية التالية :

« ان المؤرخين العرب المجتمعين في المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية المنعقدة في بوخارست ما بين ١٠ — ١٧ آب ١٩٨٠ ، شعورا منهم بمدى المساهمة العلمية الفعالية للتراث العربي في مجال العلوم التاريخية ، يطلبون من رئاسة المؤتمر اعتماد اللغة العربية احدى لغات العمل الرسمية في المؤتمر وذلك تمشياً مع مقررات الاونيسكو بهذا الشأن » .

وقد وقع الطلب المؤرخون العرب المشاركون في المؤتمر من لبنان وتونس والمغرب والعراق والسودان ومصر ومنظمة التحرير الفلسطينية . ووعدت القيادة الجديدة التي انتخبت في نهاية المؤتمر بدراسة هذا الطلب والعمل على تنفيذه في المؤتمر القادم . كذلك تم اعتماد توصيات جماعية بضرورة فتح أبواب المحفوظات (الارشيف) امام جميع الباحثين بحيث تتم الاستفادة القصوى من الوثائق في مجال الدراسات التاريخية وغيرها ، وبضرورة حماية الاماكن الاثرية والمخطوطات التاريخية وتجميع المستندات والوثائق واقامة مراكز خاصة بها في الجامعات والمعاهد العلمية والمكتبات العامة وغيرها .

بعض الملاحظات الختامية :

من خلال هذه اللوحة الوصفية الواسعة لاعمال المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية تبرز ملاحظات عدة :

أ ـ ان هذا المؤتمر هام جداً ينعقد مرة كل خمس سنوات باشراف الاونيسكو وبمساعدة مالية منه لطبع الابحاث وتوزيعها على المشاركين فقط . اي أن أكبر مرجع ثقافي في العالم هو الذي ينظم فعليا هذا المؤتمر الذي تشارك فيه وفود من غالبية دول العالم ، على اختلاف انظمتها السياسية ، وبأعداد كبيرة جدا في بعض الاحيان .

ب ـ ان الاعداد لابحاث المؤتمر يتم طيلة السنوات الخمس التي تفصل بين مؤتمرين بحيث تأتي الابحاث علمية وجادة في معظم الاحيان لان للباحث حرية اختيار الموضوع ضمن اي حقل من حقول المعرفة التاريخية التي أشرنا اليها ، وهي حقول كثيرة ومتشعبة وتطال تطور المجتمع البشري من كافة جوانبه .

ج ـ ان الجمعية الدولية للعلوم التاريخية هي التي تنظم المؤتمر وتشرف على تجميع الابحاث وتنسيقها وطباعتها ولا يحق تقديم الابحاث في المؤتمر الا للدول المشاركة في الجمعية الدولية عبر جمعيات وطنية أو محلية تاريخية تسدد اشتراكها السنوي باسم الدولة التي تنتسب باسمها . وتجدر الملاحظة هنا الى ان معظم الدول العربية ليست اعضاء في هذه الجمعية بل هناك انتساب باسم اتحاد المؤرخين العرب الذي كان شبه غائب عن أعمال المؤتمر الخامس عشر .

استناداً الى هذه الملاحظات الاولية نحاول رصد الدور العربي في المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية الذي انعقد في بوخارست هذا العام .

أ ـ لقد تميز هذا المؤتمر بالغياب شبه الكامل للدول العربية عن اعمال المؤتمر وأبحاثه . فلم تشهد المجلدات الثلاثة بصفحاتها التي تناهز الالفين اسم مؤرخ عربي واحد قدم بحثاً اصيلاً في حقل من المعرفة يعتبر العرب من رواده الاوائل أي حقل الدراسات التاريخية . فقط باحث مصري شبه مغمور هو هو الشخنخيري قدم بحثاً سريعاً حول الزواج الاسلامي .

ب ـ هناك عدد وافر من المؤرخين العرب سجلوا اسماؤهم في عداد المشاركين بالمؤتمر لكنم لم يحضروا اعمالـة [ونذكر منهم على سبيل المثال

لا الحصر عبد الله العروى ، وحسين أمين ، وعبد القادر زبادية ، وسعود عطية وغيرهم] . وكان حضورهم سيشكل دون شك عنصراً ايجابياً في تعزيز الدور العربي في أعمال المؤتمر .

ج ـ ونظراً للغياب شبه الكامل لاتحاد المؤرخين العرب على الصعيدين العربي والعالمي وعجزه عن تأطير وبرمجة حضور المؤرخين العرب في الندوات الدولية كانت الجلسات المخصصة لاتحاد المؤرخين العرب والتي كان مقررا لها أن تمتد طوال يومين كاملين ، أكثر جلسات المؤتمر فشلا ان لم نقل الفشل الوحيد الذي أصاب لجان المؤتمر . فقد كان برنامج المؤتمر يضم اربع جلسات مخصصة لاتحاد المؤرخين العرب تقدم فيها ابحاث مكتوبة حول الموضوعات التاليـة :

ـــ ركائز الحضارة العربية ، بحث يقدمه فيصل السامر .
ـــ طرائق البحث لدى المؤرخين العرب ، بحث يقدمه عبد القادر زبادية.
ـــ نشاطات اتحاد المؤرخين العرب ، بحث يقدمه حسين أمين .
ـــ مفهوم التطور في الدراسات التاريخية ، بحث يقدمه عوض خليفات.

ان اياً من هذه الابحاث لم يقدم للمؤتمر بل وفد عدد كبير من الباحثين والمهتمين بنشاطات المؤرخين العرب ، ومنهم رئيس اللجنة [illegible]رنية للعلوم التاريخية ليجدوا القاعة المخصصة لابحاث المؤرخين العرب مغلقة وخالية في اليوم الاول . . ولابد من التنويه بمحاولة بعض المؤرخين العرب المشاركين في المؤتمر لانقاذ سمعة اتحاد المؤرخين العرب اذ قدموا أبحاثاً شفوية حول الموضوعات المطروحة ونشطت اللجنة جزئياً في اليوم الاول وبشكل مقبول في اليوم الثاني لكن تنشيط اللجنة استناداً الى المؤرخين العرب الوافدين للمشاركة بالمؤتمر قد تم دون أي تنسيق مسبق مع اتحاد المؤرخين العرب الذي فاجأ مندوبه الحضور في اليوم الثاني ببحث حول أثر الرحالة العرب في تاريخ الشرق الاقصى في العصور الوسطى .

واذا كنا نسوق هذه الملاحظات القاسية حول الدور المفروض لاتحاد المؤرخين العرب فان غياب هذا الدور كان مؤلماً اذ انعكست نتائجه على المؤرخين العرب . وكان بامكان الاتحاد القيام بأعمال ذات أثر ايجابي واضح للتعريف بنشاطات المؤرخين العرب المعاصرين واسهامهم في جميع المجالات التاريخية

التي تنضوى في ظلها لجان المؤتمر . وليس مقبولاً غياب الاتحاد عن مؤتمر عالمي يشارك فيه ألفان وسبعمائة مؤرخ من مختلف بقاع العالم ولهم تأثير مباشر على ملايين الطلبـة والجماهير الشعبية ، سيما وأن الترتيبات الادارية لمشاركة الاتحاد قد أعدت بالكامل وسجلت الندوات وحددت الاسماء للمشاركة في أعمال المؤتمر .

د ـ وقد استتبع الغياب العربي عن أعمال المؤتمر غياب آخر عن معرض الكتب التاريخية الذي نظم باشراف الاونيسكو والجمعيـة الدولية للعلـوم التاريخية وذلك في قاعات معهد الفنون الجميلة في جامعة بوخارست . فمن المعروف جيدا أن الدراسات التاريخية العربية ، القديمة والمعاصرة ، هي مـن الكثافة والتنوع بحيث تغطي صالات كثيرة في المؤتمر لكن اللافت للنظر أن اتحاد المؤرخين العرب شارك بكتيبات قليلة لاتتمتع بسمعة علمية جيدة في حين كان الحضور الاسرائيلي لافتا للنظر . وليس من قبيـل الصدفة أن يكون عرض النتاج العربي الضحل جنبا الى جنب مع الجناح الاسرائيلي الغزير النتاج ، اذ تكفي المقارنة بين الجناحين لمعرفة الخلفيات الدعائية لاسرائيل من جراء هذا العرض أمام جماهير الباحثين والمشاركين باعمال المؤتمر .

هـ ـ واستتباعا لنفس الخطة لم يحظ المؤرخـون العرب ، المشاركون رسميا أو أفراديا أو بدون رغبة دولهم في بعض الاحيان ، برئاسة أي من لجـان المؤتمر طوال فترة انعقاده على مدى اسبوع كامـل وبمعدل مرتين في اليـوم الواحد . في حين حظي الوفد الاسرائيلي باهتمام خاص وتولى مندبوه رئاسة عدة لجان منها أكبر لجنة في المؤتمر ، أي لجنة المنهجية . وتجدر الملاحظة أن سكرتاريا المؤتمر وبعض المؤرخين الرومان أبدوا استعدادا وترحيبا لابراز دور المؤرخين العرب وتقديم كافـة التسهيلات لهم لمناقشة التقاريـر وتسجيـل الكلمـات في وثائـق المجلد الرابـع المزمـع اصـداره قريبـا . فاتحـاد المؤرخين العرب أو بالاحرى الدول العربية هي التي تتحمل مسؤولية غيـاب مؤرخيها عن ساحة هامة جدا من ساحات الصراع الايديولوجي ضـد العدو الصهيوني فـ [illegible]ـوف كانت مهيأة تماما لخوض معركة ناجحة في أضخم محفـل علمي تا[illegible]ـي يعقد حتى الان .

[illegible]قي أن نشير في ختام هذه الدراسة الى أن المؤتمر الخامس عشر للعلـوم التاريخية الذي انعقد في بوخارست هذا العام كان حدثا علميا هاما في مسـيرة تلاقي الباحثين في الحقل التاريخي ومناقشة انتاجهم بهدف الوصول الى معرفة

اكثر دقة بتطور مجتمعاتهم وتطور البشرية كلها . واذ سجل المؤرخون العرب حضورا افراديا ورسميا أفضل بكثير من المرات السابقة (زاد حضور المؤرخين العرب في مؤتمر بوخارست على العشرين مؤرخا مقابل ثلاثة في مؤتمر سان فرنسيسكو عام ١٩٧٥) فان دورهم الاساسي يكمن في تلافي التقصير السابق والاعداد الجيد للمؤتمر السادس عشر للعلوم التاريخية المزمع عقده في المانيا الغربية عام ١٩٨٥ .

ان الصراع الايدلوجي ، والحقل التاريخي أحد ساحاته الرئيسية ، يلعب دورا اساسيا في معركة العرب ضد اسرائيل وما تمثله من متداد للقوى الامبريالية العالمية . وعلى المؤرخين العرب تجنيد طاقاتهم في هذه المعركة ، ليكشفوا عن دورهم الحقيقي الفعال في مسيرة الحضارة الانسانية .

(١) يسميها المؤرخون العرب : مناز جرد ، ومناز كرد ، وملاز كرد ، وبها كانت الوقعة الشهيرة التي هزم فيها السلاجقة البيزنطيين عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، انظر : تاريخ ابن الاثير ، ١٠ : ٢٦ ـ ٢٨ ، ومعجم البلدان ـ مناز جرد (المجلة) .